قصص

مكتبة

ج. د. سالينجر

تسع قصص

ترجمة: أسامة منزلجي

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

telegram @soramnqraa

تسع قصص

قصص

Author: **J. D. Salinger**

اسم المؤلف: ج. د. سالينجر

Title: **Nine Stories**

عنوان الكتاب: تسع قصص

Translated by: **Osama Menzlchi**

ترجمة: أسامة منزلجي

P.C.: **Al–Mada**

الناشر: دار المدى

First Edition: **2024**

الطبعة الأولى: 2024

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

NINE STORIES by J.D. Salinger.

Copyright © 1948, 1949, 1950, 1951, 1953 by J.D. Salinger

Copyright © renewed 1975, 1976, 1977, 1979, 1981 by J.D. Salinger Arabic language rights arranged with the J.D. Salinger Literary Trust through Andrew Nurnberg Associates Limited, London

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+964 (0) 770 2799 999 — +964 (0) 780 808 0800 — +964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+961 175 2617 — +961 706 15017 — +961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+963 11 232 2276 — +963 11 232 2275 — +963 11 232 2289

ص.ب: 8272

10 10 2024 مكتبة

t.me/soramnqraa

ج. د. سالينجر

مكتبة
t.me/soramnqraa

تسع قصص

ترجمة : أسامة منزلجي

الإهداء

إلى دوروثي أولدينغ وغَسْ لوبرانو

«نحن نعرف ضجيج اليدين عندما تُصفّقان. ولكن ما هو ضجيج يد واحدة تُصفِّق؟

– من أقوال كوالا حكيم زن

المحتويات

يوم مثالي لبانانا فيش 11

العمّ ويغيلي في كونكتيكت................................ 27

قُبيل نشوب الحرب مع شعب الإسكيمو 47

الرجل الضاحك.. 63

في القارب 79

إلى إسمه Esme: - مع حبي وقذارتي........................ 91

فمي جميل وعيناي خضراوان............................. 117

المرحلة الزرقاء للرسّام دو دوميه - سميث 131

تيدي..163

يوم مثالي لبانانا فيش[1]

كان في الفندق سبعة وتسعون من رجال دعاية نيويورك، ولما كانوا يحتكرون خطوط الاتصالات الهاتفيّة الخارجيّة، اضطرّت الفتاة نزيلة الغرفة رقم 507 أنْ تنتظر من الظهيرة وحتى قُرابة الساعة الثانية والنصف لكي تتمكّن من إجراء اتّصالها. لكنّها استغلّتْ تلك الفترة من الوقت في قراءة مقالة وردتْ في مجلّة الجيب النسائيّة عنوانها «الجنس إمّا متعة أو نِقمة»، وفي غسل مشطها وفرشاة شعرها. وفي إزالة البقعة التي على تنورة ثوبها ذي لون البيج، وحلّ زر بلوزتها ماركة ساكس، وفي نزع الشعرتين اللتين ظهرتا حديثاً عن شامتها بالملقط. وعندما اتّصل عامل مقسم الهاتف أخيراً بغرفتها كانت جالسة على مقعد النافذة وقد أوشكتْ أنْ تنتهي من وضع الطلاء على أظافر يدها اليُسرى.

كانت فتاة من النوع الذي لا تترك أي عمل تقوم به لكي تردّ على هاتف يرنّ. وكأنَّ هاتفها كان يرنّ من دون توقف منذ أنْ وصلتْ إلى سن البلوغ.

بينما كان الهاتف يرنّ، استمرّتْ بتمرير فرشاة الطلاء الصغيرة على ظفر إصبعها الصغيرة على شكل قمر. ثم أعادت الغطاء إلى زجاجة الطلاء، ونهضتْ واقفة، وأخذت تُحرِّك يدها اليُسرى -الرطبة- جيئة وذهاباً في الهواء. ثم رفعتْ بيدها الجافة منفضة ممتلئة عن مقعد النافذة وحملتها معها نحو الطاولة الليليّة، حيث كان يقبع جهاز الهاتف. جلستْ على أحد السريرين التوأم المُركّبَين تركيباً ورفعتْ سماعة الهاتف – كان قد رنَّ للمرة الخامسة أو السادسة.

1- بانانا فيش: حرفيّاً تعني سمكة الموز، وهي أيضاً شخصيّة كرتونيّة في مجلة هزليّة للأطفال. – المترجم

قالت «ألو»، تاركة أصابع يدها اليُسرى ممدودة وبعيدة عن مبذلها الحريري الأبيض، الذي كان كل ما ترتدي، خلاف الخفّ - كانت قد تركت خواتيمها في الحمّام.

قال عامل المقسم «استطعتُ أنْ أحصل لك على مكالمتك إلى نيويورك الآن، سيدة غلاس»

قالت الفتاة «شكراً لك»، وأفسحت حيِّزاً على الطاولة الليليّة من أجل وضع المنفضة.

وصلها صوت امرأة. «ميورييل؟ أهذا أنت؟»

أبعدتِ الفتاة سمّاعة الهاتف قليلاً عن أُذنها. قالت «نعم، يا أمي. كيف حالك؟»

«لقد قلقتُ عليك كثيراً. لِمَ لم تتصلي بي؟ أأنتِ بخير؟»

«حاولتُ أنْ أتّصل بك ليلة أمس والليلة التي قبلها. كان الهاتف هنا-»

«أأنتِ بخير، ميورييل؟»

زادت الفتاة الزاوية بين السمّاعة وأُذنها. «أنا بخير. أشعر بالحرّ. هذا أشدّ الأيام حرارة في فلوريدا في-»

«لِمَ لم تتصلي بي؟ لقد قلقتُ عليك-»

قالت الفتاة، «أمي، حبيبتي، لا تصرخي في أُذني. أستطيع أنْ أسمعك بكل وضوح. لقد اتّصلتُ بك مرتين ليلة أمس. مرَّة بُعيد-»

«لقد أخبرتُ والدك أنكِ ربما اتّصلتِ ليلة أمس. ولكن، كلا، كان يجب أنْ - هل أنتِ بخير، يا ميورييل قولي الحقيقة»

«أنا بخير. كفّي عن سؤالي عن هذا، أرجوك»

«متى وصلتِ إلى هناك؟»

«لا أعلم. في صباح يوم الأربعاء، باكراً»

«مَن الذي قاد السيارة؟»

قالت الفتاة «هو قادها. ولا داعي للاضطراب. لقد قادها بهدوء. كنتُ مذهولة»

«هو الذي قاد السيارة؟ ميورييل، لقد وعدتني بـ-»

قاطعتها الفتاة «أمي، أخبرتكِ تواً. لقد قاد بهدوء تامّ. في الحقيقة، قاد بسرعة خمسين كم في معظم مسافة الطريق»

«هل قام بأي من تلك التصرفات الغريبة مع الأشجار؟»

«قلتُ لك إنّه قاد بهدوء شديد، يا أمي. والآن، كفى أرجوك. لقد طلبتُ منه أنْ يبقى قريباً من الخط الأبيض، وما إلى ذلك، وفهم ما أقصد، ونفَّذَ ما طلبت. بل حاول ألّا ينظر إلى الأشجار. بالمناسبة، هل أصلح والدي السيارة؟»

«لم يفعل بعد. إنهم يطلبون مائة دولار، لمجرد أنْ–»

«أمي، لقد أخبر سيمور أبي بأنه سوف يُسدِّد المبلغ، فلا داعي لـ–»

«حسن، سوف نرى. كيف تصرَّفَ – في السيارة وما إلى ذلك؟»

قالت الفتاة «تصرَّفَ بشكلٍ جيد»

«هل ظل يصفك بتلك الصِفة الفظيعة–»

«كلا. أصبح يستخدم كلمة جديدة»

«ما هي؟»

«أوه، ما الفرق، يا أمي؟»

«ميورييل، أريد أنْ أعرف. إنَّ والدك–»

قالت الفتاة، «حسن، حسن. إنّه يصِفني بالعاهرة الروحيّة لعام 1948» وضحكت ضحكاً مكبوتاً.

«الأمر ليس مُضحكاً، يا ميورييل. ليس مُضحكاً على الإطلاق. إنّه شيء مُريع. بل مُحزِن، في الحقيقة. عندما أفكِّر كيف–»

قاطعتها الفتاة «أمي، أصغي إليّ. أتذكرين ذلك الكتاب الذي أرسله إليّ من ألمانيا؟ تعرفينه، ديوان الشِعر الألمانيّ. ماذا فعلتُ به؟ كنتُ أحاول أنْ أتذكّر–»

«استلمتِه»

قالت الفتاة «أنتِ واثقة؟»

«حتماً. أقصد، أنني أنا استلمته. وهو موجود في غرفة فريدي. أنتِ تركته هنا وليس لديّ حيّز له في – لِمَ تسألين؟ أيريده؟»

«كلا. كل ما في الأمر أنّه سألني عنه، في أثناء قيادة السيارة. أراد أنْ يعرف إنْ كنتُ قد قرأته»

«لكنه مكتوب بالألمانيّة!»

قالت الفتاة، وهي تضع ساقاً فوق ساق، «نعم، يا عزيزتي. هذا لا يشكّل أي فرق. لقد قال إنَّ القصائد من تأليف أعظم شعراء القرن. قال إنّه كان ينبغي عليّ أنْ أشتري نسخة مُترجمة أو ما شابه. أو كان ينبغي أنْ أتعلَّم اللغة الألمانيّة، إنْ شئت»

«شيء فظيع. فظيع. بل مُحزن، في الواقع. مساء أمس قال والدك-»

قالت الفتاة «لحظة، يا أمي». اقتربت من مقعد النافذة لكي تأخذ سيجارة، وأشعلتْ واحدة، ثم عادتْ إلى مجلسها على السرير. قالتْ، وهي تستنشق الدخان، «أمي؟»

«الآن، أصغي إليّ يا ميوريل»

«أنا أصغي»

«إنَّ والدك يتحدث مع الدكتور سيفيتسكي»

قالت الفتاة «أوه؟»

«أخبره كل شيء. على الأقلّ هو قال إنّه أخبره -أنتِ تعرفين والدك. عن الأشجار. وذلك الأمر المتعلّق بالنافذة. وتلك الأشياء الفظيعة التي أخبرها للجدّة عن خططها للموت. وما فعل بكل تلك الصور الجميلة من بيرمودا- كل شيء»

قالت الفتاة «ماذا تقصدين؟»

«حسن، أولاً، قال إنَّ سماح الجيش بإخراجه من المستشفى هو جريمة لا تُغتفَر -صدقاً. في الغالب أنّه أخبر والدك بأنَّ هناك احتمالاً- احتمالاً كبيراً جداً، كما قال - لأنْ يفقد سيمور السيطرة التامة على نفسه. صدقاً»

قالت الفتاة «هنا في الفندق طبيب نفسيّ»

«مَنْ هو؟ ما اسمه؟»

«لا أعلم. رايزر أو ما شابه. من المُفتَرَض أنّه بارع جداً»

«لم أسمع عنه قط»

«حسن، على أيّة حال، من المُفتَرَض أنْ يكون شديد البراعة»

«ميوريِيل، لا تكوني ساذجة، أرجوك. نحن قلقون عليك جداً. ليلة أمس أراد والدك أنْ يرسل إليك برقيّة طالباً منك أنْ تعودي إلى المنزل، في الواقع–»

«من غير المتوقَّع أنْ أعود إلى المنزل الآن، يا أمي. اهدئي»

«ميوريِيل، صدقاً، لقد قال الدكتور سيفيتسكي إنّ سيمور يمكن أنْ يفقد السيطرة تماماً على–»

قالت الفتاة، «لقد وصلتُ إلى هنا تواً، يا أمي. وهذه أول فترة إجازة حصلتُ عليها منذ سنين، ولن أحزم أمتعتي هكذا ببساطة وأعود إلى المنزل. وفي كل الأحوال، لا أستطيع أنْ أسافر الآن. لقد لفحتني أشعة الشمس وأكاد لا أستطيع أنْ أتحرّك»

«هل إصابتك شديدة بحروق الشمس؟ ألم تستخدمي زجاجة البرونز التي وضعتها في حقيبتك؟ لقد وضعتها بالضبط–»

«استخدمتها. ومع ذلك أُصِبتُ بحرق»

«هذا فظيع. أينَ أُصِبت بحرق؟»

«في كل مكان، يا عزيزتي، في كل مكان»

«هذا فظيع»

«سوف أنجو»

«أخبريني، هل تحدثتِ مع الطبيب النفسي ذاك؟»

قالت الفتاة، «في الواقع، تقريباً»

«ماذا قال؟ أين كان سيمور عندما تحدثتِ معه؟»

«في غرفة أوشن، يعزف على البيانو. عزف على البيانو خلال الليلتين اللتين أمضيناهما هنا حتى الآن»

«حسن، ماذا قال؟»

«أوه، لم يقُل الشيء الكثير. في أول الأمر تحدّث معي. كنتُ جالسة إلى جواره في أثناء لعبة البينغو ليلة أمس، وسألني إنْ كان الذي يعزف على البيانو في الغرفة الأخرى هو زوجي. فقلتُ نعم، هو كذلك، فسألني إنْ كان سيمور مريضاً أو ما شابه. فقلت–»

«لماذا سألك عن هذا؟»

قالت الفتاة «لا أعلم، يا أمي. أعتقد لأنه كان شديد الشحوب وما إلى ذلك. على أيّة حال، بعد انتهاء لعبة البينغو طلب مني هو وزوجته أنْ أنضم إليهما لتناول مشروب، فوافقت. كانت زوجته شخصاً بغيضاً. أتتذكرين ثوب السهرة القبيح ذاك الذي شاهدناه في واجهة محل بونْويتْ؟ الثوب الذي قلتِ إنكِ تودّين أنْ تحصلي على قطعة صغيرة، صغيرة–»

«ذو اللون الأخضر؟»

«كانت ترتديه. بوركيها الضخمين. وظلتْ تكرّر سؤالي إنْ كان سيمور يمتّ بصِلة قرابة بسوزان غلاس صاحبة ذلك المحل التجاري في جادّة ماديسون – لبيع القبعات النسائيّة»

«ولكن ماذا قال؟ أعني الطبيب؟»

«أوه، في الواقع، لم يقُل الشيء الكثير حقاً. أعني كنا في البار وما إلى ذلك. كان الضجيج صاخباً»

«نعم، ولكن هل – هل أخبرته بما حاول أنْ يفعل بكرسي الجدّة؟»

قالت الفتاة «كلا، يا أمي. لم أخُض في الكثير من التفاصيل. قد تسنح لي فرصة للتحدث معه من جديد. إنّه يلزم البار طوال النهار»

«هل قال إنّه يعتقد أنَّ ثمة احتمالاً في أنْ يُصبح –كما تعلمين– معتوهاً أو ما شابه؟ أو أنْ يؤذيك!»

قالت الفتاة «ليس بالتحديد. كان عليه أنْ يجمع بعض الحقائق، يا أمي. عليهم أنْ يجمعوا معلومات عن مرحلة الطفولة – وما إلى ذلك. قلتُ له إننا نكاد لا نستطيع أنْ نتحدث، لأنَّ الضجيج صاخب هناك»

«حسن، كيف تجدين المعطف الأزرق؟»

«لا بأس به. أزلتُ عنه بعض الحشوة»

«كيف تجدين الملابس في هذا العام؟»

قالت الفتاة «فظيعة. لكنّها شديدة الغرابة. ترين أشياء برّاقة – وما إلى ذلك»

«كيف تجدين غرفتك؟»

قالت الفتاة، «جيدة. ولكن لا أكثر. لم نتمكن من الحصول على الغرفة التي كنا نحجزها قبل الحرب. أصبح الناس بغيضين هذا العام. يجب أنْ تري مَن الذي جلس إلى جوارنا في غرفة الطعام. على المائدة المجاورة. كأنهم جاؤوا على متن سيارة شاحنة»

«حسن، الحال هكذا في كل مكان. كيف وجدت راقصة الباليه؟»

«الوقت مُبكِّر جداً. أخبرتك أنَّ الوقتَ ما زال مُبكّراً»

«ميورييل، سوف أسألك مرّة أخرى - هل أنتِ حقاً بخير؟»

قالت الفتاة «نعم، يا أمي، للمرة التسعين»

«ولا تريدين أنْ تعودي إلى المنزل؟»

«كلا، يا أمي»

«ليلة أمس قال والدك إنّه يرغب بشدّة في تسديد التكاليف إذا وددتِ أنْ تذهبي إلى أي مكان وحدك لكي تفكّري في شؤونك. يمكنكِ أنْ تذهبي في رحلة بحريّة. كلانا نعتقد ذلك-»

قالت الفتاة، وهي ترفع إحدى ساقيها عن الأخرى، «كلا، شكراً. أمي، إنَّ هذه المكالمة تُكلِّف مبلغاً-»

«عندما أفكِّر كم انتظرت ذلك الفتى طوال فترة الحرب -أعني عندما تفكرين في كل تلك الزوجات الصغيرات المجنونات اللواتي-»

قالت الفتاة «أمي، يُستحسَنُ أنْ نُنهي هذه المكالمة. قد يدخل سيمور في أيّة لحظة»

«أين هو؟»

«على شاطئ البحر»

«على شاطئ البحر؟ وحده؟ هل يتصرّف بأدب على شاطئ البحر؟»

قالت الفتاة «أمي، إنك تتكلّمين عنه كأنّه مهووس مسعور-»

«أنا لم أقُل شيئاً كهذا، يا ميورييل»

«حسن، كأنَّ هذا ما قصدتِ. أعني أنَّ كل ما فعل هو الاستلقاء هناك. ورفضَ أنْ يخلع رداء الاستحمام»

«تقولين لم يخلع رداء الاستحمام؟ لِمَ؟»

مكتبة
t.me/soramnqraa

«أعلم. أعتقد لأنَّ بشرته شديدة الشحوب»

«يا إلهي، إنّه في حاجة إلى التعرّض لأشعة الشمس. ألا تستطيعين إجباره على ذلك؟»

قالت الفتاة «أنتِ تعرفين سيمور»، ووضعتْ ساقاً فوق ساق من جديد. «يقول إنه لا يريد أنْ ينظر الكثير من الحمقى إلى وشمه»

«إنّه لا يضع أي وشم! هل وضع وشماً في أثناء التحاقه بالجيش؟»

قالت الفتاة «كلا، يا أمي. كلا، يا عزيزتي»، ونهضتْ واقفة. «اسمعي، سوف أتّصل بك غداً، ربما»

«ميوريل. أصغي إليّ الآن»

قالت الفتاة، وهي ترتكز بكامل ثقلها على ساقها اليُمنى، «نعم، يا أمي»

«اتّصلي بي حالما يفعل أو يقول أي شيء غريب – تفهمين ما أعني. هل تسمعين؟»

«أمي، أنا لا أخاف من سيمور»

«ميوريل، أريد منك أنْ تعديني»

قالت الفتاة «حسن، أعدك. إلى اللقاء، يا أمي. بلّغي أبي أنني أحبّه»، وأنهت المكالمة.

***

قالتْ سيبيل كاربنتر، التي كانت تنزل في الفندق مع أمّها، «أرى المزيد من الزجاج. هل رأيت المزيد من الزجاج؟»

«توقفي عن قول هذا، أيّتها الصغيرة. إنّه يُثير جنون الماما. اثبتي، أرجوك»

كانت السيدة كاربنتر تضع مرهم سُمرة البشرة على كتفيّ سيبيل، وتمدّه حتى طرفيّ ظهرها الرقيقين الشبيهين بالجناحين. وكانت سيبيل جالسة بشكلٍ غير آمن على كرة شاطئ ضخمة منفوخة، وتواجه المحيط. كانت ترتدي ثوب استحمام من قطعتين بلون أصفر فاتح، إحدى تينك القطعتين لن تحتاج إليها على مدى تسعة أعوام أو عشرة أخرى.

قالت المرأة الجالسة بجوار السيدة كاربنتر على كرسي شاطئ، «كان

مجرد منديل عادي من الحرير - تُدركين ذلك عندما تقتربين منه. ليتني أعرف كيف تربطه. كان لطيفاً حقاً»

وافقت السيدة كاربنتر «يبدو ذلك لطيفاً. اثبتي، سيبيل، أيتها الصغيرة»

قالت سيبيل «هل رأيت الزجاج من جديد؟»

تنهّدت السيدة كاربنتر. قالت «حسن». أعادتْ غطاء زجاجة مرهم سُمرة البشرة إلى مكانه. «والآن اذهبي بسرعة والعبي أيتّها الصغيرة، والماما سوف تذهب إلى الفندق وتشرب المارتيني مع السيدة هيل. وسوف أُحضِر لك زيتوناً»

بعد أنْ أُطلِقَ سراح سيبيل، هرعت في الحال وأخذتْ تقطع الجزء المُنبسِط من الشاطئ ركضاً باتجاه سرادق الصيادين. ولم تتوقف إلّا لكي تغوص مقدار قدم في قلعة رخوة، منهارة، وسرعان ما خرجت من نطاق المنطقة المُخصّصة لضيوف الفندق.

مشتْ مسافة تقترب من ربع الميل ومن ثم انطلقتْ فجأة تركض بمسارٍ ملتوٍ على الجزء الطري من الشاطئ. وتوقفتْ فجأة حالما وصلتْ إلى حيث كان شاب يستلقي على ظهره.

قالتْ «هل ستنزل إلى الماء، وترى المزيد من الزجاج؟»

أجفلَ الشابِ، وامتدتْ يده نحو طيتيّ الرداء ذي الوبر. وانقلب على بطنه، تاركاً منشفة تغطي عينيه تسقط، ونظر بعينين مزمومتين إلى سيبيل.

«هيه، مرحبا، سيبيل»

«هل ستنزل إلى الماء؟»

قال الشاب «كنتُ في انتظارك. ما الأخبار؟»

قالت سيبيل «ماذا؟»

«ما الجديد؟ ماذا يوجد في البرنامج؟»

قالتْ سيبيل، وهي ترفس الرمل، «والدي قادم في الغد على متن طائرة»

قال الشاب، واضعاً يده على كاحل سيبيل، «ليس على وجهي، يا صغيرتي. حسن، حان وقت وصوله إلى هنا، أعني والدك. كنت أتوقع وصوله في كل ساعة، في كل ساعة»

قالت سيبيل «أين السيدة؟»

نفضَ الشاب بعض الرمال عن شَعره الخفيف. «السيدة؟ من الصعب معرفة مكانها يا سيبيل. يمكن أنْ تكون في أي مكان من ألف مكان. عند الحلّاق. لكي تصبغ شَعرها بلون صوف حيوان المنك. أو تصنع الدُمى من أجل الأطفال الفقراء، في غرفتها». كان عندئذٍ منبطحاً، وشكّل يديه على شكل قبضتين ووضع إحداهما فوق الأخرى، وأراح ذقنه على قمة الأخرى. قال «اسأليني عن شيء آخر، يا سيبيل. ثوب الاستحمام الذي ترتدين جميل، وأحبّ أنْ يكون لون ثوب الاستحمام أزرق»

حدّقتْ سيبيل إليه، ثم نظرتْ نحو الأسفل إلى بطنه البارزة. قالت «هذا لونه أصفر. هذا لونه أصفر»

«أحقاً؟ اقتربي أكثر قليلاً»، تقدّمتْ سيبيل مقدار خطوة إلى الأمام. «أنتِ مُصيبة بدون أدنى شك. ما أغباني»

قالت سيبيل «هل ستنزل إلى الماء؟»

«إنني أفكّر في هذا جديّاً. أفكّر فيه كثيراً، يا سيبيل، وهذا يُسعدك»

نخستْ سيبيل الطوف المطاطيّ الذي استخدمه الشاب كمسند لرأسه. قالت «يحتاج إلى نفخ»

«أنتِ مُحقّة، إنّه في حاجة إلى النفخ أكثر مما أحبّ أنْ أعترف»، وأبعد قبضتيّ يديه وترك ذقنه يرتاح على الرمل. قال «سيبيل، تبدين في أحسن حال. يُسعدني أنْ أراك. أخبريني عن نفسك». مال نحو الأمام وأمسك بكاحلَي سيبيل بيديه. قال «أنا من برج الجدي. وأنتِ؟»

قالت سيبيل «قالت شارون ليبشوتس إنكَ تسمح لها بالجلوس معك على مقعد البيانو»

«شارون ليبشوتس هي التي قالت هذا؟»

هزّتْ سيبيل رأسها بحيويّة إيجاباً.

حرّر كاحليها، وأبعد يديه، ووضع جانب وجهه على ساعده الأيمن. قال «حسن، أنت تعلمين كيف تحدث مثل هذه الأمور، يا سيبيل. كنتُ جالساً هناك، أعزف. ولم تكوني أنتِ موجودة في الجوار. ثم جاءت

شارون ليبشوتس وجلستْ إلى جـواري. لم أستطع منعها، أكان في استطاعتي أنْ أفعل؟»

«نعم»

قال الشاب «أوه، كلا، كلا. ما كان يمكن أنْ أفعل ذلك ولكن سوف أخبرك بما فعلت».

«ماذا؟»

«تظاهرتُ بأنها أنتِ»

في الحال انحنت سيبيل لتبدأ حفر الرمل. قالتْ «فلننزل إلى الماء»

قال الشاب «حسن. أعتقد أنَّ في استطاعتي أنْ أتصرَّف»

قالتْ سيبيل «في المرة التالية أبعدها عنك. ماذا كان اسمها؟»

«شارون ليبشوتس»

قال الشاب «أه، شارون ليبشوتس. كيف ظهر هذا الاسم فجأة. من امتزاج الذاكرة مع الرغبة». وفجأة نهضَ واقفاً، ونظر إلى المحيط. قال «سيبيل، سأخبرك ماذا سنفعل. سوف نرى إنْ كان في استطاعتنا أنْ نمسك سمكة الموز»

«ماذا؟»

قال «سمكة الموز»، وحلَّ حزام ردائه. وخلع الرداء. كانت كتفاه بيضاوي اللون وضيقتين، وكان بنطلونه القصير بلون أزرق أرجوانيّ. وطوى الرداء، أولاً طوليّاً، ثم طيّة ثالثة. ونشر المنشفة التي كان يغطي بها عينيه، ومدّها على الرمال، ومن ثم مدّ الرداء المطويّ فوقها. ومال ورفع الطوف المطاطي، وثبّته تحت ذراعه اليمنى. ثم، أمسك يد سيبيل بيده اليُسرى الحرّة.

وبدأ الاثنان بالسير نحو المحيط.

قال الشاب «أعتقد أنكِ شاهدتِ العديد من أسماك الموز في حياتك»

هزّتْ سيبيل رأسها نفياً.

«لم تشاهدي؟ أين تقيمين؟»

قالتْ سيبيل «لا أعلم؟»

«طبعاً تعلمين، ويجب أنْ تعلمي. إنَّ شارون ليبشوتس تعلم أين تُقيم وعمرها لا يتجاوز الثلاثة أعوام ونصف العام»

توقفتْ سيبيل عن المشي وانتزعتْ يدها وأبعدتها عن يده. التقطت صَدَفة عادية من الشاطئ وأخذت تنظر إليها باهتمام دقيق. ثم رمتها. قالت «ويرلي وود. كونيبكتيكت»، واستأنفت المسير، يتقدّمها بطنها.

قال الشاب «تقصدين ويرلي وود، في كونكتيكت القريبة من منطقة ويرلي وود، في كونكتيكت التي نعرفها؟»

نظرتْ سيبيل إليه، ثم قالت بصبر نافد، «هناكَ أُقيم. أقيم في ويرلي وود، في كونكتيكت»، وتقدّمته ببضع خطوات، مسرعة، وقفزت مرّتين أو ثلاثاً حتى تجاوزته.

قال الشاب «كلامك هذا يوضِّح كل شيء»

أسرعت سيبيل خطاها. قالت «هل قرأتَ كتاب «الصبي الأسود الصغير سامبو»؟»

قال «إذا أردتِ رأيي هو كتاب ممتع جداً، ويتصادف أنني انتهيت ليلة أمس من قراءته»، ومدَّ يده وأمسك من جديد بيد سيبيل. سألها «ما رأيك به؟»

«هل ركضَت النمور حول تلك الشجرة؟»

«ظننتُ أنها لن تتوقف أبداً. لم أر في حياتي كل ذلك العدد من النمور»

قالت سيبيل «كان عددها فقط ستة»

قال الشاب «ستة فقط! أتعتبرين هذا عدداً ضئيلاً؟»

سألته سيبيل «هل تحب الشمع؟»

سألها الشاب «أحبّ ماذا؟ الشمع»

«بالضبط. هل تحبّه؟»

أومأتْ سيبيل برأسها إيجاباً. سألته «هل تحب الزيتون؟»

«الزيتون – نعم. الزيتون والشمع. إنني لا أذهب إلى أي مكان من دونهما»

سألته سيبيل «وهل أنتَ مُعجَب بشارون ليبشوتس؟»

قال الشاب «نعم، نعم، أنا مُعجب بها. ما يُعجبني فيها على وجه الخصوص هو أنها لا تُعامل الكلاب بقسوة في بهو الفندق. على سبيل المثال، ذلك الجرو الشبيه بثور دُمية الذي تمتلكه تلك السيدة القادمة من

كندا. قد لا تُصدقين ما أقول، لكنَّ الفتيات الصغيرات يُحببن العبث مع ذلك الجرو بالعصي التي تحمل البالونات. أما شارون فلا تفعل ذلك. إنها أبعد ما تكون عن الخسّة أو الفظاظة. لهذا السبب أنا مُعجب بها كثيراً»

رانَ الصمت على سيبيل.

أخيراً قالتْ «أنا أحبّ أنْ أمضغ الشموع»

قال الشاب، وهو يُبلل قدميه، «ومَنْ لا يحبّ هذا؟ يا الله! المياه باردة»، ورمى القارب المطاطيّ على الجهة الخلفيّة. «كلا، انتظري لحظة، سيبيل. انتظري ريثما نخوض أكثر في الماء»

خاضا أكثر إلى أنْ وصل مستوى الماء إلى خصر سيبيل. قام الشاب برفعها عالياً ثم أنزلها على بطنها على الطوف المطاطيّ.

سألها «ألا تضعين على رأسك قلنسوة السباحة أو ما شابه؟»

أمرته سيبيل «لا تتركني. امسكني»

قال الشاب «أرجوك، يا آنسة كاربنتر. أنا أعرف ما يجب عمله. أبقي عينيك مفتوحتين لكي تبحثا عن أيّة سمكة موز. هذا يوم مثاليّ لظهور سمك الموز»

قالت سيبيل «لا أرى أي شيء»

«هذا مفهوم. إنَّ لديها عادات غريبة جداً»، وواظبَ على دفع الطوف. لم يكن مستوى الماء يصل بالضبط إلى صدره. قال «إنه يعيش حياة مأساويّة جداً. أتعلمين ماذا يفعل، يا سيبيل؟»

هزّتْ رأسها نفياً.

«حسن، إنه يسبح داخل تجويف مملوء بالكثير من الموز. عندما يدخل يكون شكله عاديّاً جداً، ولكن حالما يخرج يبدأ بالتصرّف كالخنازير. وقد رأيتُ بعض أسماك الموز تدخل إلى تجويف الموز وتأكل ما يُقارب الثماني وسبعين موزة»، ودفع الطوف والفتاة التي تركبه أكثر قليلاً نحو الأفق. «وطبعاً، بعد ذلك أصبحت الأسماك بدينة إلى درجة أنها لم تعد قادرة على الخروج من التجويف مرة أخرى. لم يعد حجمها يتناسب مع فوهة التجويف»

قالت سيبيل «لا تدفعني بعيداً. وماذا يحدث لها»

«ماذا يحدث لمَنْ؟»

«لأسماك الموز»

«أوه، تقصدين بعد أنْ تأكل الكثير من الموز ولا تعود قادرة على مغادرة تجويف الموز؟»

قالت سيبيل «نعم»

«حسن، أكره أنْ أخبرك بالنتيجة، يا سيبيل، لكنها تنفق»

سألتْ سيبيل «لِمَ؟»

«في الواقع، لأنها تُصاب بحمّى الموز. وهو مرض رهيب»

قالت سيبيل بعصبيّة «ها هي موجة قادمة»

قال الشاب «سوف نتجاهلها، ونصدّها. نحن متكبّران»، وأمسك بكاحليّ سيبيل وأخذ يضغطهما إلى الأسفل والأمام، وأصبح الطوف على ذروة الموجة، وتشبَّعَ شَعر سيبيل الأشقر بالماء، لكنَّ صراخها كان ملؤه السرور.

عندما عاد الطوف مستوياً من جديد، أزاحت خصلة مُسطّحة، مُبلّلة من الشَعر عن عينيها، وقالت «لقد رأيتُ واحدة تواً»

«ما الذي رأيته، يا حبيبتي؟»

«سمكة الموز»

قال الشاب «يا إلهي، مستحيل! هل كانت تحمل موزة في فمها؟»

قالت سيبيل «نعم. ستاً منها»

فجأة رفع الشاب إحدى قدمَي سيبيل التي كانت تتدلّى من طرف الطوف، وقبّل قوسها.

قالت صاحبة القدم، وهي تستدير، «هيه! ماذا تفعل!»

«ماذا تفعلين أنتِ! سوف نعود الآن. ألم تكتفي؟»

«كلا!»

قال «آسف»، ودفع الطوف باتجاه الشاطئ إلى أنْ ترجّلتْ منه. وحمل الطوف خلال المسافة المتبقّية.

قالت سيبيل «وداعاً»، وراحت تركض لا تلوي على شيء في اتّجاه الفندق.

***

لبس الشاب الرداء، وضمَّ طرفَي ياقته بإحكام، وحشر منشفته داخل جيبه. ثم حمل الطوف الثقيل، والرطب واللزج، وتأبّطه. وبدأ يمشي ببطء وحيداً على الرمال الساخنة، الناعمة، في اتجاه الفندق.

في الطابق شبه الرئيسيّ من الفندق، الذي تطلب الإدارة من السابحين استخدامه، ولجتْ امرأة تدهن أنفها بمرهم الزينك المصعد مع الشاب.

قال لها عندما بدأ المصعد بالتحرّك، «ألاحظُ أنكِ تنظرين إلى قدميّ»

قالت المرأة «عفواً؟»

«قلتُ إنني لاحظتُ أنكِ تنظرين إلى قدميّ»

قالت المرأة «عفواً، كنتُ أنظر إلى الأرض»، وواجهتْ باب المصعد.

قال الشاب «إذا أردتِ أنْ تنظري إلى قدميّ، أخبريني. ولكن لا تختلسي النظر إليهما»

قالت المرأة بسرعة للفتاة التي تعمل داخل المصعد، «أنزليني هنا، من فضلك»

فُتح باب المصعد وخرجت المرأة من دون أنْ تنظر خلفها.

قال الشاب «لديّ قدمان طبيعيتان ولا أعرف سبباً واحداً يدفع أي شخص إلى التحديق إليهما. الطابق الخامس، من فضلك»، وأخرج مفتاح غرفته من جيب ردائه.

ترجّل عند الطابق الخامس، ومشى على طول الرواق، ودخل الغرفة رقم 507. كانت الغرفة تفوح برائحة حقائب من جلد العجل المدبوغ ومُزيل طلاء الأظافر.

ألقى نظرة على الفتاة النائمة على أحد السريرين التوأم. ثم اقترب من إحدى الحقائب وفتحها، واستخرج من تحت مجموعة من البناطيل القصيرة والقمصان الداخليّة مسدس أورتيغ أوتوماتيكياً قطره 7.65. وأخرج المجلّة ونظر إليها، ثم أعادها إلى مكانها. ووضع الحقيبة بشكل منتصب، ثم ذهب

لكي يجلس على السرير التوأم الخالي، ونظر إلى الفتاة، وسدَّد المسدس، وأطلق رصاصة اخترقتْ صدغه الأيمن.

العمّ ويغيلي في كونكتيكت

عندما عثرت ميري جين أخيراً على منزل إلويز كانت الساعة قد بلغت حوالي الثالثة. وشرحت لإلويز، التي كانت قد خرجت إلى درب السيارات لتستقبلها، أنَّ كل شيء بات على أتمّ الاستعداد، وأنها تذكّرت الطريق بدقّة، إلى أنْ انعطفتْ بعيداً عن ميريك باركواي. قالتْ إلويز «تقولين ميريت باركواي، يا عزيزتي» وذكرتْ ميري جين بأنَّها كانت قد عثرتْ على المنزل مرّتين من قبل، لكنَّ ميري جين اكتفت بالغمغمة بشيء مُبهَم مُتذمّرة، شيء بخصوص علبة المناديل الورقيّة، وهرعت عائدة إلى السيارة ذات الغطاء القابل للطيّ. رفعتْ إلويز ياقة معطفها المصنوع من وبر الجِمال، وأدارتْ ظهرها للريح، وانتظرتْ. عادتْ ميري جين بسرعة وهي تستخدم منديلاً ورقيّاً ولا تزال تبدو مُضطربة، بل وقذرة. قالت إلويز بمرح إنَّ كامل وجبة الغداء قد احترقت -بنكرياس العجل وكل شيء- لكنَّ ميري جين قالتْ إنها تناولت الطعام وهي في الطريق. وفي أثناء سير الاثنتين باتجاه المنزل، سألتْ إلويز ميري جين كيف حدث وحصلتْ على يوم عطلة. فقالتْ ميري جين إنها لم تحصل على يوم عطلة كامل، وكل ما في الأمر هو أنَّ السيد واينبرغ أُصيبَ بفتق ولزم المنزل في لارتشمونت، وكانت تُضطر إلى حمل بريده إليه واستلام بريد آخر منه في كل يوم. وسألتْ إلويز «ما هو الفتق بالضبط؟». رمتْ إلويز سيجارتها على التربة المكسوّة بالثلج تحت قدميها، وقالت إنها لا تعلم بالضبط ما هو ولكن لا داعي لأنْ تقلق ميري جين كثيراً بشأنِ الإصابة به. فقالتْ ميري جين «أوه»، وولجت الفتاتان المنزل.

بعد ذلك بعشرين دقيقة، كانتا قد انتهتا من تناول المشروب في غرفة الجلوس وباشرتا في الحديث بأسلوبٍ خاصٍ برفيقات الجامعة السابقات،

وربما يقتصر عليهن. بل إنَّ صِلةً كانت أقوى تربط بينهما، ولم تكن أي منهما قد تخرّجتْ. كانت إلويز قد تركت الجامعة في منتصف سنتها الثانية، في عام 1942، بعد مرور أسبوع على مفاجأتها منفردة مع جندي داخل مصعد مُغلق في الطابق الثالث من الرواق الذي تسكن فيه. وكانت ميري جين قد تركت الجامعة في العام نفسه، والسنة الدراسيّة نفسها، وتقريباً في الشهر نفسه – لكي تتزوج من طيّار مُبتدئ مركزه في كاكسونفيل، في فلوريدا، وهو فتى نحيل، مولع بالطيران من مدينة ديل، في ولاية ميسيسيبي، كان قد أمضى شهرين من الأشهر الثلاثة هي مدّة فترة زواجه من ميري جين في السجن بسبب طعنه عضواً في البرلمان.

كانت إلويز تقول «كلا، في الحقيقة كان أحمر اللون». كانت قد تمددتْ على الأريكة، وساقاها الشديدتا النحول متراكبتان عند الكاحلين.

كرّرت ميري جين القول «سمعتُ أنّه كان أشقر». كانت جالسة على الكرسي الأزرق ذي الظهر القائم. «هل تقسمين على أنّه كان أشقر»

تثاءبت إلويز. «نعم. بلا أدنى شك. كنتُ تقريباً في الغرفة نفسها معها عندما صبغته. ما الأمر؟ ألا توجد سجائر في هذا المكان؟»

قالتْ ميري جين «لا بأس. لديّ علبه كاملة منها في مكانٍ ما»، وأخذت تبحث داخل أرجاء حقيبة يدها.

قالت إلويز من دون أنْ تنهض عن الأريكة، «يا لها من خادمة بلهاء. لقد تركتُ علبتين جديدتين من الورق المُقوّى أمامها مباشرة قبل نحو الساعة. سوف تأتي قريباً لكي تسألني ماذا ينبغي عليها أنْ تفعل بهما. أين كنتُ يا ترى؟»

قالت ميري جين بسرعة، وهي تُشعل إحدى سجائرها. «عند تييرينغر»

«أوه، نعم. أتذكّر بالضبط. كانت قد صبغتْه في الليلة السابقة لزواجها من ذاك المدعو فرانك هنك. ألا تتذكرينه؟»

«تقريباً. ألم يكن منعزلاً قليلاً؟ ولا يتمتّع بأيّة جاذبيّة؟»

«غير جذّاب فقط. يا إلهي! كان أشبه ببيلا لوغوسي[1] قبل أنْ يغتسل»

1- بيلا لوغوسي: ممثل هنغاري-أميركي. معروف خاصة بقيامه بدور الكونت دراكولا. – المترجم

رفعتْ ميري جين رأسها وزأرتْ. قالت، بعد أنْ عادتْ إلى وضعيّة الشرب، «رائع»

قالتْ إلويز، وهي تضع قدميها اللتين ترتديان جورباً على الأرض وتنهض واقفة. «أعطني كأسك. يا لتلك البلهاء. إنني أفعل كل ما في وسعي حتى أكاد أدفع ليو لممارسة الجنس معها من أجل أنْ تحضر أمامنا. أنا آسفة لأنني - من أين حصلتِ على هذا الشيء؟»

قالت ميري جين، وهي تلمس دبوس زينة من حجر الكاميو موضوعاً عند نحرها. «هذا؟ حصلتُ عليه من أيام المدرسة، مكافأة على حسن السلوك. كان ملكاً لأمي»

قالت إلويز، وهي تحمل الكأسين الفارغتين بيديها «يا الله، ليس لديّ أي شيء قيِّم أضعه. إذا توفيتْ والدة ليو -ها، ها- فربما ستورثني معولاً قديماً لتكسير الثلج محفورة عليه الأحرف الأولى من اسمها أو ما شابه»

«على أي حال، كيف هي طبيعة علاقتك بها هذه الأيام؟»

قالت إلويز وهي في طريقها إلى المطبخ «كفاك مُزاحاً»

هتفت ميري جين بعد ذهابها «هذا حتماً آخر ما أرغب فيه!»

«سيئة جداً. مَن اتّصلَ بمَن؟ ومَن الذي جاء متأخّراً ساعتين؟ سوف تبقين هنا إلى أنْ أسأمَ وجودك. اللعنة على عملك العفن»

رفعتْ ميري جين رأسها وزأرتْ من جديد، لكنَّ إلويز كانت قد انتقلتْ إلى المطبخ.

بصورة أو بأخرى، لأنها بقيتْ وحدها في الغرفة، نهضتْ ميري جين ومشتْ إلى النافذة. أزاحت الستارة واتّكأتْ برسغها على إحدى نقاط تقاطع ألواح الزجاج، ولكن عندما شعرتْ بوجود حبيبات خشنة، رفعته، ونفضتْ عنه الحبيبات بيدها الأخرى، وجعلتْ وقفتها أكثر استقامة. في الخارج، كان الوحل القذر يتحوّل بوضوح إلى ثلج. تركت ميري جين الستارة تنسدل وعادتْ أدراجها إلى الكرسي الأزرق، ومرّت في طريقها بخزانتين مزدحمتين بالكتب من دون أنْ تلقي نظرة على أي من عناوينها. جلستْ، وفتحت حقيبة يدها واستخدمت المرآة من أجل تفحّص أسنانها.

ضمّت شفتيها معاً ومرّرتْ لسانها على أسنانها العليا الأماميّة، ثم تفحّصتها من جديد.

قالت وهي تلتفتْ «الجو في الخارج يزداد برودة. يا الله لقد حلّ البرد سريعاً. ألم تضيفي أي مقدار من الصودا إلى المشروب؟»

توقفتْ إلويز فجأة، وكأس المشروب الجديد في يدها. مدّت سبّابتيها معاً، كأنهما مُسدسان، وقالت «لا تتحرّكن. المكان مُحاصَر من كل جانب»

ضحكتْ ميري جين وأخفتْ مرآتها.

تقدّمتْ لويز حاملة كأسَي المشروب، ووضعت كأس ميري جين بشكلٍ متقلقل على طبقها الواقي وأبقتْ كأسها في يدها. تمدّدتْ على الأريكة من جديد. قالتْ «ماذا في اعتقادك تفعل هناك؟ إنها تجلس على مؤخّرتها الكبيرة السوداء وتقرأ قصة «الرداء». لقد أسقطتُ قوالب مكعبات الثلج وأنا أحاول إخراجها، فرفعت نظرها إليّ منزعجة»

قالتْ ميري جين، وهي ترفع كأس مشروبها «هذه آخر كأس أشربها، وهذا قراري. أوه، اسمعي! أتدرين مَنْ قابلتُ في الأسبوع الفائت؟ في الطابق الرئيسيّ من محلات لورد أند تيلر؟»

قالت إلويز وهي تُعدِّل من وضع وسادة تحت رأسها، «هممم، أكيم تاميروف»

قالتْ ميري جين «مَنْ؟ مَنْ يكون؟»

«أكيم تاميروف. الممثل السينمائي. ودائماً يقول، «أنت تمزح – هاه؟ إنني أحبّه... لا يوجد في هذا المنزل وسادة واحدة تعجبني. مَن الذي قابلت؟»

«جاكسون. كانت–»

«أي واحدة منهن؟»

«لا أعلم. تلك التي كانت معنا في درس التأمّل. التي دائماً–»

«كلتاهما كانتا معنا في درس التأمّل»

«حسن. تلك صاحبة الـ–»

«مارسيا لويز. قابلتها مُصادفة مرّة واحدة. ألم تُثرثر حتى أصابتكِ بالصداع؟»

«يا الله، نعم. ولكن أتعلمين ماذا قالتْ لي؟ قالتْ إنَّ الدكتور وايتنغ قد مات. قالت إنها تلقَّتْ رسالة من بربارة هيل تقول فيها إنَّ عوارض مرض السرطان ظهرت على وايتنغ في الصيف الفائت ومات. وعندما توفي لم يكن وزنه يتجاوز الاثنين والستين رطلاً. أليس هذا شيئاً فظيعاً؟»

«كلا»

«إلويز، إنكِ تصبحين قاسية القلب جداً»

«هم. وماذا قالتْ أيضاً؟»

«أوه، لقد عادت من أوروباً مؤخّراً. حيث مركز عمل زوجها في ألمانيا، وكانت ترافقه. قالت إنهما يملكان منزلاً يضم سبعاً وأربعين غرفة، ويُقيم معهما زوج آخر فقط وحوالي عشرة من الخدم. وكان حصانها الخاص، والسائس الذي لديهما هما الملك الخاصّ لهتلر. أوه، وطَفِقَتْ تُخبرني كيف أنَّ جنديّاً أسود البشرة كاد يغتصبها، أخبرتني هذا ونحن في الطابق الرئيسي من مخازن لورد أند تيلر -أنتِ تعرفين جاكسون. قالتْ إنه كان السائق الخصوصي لزوجها، وفي صباح ذات يوم، كان يقلّها إلى السوق العامّة، قالت إنها خافت كثيراً إلى درجة أنها لم-»

رفعتْ إلويز رأسها ونبرة صوتها أيضاً، «انتظري لحظة. أهذا أنتِ، يا رامونا؟»

أجابها صوت طفلة صغيرة، «نعم»

هتفتْ إلويز «أغلقي الباب الأمامي خلفك، من فضلك»

«أهذه رامونا؟ أو، كم أنا مشتاقة لرؤيتها. أتعلمين أنني لم أرها منذ أنْ نالت-»

صاحت إلويز، وعيناها مُغمضتان، «رامونا، اذهبي إلى المطبخ واجعلي غريس تنزع عنك حذاءك الواقي»

قالتْ رامونا «حاضر، هيا بنا، يا جيمي»

قالت ميري جين «أوه، كم أنا مشتاقة لرؤيتها. أوه، يا ربي! انظري ماذا فعلتُ. أنا شديدة الأسف، يا إل»

«اتركيها. اتركيها. على أيّة حال أنا أكره هذه السجادة، سوف أُحضر لك مشروباً آخر»

رفعتْ ميري جين كأسها. «كلا، انظري. ما زال لدي مقدار نصف الكأس!»

قالت إلويز «أواثقة أنتِ؟ أعطني سيجارة»

مدّتْ ميري جين يدها التي تحمل علبة السجائر، وهي تقول «أوه، كم أشتاق إلى رؤيتها. مَنْ أصبحتْ تُشبه الآن؟»

قدحت لويز شُعلة. «أكيم تاميروف»

«كفى، أرجوك»

«ليو. إنها تشبه ليو. عندما تأتي أمه لزيارتنا، يبدو الثلاثة كأنهم توائم». مدّتْ إلويز يدها نحو مجموعة من منافض السجائر موضوعة على الجانب القصيّ من طاولة السكائر، من دون أنْ تعتدل في جلستها، ونجحتْ في تناول واحدة من أعلى المجموعة ووضعتها على بطنها. قالت «أنا في حاجة إلى كلب صغير ذي أذنين متدليتين، إلى مخلوق يُشبهني»

سألتها ميري جين «كيف حال عينيها الآن؟ أعني آمل ألّا تكونا أسوأ حالاً، أهما كذلك؟»

«يا إلهي! ليس حسب علمي»

«هل في استطاعتها أنْ ترى من دون وضع نظارتها؟ أعني إذا استيقظت في أثناء الليل لكي تذهب إلى المرحاض أو ما شابه»

«ترفض أنْ تُخبر أحداً. إنها تنطوي على الكثير من الأسرار»

استدارت ميري جين وهي جالسة على كرسيها، قالت «مرحباً، رامونا! ما أجمل ثوبك!»، ووضعت كأس مشروبها على الطاولة. «أراهن على أنكِ لا تتذكرينني، يا رامونا»

«طبعاً تتذكّرك. مَنْ هذه السيدة، يا رامونا؟»

قالت رامونا «إنها ميري جين»، وحكَّتْ نفسها.

قالت ميري جين «رائع! هلا أعطيتني قُبلة صغيرة، يا رامونا؟»

قالت إلويز لرامونا «كُفّي عن هذا»

كفَّتْ رامونا عن حكّ نفسها.

سألتْ ميري جين من جديد، «هلّا أعطيتني قُبلة صغيرة، يا رامونا؟»

«لا أحبّ أنْ أُقبِّل الناس»

أصدرتْ إلويز صوتاً يُشبه النخير، وسألتْ «أين جيمي؟»

«ها هنا»

سألتْ ميري جين إلويز «مَنْ هو جيمي؟»

«أوه، يا إلهي! إنّه صاحبها الوسيم. يُرافقها أينما تذهب. ويُحاكيها في تصرفاتها. تصرفاتهما كلها مرح»

قالت ميري جين بحماس «حقاً؟»، ومالتْ نحو الأمام. «هل لديك صاحب وسيم، يا رامونا؟»

لم تعكس عينا رامونا، من خلف عدستين سميكتين لمكافحة قِصر النظر، حتى أضأل جزء من حماسة ميري جين.

قالت إلويز «لقد طرحتْ ميري جين عليك سؤالاً، يا رامونا»

أقحمتْ رامونا إصبعاً داخل أنفها الصغير والعريض.

قالت إلويز «كفّي عن هذا. ميري جين تسألك إنْ كان لديك صاحب وسيم»

قالت رامونا، وهي منهمكة بالعبث بأنفها، «نعم»

قالت إلويز «رامونا، كفّي عن فعل هذا. حالاً»

أنزلتْ رامونا يدها.

قالت ميري جين «لا بأس، أعتقد أنَّ هذا شيء رائع. ما اسمه؟ هلّا أخبرتني اسمه، يا رامونا؟ أم أنّه سرّ كبير؟»

قالت رامونا «اسمه جيمي»

«اسمه جيمي؟ أوه، يُعجبني اسم جيمي! جيمي ماذا، يا رامونا؟»

قالت رامونا «جيمي جيميرينو»

قالت إلويز «قفي بثبات»

«رائع! هذا اسم غريب. وأين هو جيمي؟ هلّا أخبرتني، يا رامونا؟»

قالت رامونا «هنا»

تلفّتت ميري جين حولها، ثم نظرتْ من جديد إلى رامونا، مُحاولة أنْ تبتسم بأكبر قدر من الاستفزاز. «هنا أين، يا حبيبتي؟»

قالت رامونا «هنا. أنا أُمسكُ يده»

قالت ميري جين لإلويز، التي كانت تستأنف الانتهاء من شرب مشروبها، «لا أفهم»

قالت إلويز «أنا أيضاً لا أفهم»

نظرتْ ميري جين من جديد إلى رامونا. «أوه، فهمت. إنَّ جيمي هو صبي صغير من صنع خيالك. رائع». مالتْ ميري جين إلى الأمام بكياسة. قالت «كيف حالك، يا جيمي؟»

قالت إلويز «لن يتحدث معك. أخبري ميري جين يا رامونا عن جيمي»

«أخبرها عمَّن؟»

«انهضي، من فضلك... أخبري ميري جين عن شكل جيمي»

«لديه عينان خضراوان وشعر أسود»

«وماذا أيضاً؟»

«ليس لديه أمّ ولا أبّ»

«وماذا أيضاً؟»

«ولا نمش»

«وماذا أيضاً»

«لديه سيف»

«وماذا أيضاً»

قالت رامونا «لا أعلم»، وباشرت من جديد في حكّ نفسها.

قالتْ ميري جين «يبدو جميلاً!»، ومالتْ أكثر نحو الأمام وهي جالسة على كرسيها. «أخبريني، يا رامونا، هل يخلع جيمي أيضاً حذاءه الواقي عندما يدخل إلى المنزل؟»

قالت رامونا «إنّه ينتعل جزمة»

قالت ميري جين لإلويز، «شيء رائع»

«هذا ما تظنين. إنني أعايش هذا الوضع طوال النهار. إنَّ جيمي يشاركها

تناول الطعام، ويستحمّ معها. وينام معها. هي تلتزم بالنوم على أحد جانبيّ السرير، كي لا تتدحرج وتؤذيه»

أدخلتْ ميري جين، التي بدت مُستغرقة ومبتهجة لسماع هذه المعلومات، شفتها السفلى إلى فمها، ثم أفلتتها لكي تسأل «ولكن من أين حصل على ذلك الاسم؟»

«تقصدين جيمي جيميرينو؟ الله أعلم»

«ربما من أحد صِبية الجيران الصِغار»

هزَّتْ إلويز رأسا نفياً وهي تتثاءب. «ليس في الحيّ أي صِبية صِغار. لا يوجد أي أطفال. إنهم ينعتونني من خلف ظهري بفاني العقيمة–»

قالت رامونا «ماما، هل أستطيع أنْ أذهب لألعب؟»

نظرتْ إلويز إليها. قالت «لقد أتيتِ تواً»

«جيمي يريد أنْ يخرج من جديد»

«هل لي أنْ أسأل عن السبب؟»

«لقد ترك سيفه في الخارج»

قالت إلويز «تباً له ولسيفه اللعين. حسن، اذهبي. انتعلي حذاءك الواقي من جديد»

قالت رامونا، وهي تتناول عود ثقاب محترقاً من المنفضة، «هل أستطيع أنْ أحتفظ بهذا؟»

«يجب أنْ تقولي هل تسمحين لي بالاحتفاظ بهذا. نعم. وابتعدي عن الشارع، من فضلك»

قالت ميري جين بلهجة مُنغّمة «إلى اللقاء، رامونا»

قالتْ رامونا «إلى اللقاء. هيا بنا، جيمي»

فجأة نهضَتْ إلويز باندفاع واقفة على قدميها. قالت «أعطني كأسك»

«كلا، حقاً لا أريد، يا إل. من المُفتَرَض أنْ أكون في لارشمونت. أعني أنَّ السيد واينبرغ شخص لطيف جداً، وأكره أنْ–»

«اتّصلي به هاتفيّاً وقولي إنكِ قُتِلت. دعينا نتخلص من هذه الكأس»

«كلا، صدقاً، يا إل. أعني أنَّ الجو يزداد برودة بصورة رهيبة. وليس لديّ في السيارة مادة مُضادة للتجمّد. أعني أني إذا لم–»

قالت إلويز «دعيها تتجمّد. هيا اتصلي به هاتفياً. قولي إنكِ مُتِّ. أعطني هذا!»

«حسن... أين جهاز الهاتف؟»

قالت إلويز، بعد أنْ حملت الكأسين الفارغتين ومشتْ باتجاه غرفة الطعام، «ذهبَ –من– هنا». توقفتْ فجأة على لوح الأرضيّة الذي يقع بين غرفة الجلوس وغرفة الطعام وأصدرتْ صوت سحق وارتطام. وضحكت ميري جين ضحكاً مكبوتاً.

***

قالتْ إلويز عند الساعة الخامسة إلّا ربعاً، وهي مستلقية على ظهرها على الأرض، وكأس من المشروب قائمة بصورة متوازنة على صدرها ذي الثديين الصغيرين، «أعني أنكِ لا تعرفين ولت معرفةً جيّدة. كان الفتى الوحيد الذي عرفته واستطاع أنْ يدفعني إلى الضحك. أعني ضحكاً حقيقيّاً». ونظرتْ إلى ميري جين. «أتتذكرين تلك الليلة –في عامنا الدراسي الأخير– عندما فُوجِئتْ تلك المجنونة لويز هرمانسون في الغرفة مرتدية صدريّة سوداء اللون كانت قد اشترتها في شيكاغو؟»

ضحكت ميري جين ضحكاً مكبوتاً. كانت تتمدَّد على بطنها على الأريكة، وذقنها على مسند الذراع، وتواجه إلويز. كانت كأس مشروبها على الأرض، في متناول يدها.

قالتْ إلويز «حسن، كان في استطاعته أنْ يدفعني إلى الضحك بتلك الطريقة. كان في استطاعته أنْ يفعل ذلك عندما يتكلّم معي. ويستطيع أنْ يفعل ذلك عندما يُكلّمني عبر الهاتف. ويستطيع أنْ يفعل ذلك بكتابة رسالة. وأفضل ما في الأمر هو أنّه لا يحاول حتى أنْ يكون مُضحكاً – هو مُضحك بالفِطرة»، وأدارتْ رأسها قليلاً باتجاه ميري جين. «هيه، ما رأيك في أنْ ترمي لي سيجارة؟»

قالتْ ميري جين «لا تستطيع يدي أنْ تصلها»

رفعتْ إلويز بصرها إلى السقف من جديد. قالتْ «تباً لك. ذات مرة سقطتُ. كنتُ في المعتاد أنتظره عند موقف الحافلة، خارج المخزن العسكري، وذات مرة وصل متأخّراً، حالما بدأت الحافلة تتحرك. وبدأنا نركض للّحاق بها، فسقطتُ والتوى كاحلي، فقال «مسكين العم ويغيلي» وكان بذلك يُشير إلى كاحلي. سمّاه، المسكين العم العجوز ويغيلي... يا الله، كم كان ظريفاً»

قالت ميري جين «أليس لدى ليو حسّ فكه؟»

«ماذا؟»

«ألا يتّصِف ليو بحسّ فكه؟»

«أوه، يا إلهي! مَنْ يعلم؟ نعم. أعتقد ذلك. إنّه يضحك عندما يُشاهد أفلام الكرتون وما شابه». رفعتْ إلويز رأسها، وتناولتْ كأس المشروب عن صدرها، ورشفت منها.

قالت ميري جين «في الواقع – هذا ليس كل شيء. أعني أنَّ هذا ليس كل شيء»

«ماذا تقصدين؟»

«أوه... كما تعلمين. الضحك وما شابه»

قالت إلويز «مَنْ قال إنّه ليس كل شيء؟ اسمعي، إذا كنتِ لا تريدين أن تُصبحي راهبة أو ما شابه، يمكنكِ أيضاً أنْ تضحكي»

ضحكتْ ميري جين ضحكاً مكبوتاً. قالت، «أنت فظيعة»

قالتْ إلويز «أوه، يا إلهي، كان ظريفاً. كان إما مُضحكاً أو عذباً. ليس عذباً كفتى صغير. بل كانت عذوبة من نوعٍ خاصّ. أتعلمين ماذا فعل ذات مرّة؟»

قالت ميري جين «كلا»

«كنا على متن القطار متوجهين من ترينتون إلى نيويورك –حدث ذلك مباشرة بعد أنْ تمّ سحبه إلى الجيش. كان الجو بارداً في السيارة وتدثّرنا بمعطفي. وأتذكّر أنني كنتُ أرتدي تحت ملابسي سترة جويس مورو الصوفيّة– ألا تتذكّرين سترتها الزرقاء الجميلة تلك؟»

أومأتْ ميري جين إيجاباً، لكنَّ لويز لم تنظر نحوها لكي تتلقّى الإيماءة.

«وبشكلٍ ما وضع يده على بطني. وفجأة قال إنَّ بطني جميلة جداً حتى إنّه يتمنى أنْ يأتي أحد الضباط ويأمره بإبراز يده الأخرى من النافذة. قال إنّه أراد أنْ يفعل ما هو صائب. ثم أبعد يده وطلبَ من قاطع التذاكر أنْ يقف بهيئة الاستعداد. وقال له إنْ هناك شيئاً واحداً لا يتحمّله وهو ألّا يبدو الرجل فخوراً ببذلته الرسميّة. واكتفى قاطع التذاكر بالطلب منه أن يعود إلى النوم».

تأمّلتْ إلويز برهة، ثم قالت «لم يكن ما يقول دائماً هو المُضحك، بل أسلوب قوله. كما تعلمين»

«هل سبق لك أنْ أخبرتِ ليو عنه – أعني، ولو مرة واحدة؟»

قالت إلويز «أوه، أوشكت أنْ أفعل، ذات مرّة. ولكنّ أول سؤال طرحه عليّ كان ما هي رتبته العسكريّة»

«وماذا كانت رتبته العسكريّة؟»

قالت إلويز «ها! شيء مُضحك»

«كلا. كنتُ أعني –»

فجأة ضحكتْ إلويز، من أعماقها. «أتعلمين ماذا قال لي ذات مرّة؟ قال إنّه شعر بأنّه يُحرز تقدّماً في الجيش، ولكن في اتّجاه مختلف عمّا يحدث مع أي شخص آخر. قال إنّه عندما نال أول ترقية له، بدل أنْ يحصل على أشرطة أخذوا منه كُمّيه. قال إنّه عندما سيحين الوقت لينال رتبة جنرال، سيكون قد أصبح مُجرَّداً تماماً من ملابسه. ولن يستر جسمه أكثر من زر صغير لسلاح المُشاة على سُرّته». نظرتْ إلويز إلى ميري جين التي كانت تضحك. «ألا تعتقدين أنَّ هذا شيء مُضحك؟»

«نعم. ولكن، لِمَ لا تُخبرين ليو عنه أحياناً؟»

قالت إلويز «تسألين عن السبب؟ لأنّه غبي تماماً، هذا هو السبب. ثم، أصغي إليّ، أيتها الفتاة الناجحة مهنيّاً. إذا ما حدث وتزوّجتِ من جديد، فلا تُخبري زوجك بكل شيء. أتسمعين؟»

قالت ميري جين «لِمَ؟»

قالت إلويز «لأنني أنا التي قلتُ هذا، هذا هو السبب. الأزواج يُحبّون أنْ يعتقدوا أنكِ تمضين حياتك كلها في التقيّؤ كلما اقترب منك شاب. أنا لا أمزح. أوه، يمكنكِ أنْ تُخبريه بعض الأشياء. ولكن ليس بصدق. أعني إياكِ أنْ تكوني صادقة. إذا أخبرته بأنكِ تعرّفتِ مرّة على شاب وسيم، فيجب أنْ تضيفي في الحال إنه كان وسيماً بصورة مُبالغ فيها. وإذا أخبرته بأنك كنتِ تعرفين شاباً ظريفاً، فينبغي أنْ تُخبريه بأنه كان أشبه بالأحمق الذكي، أو المغرور. فإذا لم تفعلي، فسوف يُسبب لك الصداع بالحديث عن الشاب المسكين كلما سنحت له الفرصة». سكتتْ إلويز برهة لكي ترشف من كأسها وتفكّر. قالت «أوه، سوف يُصغي إليك بكل نضج. بل قد يبدو شديد الذكاء. ولكن إياكِ أنْ تدعيه يخدعك. صدّقيني. سوف تعيشين الجحيم إذا صدّقتِ أنّه على أي قدرٍ من الذكاء. صدّقيني»

رفعتْ ميري جين ذقنها عن مسند الساعد على الأريكة وكان اليأس بادياً عليها. وعلى سبيل التغيير، أسندتْ ذقنها إلى ساعدها. وفكّرتْ في نصيحة إلويز. قالت بصوتٍ مرتفع «لا يمكنكِ أنْ تصفي ليو بأنه ليس ذكيّاً».

«مَن الذي لا يمكنه ذلك؟»

قالت ميري جين ببراءة «أعني، ألا تعتبرينه ذكيّاً؟»

قالتْ إلويز «أوه، ما فائدة الكلام؟ فلنغلق الموضوع. لقد سبّبتُ لك الكآبة. أسكتيني»

قالت ميري جين «حسن، لِمَ تزوّجته إذن؟»

«أوه، يا إلهي! لا أعلم. لقد أخبرني بأنه يُحبّ جين أوستن، وأنّه يُقدِّر كثيراً مؤلفاتها. هذا ما قاله بالضبط. وبعد أنْ تزوجنا اكتشفتُ أنّه لم يقرأ أي كتاب لها. أتعلمين مَن هو كاتبه المُفضّل؟»

هزّتْ ميري جين رأسها نفياً.

«إنّه ل. مانينغ فاينز. هل سمعتِ به؟»

«كلا»

«ولا أنا. ولا أي شخص آخر سمع به. ألّفَ كتاباً عن أربعة رجال

يجوعون حتى الموت في ألاسكا. وليو لا يتذكَّر عنوانه، لكنّه أجمل كتاب قرأه في حياته. يا يسوع! إنّه حتى لا يتّصِف بما يكفي من الصدق بحيث يذكر جهاراً أنّه أحبّه لأنّه يدور حول أربعة رجال جاءوا حتى الموت داخل كوخ من الثلج أو ما شابه. كان عليه أنْ يقول إنّه مكتوب بأسلوب جميل»

قالت ميري جين «أنتِ ناقدة قاسية. أعني أنكِ متطرفة في انتقادك. لعله كان جيداً-»

قالت «صدّقيني، ما كان يمكن أنْ يكون كذلك». وفكّرتْ قليلاً، ثم أضافتْ، «على الأقلّ أنتِ لديك عمل. أعني على الأقل أنتِ-»

قالت ميري جين «ولكن اسمعي. أتعتقدين أنّه سيأتي وقت تخبرينه فيه حتى أنَّ والت قُتِل؟ أعني أنّه لن يشعر بالغيرة، أليس كذلك، إذا عَلِمَ أنَّ والت - يعني، قُتِل وكل شيء»

قالت إلويز «أوه، أيّتها الفتاة الناجحة مهنيّاً الصغيرة والبريئة، أيّتها العاشقة! والمسكينة. سوف يكون أسوأ حالاً. سوف يُصبح وحشاً. اسمعي، إنَّ كل ما يعرفه هو أنني أرافق شخصاً اسمه والت - جندي بارع في الكلام. إنَّ آخر ما يمكن أنْ أخبره به هو أنّه قُتِل. سيكون آخر شيء أقوله. وإذا فعلتُ -ولن أفعل- ولكنْ إنْ فعلتُ، فسوف أقول إنّه مات في أثناء القتال»

دفعتْ ميري جين ذقنها أكثر إلى الأمام من فوق حافة ساعدها.

قالت «إل...»

«لِمَ لا تُخبرينني كيف قُتِل؟ أُقسم على أنني لن أُخبر أحداً. صدقاً. أرجوك»

«كلا»

«أرجوك. صدقاً، لن أُخبر أحداً»

أنهتْ إلويز شرب مشروبها وأعادتْ وضع الكأس الفارغة بشكلٍ قائم على صدرها. قالت «سوف تُخبرين أكيم تاميروف»

«كلا، لن أخبره! أعني أني لن أُخبر أياً-»

قالتْ إلويز «أوه، كان فوجه يأخذ قسطاً من الراحة في مكان ما، بين المعارك أو ما شابه، هذا ما أخبرني به صديقه الذي كتب لي رسالة. كان

والت وشاب آخر يضعان مدفأة يابانيّة صغيرة داخل لفافة، كان أحد الضباط الكبار يريد أنْ يُرسلها إلى أرض الوطن، أو كانا يُخرجانها من اللفافة لكي يُعيدا لفّها من جديد - لا أعلم بالضبط. على أيّة حال، كانت ممتلئة بالغازولين وبأشياء أخرى وانفجرت في وجهيهما. الشاب الآخر لم يفقد إلّا عيناً واحدة»، وطفقتْ إلويز تبكي. وأحاطت الكأس الموضوعة على صدرها بيدها لكي تُبقيها ثابتة.

انزلقتْ ميري جين عن الأريكة، وتقدّمت ثلاث خطوات، على ركبتبها، من إلويز وبدأتْ تداعب جبينها. «لا تبكي، يا إل. لا تبكي»

قالتْ إلويز «مَن الذي يبكي؟»

«أعلم، ولكن لا تبكي. أعني الأمر لا يستحق ذلك»

فُتِحَ الباب الأمامي.

قالت إلويز كأنها تتكلّم من أنفها، «لقد عادت رامونا. هلّا قدّمتِ لي معروفاً، اخرجي إلى المطبخ واطلبي ممَنْ تجدينه هناك أنْ يُقدِّم لها وجبة العشاء باكراً؟»

«حسن، ولكن إذا وعدتني بألّا تبكي»

«أعدك. اذهبي. لا أرغب في الخروج إلى ذلك المطبخ اللعين في هذه اللحظة»

نهضَتْ واقفة، وفقدتْ توازنها ومن ثم استعادته، وغادرت الغرفة.

عادتْ في غضون دقيقتين، تتقدمها رامونا راكضة. وركضتْ رامونا بأسرع ما في استطاعتها، مُحاولة أنْ تُثير أقصى قدر من الضجيج من حذائها الواقي المحلول.

قالتْ ميري جين «لم تسمح لي بخلع حذائها الواقي»

كانت إلويز، ولا تزال متمددة على ظهرها على الأرض، تستخدم منديلها. وتكلّمت من داخله، مُخاطبة رامونا. «اخرجي واطلبي من غريس أنْ تنزع لك حذاءك الواقي. تعلمين أنّه لا ينبغي أنْ تدخلي إلى-»

قالت رامونا «إنها في المرحاض»

وضعت إلويز منديلها جانباً واستقامتْ لكي تُصبح في وضعيّة الجلوس. قالتْ «أعطني قدمك. اجلسي، أولاً، من فضلك... ليس هناك – بل هنا. يا إلهي!»

بحثتْ ميري جين عن سجائرها تحت الطاولة، وهي تجثو على رُكبتيها، وقالت، «هيه، خمّني ما حدث لجيمي»

«لا أعلم. القدم الأخرى. القدم الأخرى»

قالت ميري جين «لقد دُهِس. أليس هذا شيئاً مأساويّاً؟»

أخبرت رامونا إلويز «شاهدتُ سكيبر يحمل عظمة»

قالت إلويز لها «ماذا حدث لجيمي؟»

«لقد دُهِسَ وقُتِل. ورأيتُ سكيبر يحمل عظْمة، ورفضَ أنْ–»

قالتْ إلويز «دعيني أتفحَص جبينك قليلاً». مدّتْ يدها وتحسّستْ جبين رامونا. «لديك قليل من الحمّى. اذهبي وأخبري غريس بأنكِ سوف تتناولين عشاء في الطابق العِلويّ. وبعد ذلك تأوين مباشرة إلى السرير. وسأصعد أنا لاحقاً. هيا، الآن، من فضلك. خذي هذا الحذاء معك»

خرجتْ رامول بخُطى واسعة من الغرفةِ.

قالتْ إلويز لميري جين «ارمي لي واحدة. ودعينا نتناول مشروباً آخر»

أعطتْ ميري جين سيجارة لإلويز. «أليس هذا شيئاً رائعاً؟ أعني حكاية جيمي؟ كم خيالها خصب!»

«مم. اذهبي وأحضري المشروب، ما رأيك؟ واجلبي الزجاجة... لا أريد أنْ أخرج إلى هناك. إنَّ المكان الملعون كله يفوح برائحة تشبه عبق عصير البرتقال»

عند الساعة السابعة وخمس دقائق، رنَّ جرس الهاتف. نهضَتْ إلويز عن مقعد النافذة وأخذتْ تتحسّس في الظلام بحثاً عن حذائها، ومشت بخُطى ثابتة، شبه واهنة، متجهة نحو الهاتف. لم يُزعج الرنين ميري جين، التي كانت نائمة على الأريكة، منبطحة على وجهها.

قالت إلويز في الهاتف، من دون أنْ تُضطر إلى إضاءة المصباح الذي كان فوق رأسها، «ألو، اسمع، لا أستطيع أنْ أقابلك. ميري جين موجودة هنا.

سيارتها متوقفة أمامي مباشرة وهي أضاعت المفتاح. لا أستطيع أنْ أخرج. أمضينا عشرين دقيقة في البحث عنه وسط ذلك الشيء - الثلج والطين. قد تتمكن من جعل ديك وملدريد يقلانك. وأصغت. «أوه، حسن، هذا وضع صعب، يا فتى. لِمَ لا تشكّلون أنتم معشر الشبان فصيلاً وتعودون إلى المنزل بخطوة عسكريّة وأنتم تصيحون بذلك الهتاف المعروف. ويمكنكَ أنْ تكون القائد الأعلى»، وأصغت من جديد، قالتْ «أنا لا أمزح. حقاً لا أمزح. فقط وجهي يبدو عليه ذلك»، وأغلقت الخط.

مشت عائدة، بخُطى أقلّ ثباتاً، عائدة إلى غرفة الجلوس. وعند مقعد النافذة، سكبتْ ما تبقّى في الزجاجة من ويسكي في كأسها. كان عمقه مقدار إصبع. جرعته كله، وارتعشتْ، وجلستْ.

أضاءت غريس المصباح في غرفة الطعام، فانتفضَتْ إلويز. نادتْ على غريس، من دون أنْ تنهض. «من الأفضل ألّا تقدّمي الطعام حتى الساعة الثامنة، يا غريس. السيد وينغلر سوف يتأخّر قليلاً»

ظهرتْ غريس على ضوء غرفة الطعام لكنها لم تتقدَّم. قالت «هل السيدة ستغادر؟»

«بل سترتاح»

قالت غريس «أوه، سيدة وينغلر، أتساءل إنْ كنتِ توافقين على أنْ يقضي زوجي الأمسية هنا. لدي حيِّز كافٍ في غرفتي، وهو ليس مُضطراً إلى العودة إلى نيويورك حتى صباح الغد، والجو رديء جداً في الخارج»

«زوجك؟ أين هو؟»

قالتْ غريس «في الوقت الحاضر هو في المطبخ»

«حسن، أخشى أنّه لا يستطيع أنْ يقضي الليلة هنا، يا غريس»

«ماذا تقولين يا سيدتي؟»

«أقول أخشى أنّه لا يستطيع أنْ يقضي الليلة هنا. أنا لا أدير فندقاً»

لزمتْ غريس مكانها برهة، ثم قالت «حاضر، يا سيدتي»، وغادرتْ إلى المطبخ.

غادرتْ إلويز غرفة الجلوس وارتقت الدَرَج الذي يصله ضوء واهن جداً من وهج صادر عن غرفة الطعام. كانت إحدى فردتي حذاء رامونا الواقي مرميّة على منبسط الدرج. رفعتها لويز ورمتها، بأقصى طاقتها، عبر الدرابزين الجانبيّ، فأصابت أرض البهو بعنف.

ضغطتْ زر المصباح في غرفة رامونا وبقيتْ تضع إصبعها على مفتاح النور، وكأنها تستمدّ الدعم منه. وقفتْ برهة ساكنة تنظر إلى رامونا. ثم رفعت إصبعها عن مفتاح النور واقتربت بسرعة من السرير. «رامونا. استيقظي. استيقظي»

كانت رامونا نائمة على الجانب البعيد من السرير، وكفلها الأيمن يتجاوز الحافة. وكانت نظارتها على طاولة ليليّة صغيرة على شكل دونالد دك، مطويّة بطريقة أنيقة وطرفاها متجّهين نحو الأسفل.

«رامونا!»

استيقظت الفتاة مع شهيق حادّ، وعينين جاحظتين، لكنّها ضيّقتهما في الحال تقريباً. «ماما؟»

«حسبتُ أنكِ أخبرتني بأنَّ جيمي جيميرينو دُهِسَ وقُتِل»

«ماذا؟»

قالتْ إلويز «لقد سمعتِ ما قلت. لِمَ أنتِ نائمة على هذا الجانب البعيد؟»

قالتْ رامونا «هكذا»

«لماذا هكذا؟ رامونا، لا أشعر برغبة-»

«لأنني لا أريد أنْ أؤذي ميكي»

«مَنْ؟»

قالتْ رامونا، وهي تدعك أنفها، «ميكي. ميكي ميكيرانو»

رفعتْ إلويز طبقة صوتها حتى أضحى زعيقاً. «انتقلي إلى وسط السرير، هيا»

اكتفت رامونا بالنظر إلى إلويز وهي في حالة قصوى من التوتّر.

قبضتْ إلويز بقوة على كاحليّ رامونا وبحركة تراوحت بين الرفع والجر

جعلتها في وسط السرير. ولم تقاوم رامونا ولم تبكِ، بل تركتها تُحرّكها من دون أنْ تستسلم استسلاماً تاماً.

قالت إلويز، وهي تتنفّس بصعوبة، «والآن عودي إلى النوم. أغمضي عينيك... أتسمعين، أغمضيهما»

أغمضتْ رامونا عينيها.

ذهبتْ إلويز إلى مفتاح النور وأطفأت الضوء. لكنّها بقيتْ واقفة وقتاً طويلاً عند ممر الباب. وفجأة، اندفعتْ، في الظلام، نحو الطاولة الليليّة، وارتطمت ركبتها بآخر السرير، لكنّها لم تشعر بالألم لانشغالها بالهدف من اندفاعها. ورفعت نظارات رامونا، وأمسكتها بكلتَي يديها، وضعتها على وجنتها. وانهمرت الدموع على وجهها، مُبلّلة عدستيّ النظارات. وأخذتْ تردِّد مراراً وتكراراً، «مسكين العم ويغيلي». وختاماً أعادتِ النظارات إلى الطاولة الليليّة، والعدستان متجهتان نحو الأسفل.

مالتْ، وقد فقدتْ توازنها، وبدأتْ تدسّ أطراف أغطية سرير رامونا نحو الداخل. كانت رامونا يقظة، وتبكي بكاءً متواصلاً. قبّلتها إلويز بشفتيها الرطبتين على الفم وأبعدت الشعر عن عينيها ومن ثم غادرت الغرفة.

هبطتْ إلى الطابق السفليّ، وكانت حينئذٍ تترنّح بشدّة، وأيقظَتْ ميري جين.

قالت ميري جين، وهي منتصبة في جلستها على الأريكة، «ما هذا؟ مَنْ هذا؟ هه؟»

قالتْ إلويز، وهي تجهش بالبكاء، «ميري جين. اسمعي. أرجوك. أتتذكرين عامنا الأول في الجامعة، عندما ارتديتُ الثوب ذا اللون البنيّ والأصفر الذي اشتريته من محل بواز، وقالت لي ميريام بول إنّ لا أحد كان يرتدي ذلك النوع من الثياب في نيويورك، وأمضيتُ الليل وأنا أبكي؟». وهزّتْ إلويز ذراع ميري جين. وناشدتها قائلة «كنتُ فتاة لطيفة، ألم أكن كذلك؟»

قُبيل نشوب الحرب مع شعب الإسكيمو

على امتداد صباح خمسة أيام سبت متوالية، لعبت جيني مانوكس كرة المضرب في ملاعب إيست سايد مع سيلينا غراف، رفيقتها من أيام الدراسة في مدرسة مس بيسْهور. وكانت جيني تعتبر صراحة أنَّ سيلينا هي أشدّ الطلاب إثارة للملل في مدرسة مس بيسْهور -مدرسة مُترعة ظاهريّاً بالمملين الكبار- ولكنها في الوقت نفسه لم تتعرَّف على شخص آخر يُضاهي سيلينا في جلب عدد علب جديدة من كرات لعبة المضرب. كان والدها يصنع تلك الكرات أو ما شابه. (وعلى مائدة العشاء في إحدى الأمسيات استحضرت جيني رؤيا حفل عشاء أُقيم في منزل آل غراف، من أجل تثقيف عائلة مانوكس برمّتها، تضمّنت اقتراب خادم مثاليّ ووقوفه إلى يسار كل فرد من الحضور، وبدل أنْ يُقدِّم له كأساً من عصير البندورة، قدَّمَ له علبة تضم كرات لعبة المضرب). لكنَّ فكرة إيصال سيلينا إلى منزلها بعد مباراة في كرة المضرب ومن ثم اضطرارها -في كل مرّة- إلى تسديد أجرة سيارة الأجرة من جيبها، كانت تُحطم أعصاب جيني. فأولاً، العودة من الملاعب إلى المنزل بسيارة أجرة بدل الحافلة العامة كانت فكرة سيلينا. ولكن في يوم السبت الخامس، حالما انطلقتْ سيارة الأجرة شمالاً من جادّة يورك، صرخت جيني فجأة:

«اسمعي، يا سيلينا...»

سألتْ سيلينا، المنهمكة في تحسّس أرضيّة سيارة الأجرة بيدها، «ماذا؟»، ثم أنّتْ قائلة «لقد أضعتُ غطاء مضربي!»

على الرغم من دفء شهر أيار، كانت الفتاتان ترتديان معطفاً فوق البنطلون القصير؟

قالت جيني «لقد وضعتِهِ في جيبك. والآن أصغي إليّ-»

«أوه، يا الله! لقد أنقذت حياتي!»

قالت جيني، التي لم ترغب في الحصول على أي قدر من إحساس سيلينا بالامتنان، «اسمعي»

«ماذا؟»

قرّرتْ جيني أنْ تدخل في صلب الموضوع. كانت سيارة الأجرة قد اقتربت من الشارع الذي تقطن سيلينا فيه. قالت «لا أريد أنْ أجد نفسي مُضطرة إلى دفع أجرة سيارة الأجرة مرَّة أخرى هذا اليوم. أنا لستُ مليونيرة، كما تعلمين».

في أول الأمر بدا الذهول على سيلينا، ثم التأذّي. وسألتها ببراءة، «ألا أدفع دائماً نصف قيمة الأجرة؟»

قالت جيني بلا مواربة، «كلا، أنتِ دفعت نصف القيمة في يوم السبت الأول. قبل وقتٍ طويل في بداية الشهر الفائت. ومنذ ذلك الحين لم تدفعي أيّ شيء. لا أريد أنْ أكون خسيسة، لكنني في الحقيقة أعيش على مبلغ خمسة وأربعين سنتاً في الأسبوع. وأُضطر إلى اقتطاع-»

سألتْ سيلينا بفظاظة، «إنني دائماً أجلب كرات لعبة كرة المضرب، ألا أفعل؟»

أحياناً كانت جيني تشعر برغبة في قتل سيلينا. قالت «إنَّ والدك هو الذي يصنعها أو يستوردها، ولا تُكلّفكما أيّ شيء. أما أنا فمضطرة إلى الدفع في كل مرّة-»

قالت سيلينا بصوت مرتفع جعلها تُصبح أخيراً صاحبة الكلمة العليا، «حسن، حسن». وبدا عليها الضجر، ومدّتْ يدها إلى جيبَي معطفها، وقالت ببرودة «ليس في حوزتي أكثر من خمسة وثلاثين سنتاً. هل يكفي؟»

«كلا، أنا آسفة، لكنكِ تُدينين لي بمبلغ دولار وخمسة وستين سنتاً. إنني أحسب كل-»

«سوف أُضطر إلى الارتقاء إلى الطابق العِلويّ وإحضاره من أمي. ألا

تنتظرين حتى يوم الإثنين؟ يمكنني أنْ أحضره معي إلى صالة الألعاب الرياضيّة إنْ كان هذا يُرضيك»

كان موقف سيلينا يتحدّى الرأفة.

قالت جيني «كلا. يجب أنْ أرتاد السينما هذه الليلة. أنا أحتاجه»

حدّقتْ كلٌ من الفتاتين من نافذتها من الجهة المقابلة، وسط صمتٍ عِدائيّ، إلى أنْ توقفت سيارة الأجرة أمام منزل سيلينا. ثم خرجت سيلينا، التي كانت جالسة على الجهة الأقرب من الرصيف، وتركت باب سيارة الأجرة مفتوحاً قليلاً، ومشتْ برشاقة كأنها نسيتْ كل شيء، كشخصيّة شهيرة زائرة، وولجتِ المبنى. سدّدت جيني قيمة الأجرة بوجهٍ مُحتقن. ثم جمعت أدوات لعبة كرة المضرب الخاصة بها -المضرب، ومنشفة تجفيف اليدين، وقبعة الوقاية من أشعة الشمس- ولحقتْ بسيلينا. كان طول قامة جيني، وهي في سن الخامسة عشرة، حوالي خمسة أقدام وتسع بوصات وهي تنتعل حذاءها الرياضي مقياس 9 – B، وبينما هي تلج البهو، أضفى ارتباكها الخجول وهي تنتعل الحذاء المطاطيّ سِمة الشخص الهاوي الخطرة. وهذا ما جعل سيلينا تُفضّل أنْ تراقب قرص المؤشّر في أعلى المصعد. مكتبة سُر مَن قرأ

قالت جيني وهي تمشي بخطى واسعة نحو المصعد، «هذا يجعل المبلغ الذي تُدينين به إليّ دولاراً وتسعين سنتاً»

التفتت سيلينا. قالت «ربما يهمّك أنْ تعلمي أنَّ أمي في حالة مرض شديد»

«ما خطبها؟»

«في الحقيقة هي مُصابة بذات الرئة، وإذا اعتقدتِ أنني سوف أستمتع بإزعاجها من أجل الحصول على بعض النقود منها...»، نطقتْ سيلينا الجملة الناقصة بأقصى ما استطاعت من ثقة في النفس.

في الحقيقة، هذه المعلومات جعلت جيني تنكمش قليلاً، كائناً ما كانت درجة الحقيقة التي تتصف بها، ولكن ليس إلى درجة إثارة مشاعرها العاطفيّة. قالتْ «ليس أنا مَنْ تسبّب لها بالمرض»، ولحقت بسيلينا إلى داخل المصعد.

عندما رنّتْ سيلينا جرس الشقّة، دخلت الفتاتان -أو بالأحرى فُتِحَ الباب وتُرِكَ مفتوحاً جزئياً- تركته كذلك الخادمة المُلوّنة التي بدا أنَّ سيلينا لا تتعامل معها بالكلام. تركتْ جيني أدوات لعبة كرة المضرب على كرسي في البهو ولحقتْ بسيلينا. وفي غرفة الجلوس، التفتتْ سيلينا وقالت «هلّا انتظرتِ هنا؟ قد أُضطرّ إلى إيقاظ أمي»

قالت جيني «لا بأس»، واستقرّتْ على الأريكة.

قالتْ سيلينا، «لم يخطر في بالي قط أنكِ يمكن أنْ تُصبحي حقيرة هكذا في التعامل مع أي شيء». كانت غاضبة إلى درجة استخدام كلمة «حقيرة» لكنها لم تتحلَّ بما يكفي من الشجاعة بحيث تعتذر عن استخدامها.

قالت جيني «ها أنت تعلمين الآن»، وفتحت نسخة من مجلة «فوغ» أمام وجهها. وأبقتها بتلك الوضعيّة إلى أنْ غادرتْ سيلينا الغرفة، ثم أعادتها إلى أعلى جهاز الراديو. وتلفّتت حولها في أرجاء الغرفة، وأخذت تُعيد ترتيب قِطع الأثاث في ذهنها، وترمي مصابيح الطاولة، وتزيل الأزهار الاصطناعيّة. في اعتقادها، كانت غرفة شنيعة في العموم - تكلفتها باهظة لكنّها تنم عن ذوق رخيص.

فجأة، صرخ صوت ذكر من جزء آخر من الشقّة. «إريك؟ أهذا أنت؟»

خمّنتْ جيني أنّه أخو سيلينا، الذي لم تكن قد شاهدته قط. وضعت إحدى ساقيها الطويلتين فوق الأخرى، ورتّبت وضع حاشية معطفها المصنوع من وبر الجِمال على رُكبتيها، وانتظرتْ.

اندفع شاب يضع نظارات ويرتدي بيجاما ولا ينتعل خفّاً إلى الغرفة بفم مفتوح. قال «أوه، حسبت أنكِ إريك، عذراً». ومن دون أنْ يتوقف، وبهيئته البائسة جداً، تابع طريقه في اجتياز الغرفة، حاضناً شيئاً إلى صدره الضيّق. جلسَ على الطرف الخالي من الأريكة وقال بقدرٍ من العنف «لقد جرحت إصبعي اللعينة تواً»، ونظر إلى جيني كأنّه كان يتوقع منها أنْ تكون جالسة هناك. سألها «هل سبقَ لكِ أنْ جرحتِ إصبعك؟ عميقاً حتى العظم؟». كانت في نبرة صوته الصاخب مُناشدة حقيقيّة، وكأنَّ في استطاعة جيني أنْ تنقذه، بالإدلاء بجواب، من شكلٍ خاص من الريادة يُسبب الشعور بالعزلة.

حدّقتْ جيني إليه. قالت «في الواقع، لم يكن الجرح عميقاً حتى العظم، لكنني جرحتُ نفسي». كان أشدّ مَنْ رأت من الشبّان، أو الرجال، غرابة – من الصعب معرفة إلى أي النوعين ينتمي. كان شعره مُشوّشاً، ولديه لحية قصيرة، شقراء. وبدا وسيماً، وأحمق. سألته «وكيف جرحتَ نفسك؟»

حدّقَ نحو الأسفل، وفمه شبه مفتوح بارتخاء، إلى إصبعه المجروحة. قال «ماذا قلتِ؟»

«قلت كيف تسببّتَ في جرح نفسك؟»

قال «ليتني أعرف». كان مصابه يوحي بأنَّ الجواب على ذلك السؤال غامض غموضاً تاماً. «كنتُ أبحث عن شيءٍ ما في سلّة المهملات اللعينة وكانت ممتلئة بشفرات الحلاقة»

سألته جيني «أنت أخو سيلينا؟»

«نعم. يا إلهي، إنني أنزف حتى الموت. انتظري هنا. قد أحتاج إلى نقل دم»

«هل وضعتَ عليه أيّ شيء؟»

مدَّ أخو سيلينا إصبعه الجريحة بعيداً قليلاً عن صدره وكشفها لكي تشاهدها جيني. قال «وضعتُ فقط قطعة من ورق التواليت لإيقاف النزف. كما يجرح المرء نفسه وهو يحلق ذقنه»، ونظر من جديد إلى جيني. سألها «مَنْ أنتِ؟ صديقة للبلهاء؟»

«كنا في الصف الدراسي نفسه»

«حقاً؟ ما اسمك؟»

«اسمي فيرجينيا مانوكس»

قال، وهو ينظر إليها مُضيّقاً عينيه من خلال النظارات. «أأنتِ جيني؟ أنتِ جيني مانوكس؟»

قالتْ جيني، وهي ترفع إحدى ساقيها عن الأخرى، «نعم»

عاد أخو سيلينا إلى النظر من جديد إلى إصبعه. من الواضح أنّها كانت النقطة الحقيقيّة والمركزيّة الوحيدة بالنسبة إليه في الغرفة. قال بلا حماس «أنا أعرف أختكِ. كم هي متكبّرة»

أحنتْ جيني ظهرها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«عمَّن تتحدث؟»

«لقد سمعتني»

«إنها ليست متكبّرة»

قال أخو سيلينا «هي كذلك حتماً»

«ليست كذلك!»

«بل هي كذلك. إنها الملكة. ملكة المتكبرات قاطبة»

راقبته وهو ينهض ويُمعن النظر من بين تضاعيف ورقة التواليت السميكة إلى إصبعه.

«إنكَ حتى لا تعرف أختي»

«حتماً أعرفها»

سألته جيني، «ما اسمها؟ ما اسمها الأول؟»

«اسمها جون... جون المتكبّرة»

رانَ الصمت على جيني. وفجأة سألته «كيف شكلها؟»

لا جواب.

كرّرت جيني سؤالها، «كيف شكلها؟»

قال أخو سيلينا «لو أنَّ جمالها هو بمقدار نصف ما تعتقد أنها جميلة، لكانت محظوظة». كان ذلك بمنزلة جواب مُثير للاهتمام، في رأي جيني السرّي.

قالت «لم أسمعها مرّة تأتي على ذكرك»

«وهذا يُقلقني. يُقلقني إلى أقصى مدى»

قالت جيني، وهي تراقبه، «على أيّة حال، هي مرتبطة، وسوف تتزوج في الشهر القادم»

سألها، بعد أنْ رفع بصره، «ممَّن؟»

انتهزت جيني إلى أقصى مدى فرصة رفع بصره نحوها. «من شخصٍ لا تعرفه»

استأنف قيامه بإجراء الإسعافات الأوّليّة. قال «إنني أُشفق عليه»

أصدرت جيني صوت ازدراء.

«ما زالت تنزف بغزارة. أتعتقدين أنني يجب أنْ أضع عليه مادة ما؟ ما هي المادة المفيدة لها؟ هل الميركروكروم جيد؟»

قالت جيني «مادة اليود أفضل»، ثم، عندما شعرتْ أنَّ جوابها مفرط التهذيب وسط تلك الظروف، أضافت «الميركروكروم لا يصلح أبداً لهذا»

«لِمَ لا؟ ما خطبه؟»

«هو ليس جيداً في مثل هذه الحالة فقط، هذا كل ما في الأمر. أنت في حاجة إلى اليود»

نظر إلى جيني. سألها «لكنّه يؤلم كثيراً، أليس كذلك؟ ألا يخِز كثيراً؟»

قالت جيني «يخز كثيراً، لكنّه لن يقتلك»

التفتَ أخو سيلينا إلى إصبعه من دون أنْ يشعر بالامتعاض من نبرة كلام جيني كما بدا واضحاً. قال «لا أحبّ أنْ أشعر بالوخز»

«لا أحد يحبّ ذلك»

أومأ برأسه موافقاً. قال «نعم».

راقبته جيني برهة. ثم قالت فجأة «كفاك عبثاً بها»

أبعدَ أخو سيلينا يده السليمة، كأنما استجابة لإصابته بصعق كهربائيّ، واعتدلَ قليلاً في جلسته – أو بالأحرى، أصبح أقلّ استرخاءً بقليل. ونظر إلى شيءٍ ما على الجانب المقابل من الغرفة. ارتسمَ على قسمات وجهه المُضطربة تعبير شبه حالم. وأقحمَ ظفر سبابة يده السليمة في شقٍ بين سنّين أماميين، وأزال بقايا طعام، والتفتَ إلى جيني. سألها «أكلتِ بعد؟»

«ماذا؟»

«ألم تتناولي الغداء بعد؟»

هزّتْ جيني رأسها نفياً. قالت «سوف أتناول الطعام عندما أذهب إلى المنزل. عندما أصل إلى المنزل تكون أمي دائماً قد أعدَّتْ لأجلي وجبة الغداء»

«لديّ نصف دجاجة في غرفتي. أترغبين في أكلها؟ أنا لم ألمسها أو أقتطع أيّ شيء منها»

«كلا، شكراً. حقا لا أريد»

«كنتِ تلعبين كرة المضرب وتحتاجين إلى الطعام. ألستِ جائعة؟»

قالت جيني، وهي تضع ساقاً فوق ساق، «الأمر لا صلة له بالجوع. المسألة هي أنَّ أمي تكون دائماً قد أعدَّتْ لي وجبة الغداء لدى عودتي إلى المنزل. أعني أنها تغضب إذا قلتُ لها إنني لستُ جائعة»

بدا أنَّ أخا سيلينا تقبّل هذا التبرير. على الأقل هزَّ رأسه موافقاً ثم أشاح ببصره. لكنه فجأة التفتَ إليها من جديد. قال «ما رأيك بكوب من الحليب؟»

«كلا، شكراً... شكراً لك على كل حال»

مال بشرود وحكَّ كاحله الحافي. سألها «ما اسم ذلك الشاب الذي ستتزوج منه؟»

قالت جيني «تقصد من جون؟ اسمه ديك هفنر»

تابع أخو سيلينا حكّ كاحله.

قالت جيني «إنه رائد في سلاح البحريّة»

«يا لها من رتبة هامّة»

ضحكتْ جيني ضحكاً مكبوتاً، وراقبته وهو يحك كاحله حتى النهاية.. وعندما بدأ يحكّ الطفح الجلديّ القليل الذي ظهر على ربلة ساقه بظفر إصبعه، توقفتْ عن متابعته.

سألته «أين تعرّفت على جون؟ أنا لم أركَ قط في المنزل»

«أنا لم أزر منزلكم اللعين»

انتظرتْ جيني، ولكنْ لم ينشأ أي شيء عن هذا التعليق. سألته «إذن، أين قابلتها؟»

قال «في حفل»

«حفل؟ أيّ حفل؟»

«لا أعلم. في عيد الميلاد، عام 1942». أخرج بإصبعين من أصابعه من جيب سترة البيجاما سيجارة بدا كأنّه كان قد نام عليها ودهسها. قال «ما رأيك في أنْ تناوليني علبة الكبريت تلك؟». ناولته جيني علبة كبريت من الطاولة التي إلى جوارها. أشعل سيجارته من دون أنْ يقوِّم انحناءها، ثم أعاد عود

الثقاب المُستعمَل إلى علبة الكبريت. وأمال رأسه إلى الخلف، ثم نفثَ ببطء كميّة هائلة من الدخان من فمه ثم استنشقها من منخريه. واستمرّ في التدخين بأسلوب «الاستنشاق على الطريقة الفرنسيّة». في الغالب، لم يكن ذلك جزءاً من عرضٍ هزليّ استعراضي، بل هو إنجاز خاص، مكشوف، لشاب ربما حاولَ، في وقتٍ من الأوقات، أنْ يحلق ذقنه باستخدام يده اليُسرى.

سألته جيني «لِمَ تقول عن جون إنها متكبّرة؟»

«تسألين لمَ؟ لأنها كذلك. ما أدراني لماذا هي كذلك؟»

«نعم، ولكن أعني لِمَ تقول إنها كذلك؟»

التفتَ نحوها بضجر. «اسمعي، لقد كتبتُ لها ثماني رسائل لعينة. ثماني. ولم تُجِب عن أيّ منها»

تردّدتْ جيني. «مَنْ يدري، لعلها كانت مشغولة»

«نعم، مشغولة. مشغولة كحيوان قندس صغير لعين»

سألته جيني «هل ينبغي أنْ تُكرِّر الشتائم كثيراً؟»

«نعم ينبغي أنْ أفعل»

ضحكت جيني بصوت خافت. سألته «على أي حال، منذ متى وأنت تعرفها؟»

«مدة كافية»

«أقصد، هل سبقَ لك أن اتّصلتَ بها هاتفيّاً أو بأية وسيلة؟ أعني ألم يحدث مرّة أن اتّصلتَ بها هاتفيّاً؟»

«كلا»

«يا إلهي. إذا لم تتصل بها قط–»

«لم أستطع ذلك»

قالت جيني «لِمَ لا؟»

«لم أكنْ في نيويورك»

«أوه! وأين كنت؟»

«أنا؟ في أوهايو»

«أوه، هل التحقتَ بالجامعة؟»

«كلا. تركتها»

«أوه. هل التحقتَ بالجيش؟»

«كلا»، وبيده التي يحمل بها السيجارة ربت أخو سيلينا على الجانب الأيسر من صدره. قال «القلب».

قالت جيني «تعني، بسبب قلبك؟ ما خطبه؟»

«لا أعلم ما خطبه اللعين. لقد أُصِبتُ بحمّى روماتيزميّة وأنا صغير. كان الألم لعيناً في الـ»

«ألا ينبغي أن تتوقف عن التدخين؟ أعني أليس من المُفترَض ألّا تُدخّن وما إلى ذلك؟ لقد أخبر الطبيب أخـ–»

قال «آه، إنهم يقولون الكثير من الكلام»

سكتتْ جيني فترة وجيزة. سألته «وماذا كنتَ تفعل في أوهايو؟»

«أنا؟ كنتُ أعمل في مصنع لعين للطائرات»

قالت جيني «أحقاً؟ وهل كنتَ تحب عملك؟»

قال يُحاكيها ساخراً «هل كنتَ تحبّه؟»، لقد أحببته. بل عشقت الطائرات. إنها ظريفة جداً»

كانت جيني حينئذٍ قد انهمكتْ كثيراً في الحديث إلى درجة أنّها لم تشعر بالمهانة. «كم بقيتَ تعمل هناك؟ أي في مصنع الطائرات؟»

«لا أعلم، حقاً. ربما سبعة وثلاثين شهراً». ونهضَ واقفاً ومشى نحو النافذة. أطلّ منها على الشارع، وهو يحكّ عموده الفقري بإبهامه. قال «انظري إليهم، أولئك الحمقي الملاعين»

قالت جيني «مَنْ تقصد؟»

«لا أعلم. أي شخص»

قالت جيني «سوف يزداد نزف إصبعك إذا وجّهتها نحو الأسفل هكذا»

سمعها. فرفع قدمه اليُسرى ووضعها على مقعد النافذة وأراح يده المجروحة على الفخذ الأفقيّ. واستمر في الإطلال نحو الأسفل على الشارع. قال «كلهم ذاهبون إلى منبر السَحب إلى الجيش اللعين. أتعلمين أننا بعد ذلك سوف نُحارب شعب الإسكيمو؟»

قالت جيني «مَنْ؟»
«شعب الإسكيمو... افتحي أُذنيك، بحقّ الله»
«ولِمَ شعب الإسكيمو؟»
قال «لا أعلم لماذا. ما أدراني؟ في هذه الحرب سوف يلتحق كل العجائز. ممَّن تجاوزوا سن الستين. لن يُسمح إلّا للّذين تجاوزوا الستين بالالتحاق. سوف يجعلونهم يعملون ساعات أقلّ وهذا هو... الأمر الجلل»
قالت جيني، وهدفها الوحيد هو قول الحقيقة، لكنها كانت تعلم مُسبقاً قبل أنْ تتكلَّم أنها تقول الشيء الخطأ، «على أي حال، لستَ مُضطراً إلى الالتحاق»
قال بسرعة «أعلم»، وأنزل قَدَمه عن مقعد النافذة. رفع زجاج النافذة قليلاً ورمى سيجارته إلى الشارع. ثم استدار، وأكمل كلامه وهو عند النافذة، «اسمعي، قدّمي لي معروفاً. عندما يأتي ذلك الشاب، هلّا أخبرته بأنني سأكون مُستعداً بعد قليل؟ يجب أنْ أحلق ذقني أولاً. اتّفقنا؟»
أومأت جيني برأسها موافقة.
«أتريدين مني أنْ أحثّ سيلينا على الحضور؟ ألا تعلم أنكِ موجودة هنا؟»
قالت جيني «أوه، هي تعلم أنني هنا. لستُ في عجلة من أمري. شكراً لك»
أومأ أخو سيلينا برأسه إيجاباً. ثم ألقى نظرة أخيرة وطويلة إلى إصبعه المجروحة، كأنّه يريد أنْ يرى إنْ كان في حالة تسمح له بالعودة إلى غرفته.
«لِمَ لا تضع ضمادة عليها؟ أليست لديك ضمادات أو ما شابه؟»
قال «كلا. حسن، لا تقلقي» وخرج من الغرفة.
بعد بضع لحظات، عاد، وجلب نصف شطيرة.
قال «كلي هذه. إنها لذيذة»
«حقاً، أنا لست-»
«خذيها، إكراماً لله. أنا لم أضع فيها سُمّاً»
قبِلَتْ جيني نصف الشطيرة. قالت «لا بأس، شكراً جزيلاً»
قال، وهو يُشرِف عليها، ويُراقبها، «إنه لحم دجاج. اشتريتها ليلة أمس من محل بيع الشطائر»

«تبدو لذيذة جداً»

«حسن، كليها إذن»

تناولت جيني قضمة منها.

«لذيذة، أليس كذلك؟»

ابتلعتها جيني بصعوبة. قالت «لذيذة جداً»

أومأ أخو سيلينا برأسه موافقاً. أخذ يتلفّت حوله في الغرفة بشرود، ويحكّ الموقع المنخفض من صدره. «حسن، أعتقد أنّه يُستحسن أنْ أذهب وأرتدي ملابسي... يا إلهي! إنّه الجرس يرنّ. لا تقلقي!» وابتعد.

أصبحت جيني وحدها، وتلفّتت حولها من دون أنْ تنهض، بحثاً عن مكان مناسب ترمي فيه الشطيرة أو تُخفيها. وسمعت أحدهم يقترب قادماً من البهو. وضعت الشطيرة داخل جيب معطف وبر الجِمال.

دخل الغرفة شاب في أوائل ثلاثينيات عمره، لا هو قصير القامة ولا طويل. قسمات وجهه العاديّة، وقصّة شعره، المناسِبة له، وربطة عنقه مع الوشاح لم تمدّها بمعلومات ختاميّة حقيقيّة. لعلّه أحد أفراد هيئة موظفين في مجلة إخباريّة، أو أنّه يحاول أنْ ينتمي إلى تلك الهيئة. ولعلّه يمثّل في مسرحيّة أنهتْ عروضها في فيلادلفيا. أو لعلّه كان ملتحقاً بمؤسسة قانونيّة.

خاطبَ جيني، بكياسة، «مرحباً، مرحباً»

ثم سألها «هل رأيت فرانكلين؟»

«إنّه يحلق ذقنه. طلبَ مني أنْ أطلب منك أنْ تنتظره. سوف يخرج سريعاً»

«يحلق ذقنه، يا إلهي»، ونظر في ساعة يده. ثم جلسَ على كرسي مُلبّس بقماش دمشقي أحمر اللون، ووضع ساقاً فوق ساق، ووضع يديه على وجهه، كأنّه في العموم يشعر بالضجر، أو كأنّه تعرَّضَ تواً لإجهاد بصريّ، وعركَ عينيه المُغمضتين بأطراف أصابعه الممدودة. قال «هذا أفظع صباح أمرّ به في حياتي كلها»، ثم أبعدَ يديه عن وجهه. كان الكلام يخرج حصراً من حنجرته، كأنّه شديد الإرهاق بحيث لا يتمكن من إضافة نفس من الحجاب الحاجز إلى كلماته.

سألته جيني، وهي تنظر إليه، «ماذا حدث؟»

«أوه... إنها قصّة طويلة. إنني لا أطيق الأشخاص الذين لم أعرفهم أقلّ من فترة طويلة». وحدّق بصورة مبهمة، وبسخط، في اتّجاه النوافذ. «لكنني لن أعتبر أنّه يحقّ لي بعد الآن أنْ أكون حَكَماً على الطبيعة الإنسانيّة. يمكنكِ أنْ تنقلي عني هذا الكلام بحريّة»

كرّرتْ جيني القول «ماذا حدث؟»

«أوه، يا إلهي. إنَّه ذلك الشخص الذي قاسمني السكن في شقّتي طوال أشهر عديدة - لا أرغب حتى في التحدث عنه...»، ثم أضاف «ذلك الكاتب» برضا، ربما لأنّه تذكَّر لعنة مُفضّلة لديه مأخوذة من إحدى روايات هيمنغواي.

«ماذا فعل؟»

قال الشاب «بصراحة، لا أرغب الآن في الخوض في التفاصيل»، وأخرج سيجارة من علبة سجائره الخاصة، متجاهلاً المِرطاب[1] الشفاف الذي على الطاولة، وأشعلها بولاعته. كانت يداه كبيرتين، لم تبدوا قويتين ولا كفوءتين ولا حسّاستين، لكنّه استخدمهما كأنهما تتمتعان بدافع جمالي خاص بهما ليس من السهل التحكّم فيه. قال «كنت قد عزمتُ على ألّا أفكّر في الأمر. لكنني حانق. أعني أنَّ ذلك الشخص الحقير الشنيع من ألتونا، في بنسلفانيا - أو أحد تلك الأماكن. يبدو أنّه يتضوّر جوعاً. وأنا لديّ ما يكفي من الرقّة والكياسة -وأتمتّع بطيبة مثاليّة- بحيث أخذته معي إلى شقّتي، تلك الشقة الصغيرة جداً التي أكاد لا أستطيع التحرّك داخلها وأنا وحدي. وقدَّمته إلى أصدقائي كلّهم، وسمحتُ له بملء الشقّة بأكملها بأوراق مخطوطاته الفظيعة، وبأعقاب السجائر، وبالفجل وبكل ما يخطر في البال. وعرَّفته على كل منتج مسرحيّ في نيويورك، وأغسل له قمصانه القذرة طوال الوقت في الغسّالة. وزيادة على ذلك كلّه-». سكت الشاب فجأة. ثم استأنف قائلاً «ومكافأةِ لي على هذه المعاملة الرقيقة والكياسة، كان يعود إلى المنزل عند الساعة الخامسة أو السادسة صباحاً -من دون أنْ يترك أيّة ملاحظة خلفه- ويأخذ معه كل ما تقع عليه يداه القذرتان». ثم سكتَ لكي يسحب دخان

1- المرطاب: علبة سجائر خاصة مؤهّلة لإبقاء تبغ السجائر رطباً.

سيجارته، ثم نفث الدخان بدفقٍ نحيل، مع صفير، من فمه. «لا أرغب في التحدّث بهذا الشأن. لا أرغب حقاً»، ونظر إلى جيني. قال، بعد أنْ نهضَ عن كرسيه، «يُعجبني معطفك»، وتقدّمَ وأمسك بطيّة معطف جيني الوبريّ بين إصبعيه. «جميل. إنها المرَّة الأولى التي أرى فيها معطفاً جيداً حقاً من وبر الجِمال منذ أيام الحرب. هل لي أنْ أعرف من أين حصلتِ عليه؟»

«أمي أحضرته من ناسو»

أومأ الشاب برأسه متفكّراً ثم تراجع مبتعداً إلى كرسيه. «إنّه أحد الأماكن القليلة التي يمكن للمرء أنْ يحصل فيها على قماش من وبر الجِمال الأصليّ». وجلس. «هل مكثَتْ هناك طويلاً؟»

قالتْ جيني «ماذا؟»

«هل مكثتْ والدتك هناك طويلاً؟ إنَّ سبب سؤالي يعود إلى أنَّ أمي كانت هناك في شهر كانون الأول. وفي جزء من شهر كانون الثاني. في المعتاد أرافقها، لكنّه كان عاماً يسوده الاضطراب وببساطة لم أتمكن من الفرار»

قالت جيني «كانت هناك في شهر شباط»

«عظيم. أين أقامتْ؟ أتعرفين؟»

«مع خالتي»

أومأ برأسه إيجاباً. «هل لي أنْ أعرف اسمك؟ أفهمُ أنكِ صديقة أخت فرانكلين، أليس كذلك؟»

قالت جيني، مُجيبة فقط على الشطر الثاني من السؤال، «نحن في الصف الدراسي نفسه»

«هل أنتِ الشهيرة ماكسين التي تتحدث سيلينا عنها؟»

قالت جيني «كلا»

فجأة باشر الشاب في نفض ثنيتَي بنطلونه براحة يده. قال «إن شَعر الكلاب يُغطيني من رأسي إلى قدميّ. لقد ذهبت أمي إلى واشنطن لقضاء عطلة نهاية الأسبوع وتركت كلبها في شقّتي. إنّه ظريف جداً. ولكن لديه عادات سيئة جداً. هل لديك كلب؟»

«كلا»

«في الواقع، أعتقد أنَّه من القسوة الاحتفاظ بالكلاب في المدينة». توقف عن عمليّة التنظيف، وجلس باسترخاء، ثم نظر في ساعة يده من جديد. «إنَّ هذا الفتى لا يُحافظ على مواعيده أبداً. سوف نشاهد فيلم كوكتو «الجميلة والوحش» وهو الفيلم الوحيد الذي ينبغي أنْ تكوني دقيقة في مواعيدك لكي تشاهديه. أعني إذا لم تكوني دقيقة، فسوف يفوتك سِحره كلّه. هل شاهدتِه؟»

«كلا»

قال «أوه، يجب أنْ تشاهديه! لقد شاهدته ثماني مرّات. إنّه يتّصف بعبقريّة صِرفة. وأنا أحاول منذ أشهر أنْ أدفع فرانكلين إلى مشاهدته»، وهزَّ رأسه تعبيراً عن اليأس. «إنَّ ذائقته رديئة. وفي أثناء الحرب، كنا نحن الاثنين نعمل في المكان الفظيع نفسه، وكان ذلك الفتى يُصرّ على جرّي معه لأحضر أردأ الأفلام السينمائيّة قاطبة. شاهدنا أفلاماً عن عصابات الشوارع. وأفلام الغرب الأميركيّ. وأفلاماً موسيقيّة استعراضية–»

سألته جيني «هل كنتَ أنتَ أيضاً تعمل في مصنع الطائرات؟»

«يا إلهي، نعم. عملتُ هناك طوال سنين لا حصر لها. دعينا من هذا الحديث، أرجوك»

«أنت أيضاً مريض في القلب؟»

«يا إلهي، كلا. أعوذ بالله»، وربَّت مرّتين على ذراع كرسيه. «الديّ عُرف يقول–»

عندما دخلتْ سيلينا الغرفة، نهضَتْ جيني بسرعة وهرعت للقائها في منتصف الطريق. كانت سيلينا قد بدّلتْ بنطلونها القصير بثوب، وهو أمر كان في المعتاد يزعج جيني.

قالت سيلينا بنفاق «آسفة لأنني جعلتك تنتظرين، لكنني اضطررتُ إلى انتظار أمي ريثما تستيقظ... أهلاً، إريك»

«مرحباً، مرحباً!»

قالت جيني، بصوتٍ منخفض بحيث لا تسمعها إلّا سيلينا، «على أيّة حال، لا أريد النقود»

«ماذا؟»

«لقد فكّرت. أعني أنكِ دائماً تُحضرين كرات لعبة كرة المضرب. لقد نسيتُ هذا»

«لكنكِ قلتِ هذا لأنّي لم أكنْ مُضطرة إلى دفع ثمنها-»

قالت جيني، وهي تتقدم على الطريق، من دون أنْ تودّع إريك، «رافقيني حتى الباب»

في البهو قالت سيلينا، «لكنني حسبتُ أنكِ قلتِ إنك ذاهبة لحضور فيلم سينمائيّ وإنك في حاجة إلى النقود وما إلى ذلك!»

قالت جيني «أنا مُرهقة». ومالت وحملتْ أدوات لعبة كرة المضرب. «اسمعي، سوف أمنحك خاتماً بعد تناول العشاء. هل لديك عمل خاص هذه الليلة؟ قد أتمكّن من الحضور»

حدّقتْ سيلينا إليها وقالت، «اتفقنا»

فتحتْ جيني الباب الأمامي ومشتْ نحو المصعد. ورنّت الجرس. قالتْ «لقد قابلتُ أخاك»

«أحقاً؟ أليس شخصيّة مُميَّزة؟»

سألتها جيني بلهجة عاديّة، «ماذا يعمل؟ هل يعمل أم ماذا؟»

«لقد ترك العمل. والدي يريد له أنْ يعود إلى الجامعة، لكنّه يرفض»

«لِمَ يرفض؟»

«لا أعلم. يقول إنّه أصبح متقدّماً في السن ولا يصلح للدراسة»

«كم عمره؟»

«لا أعلم. ربما أربعة وعشرون»

فُتِحَ باب المصعد. قالت جيني «سوف أتّصل بك لاحقاً!»

خارج المبنى، بدأتْ تمشي غرباً نحو ليكسنغتن لكي تلحق بالحافلة. بين الحافلة الثالثة وتلك المتوجهة إلى ليكسنغتن، مدّتْ يدها إلى جيب معطفها لتُخرج كيس النقود وعثرت على نصف الشطيرة. أخرجتها وأوشكتْ أنْ تُنزِل ذراعها لكي ترمي الشطيرة إلى الشارع، ولكن بدل ذلك أعادتها إلى جيبها. وقبل ذلك ببضعة أعوام، استغرقَ منها التخلُّص من دجاجة عيد الفصح التي عثرتْ عليها ميتة على نشارة الخشب في قعر سلّة مهملاتها ثلاثة أيام.

الرجل الضاحك

في عام 1928، وأنا في سن التاسعة، كنتُ أنتمي، بأقصى حماس، إلى منظّمة تُعرَف باسم نادي الكومانشي. وبعد ظهيرة كل يوم دراسيّ عند الساعة الثالثة كان زعيمنا ينتقي خمسة وعشرين منا نحن الكومانشي ويجمعنا خارج مخرج الصِبية للمدرسة الحكوميّة 165، في الشارع رقم 109 بالقرب من جادّة أمستردام. ثم نندفع ونشقّ طريقنا إلى داخل حافلة الزعيم التجاريّة المُعاد صنعها، ويقودها بنا (وفقاً لترتيباته الماليّة التي أعدّها مع أهالينا) متوجّهاً إلى سنترال بارك. وخلال الفترة المتبقيّة من بعد الظهيرة كنا نلعب كرة القدم بأنواعها أو البيسبول، إذا سمحت حالة الطقس بذلك، ووفقاً للموسم. وفي الأيام الماطرة، كان الزعيم دائماً يُرافقنا إما إلى متحف التاريخ الطبيعي أو إلى المُتحف الميتروبوليتاني للفنون.

في أيام السبت وفي معظم أيام العطل الوطنيّة، كان الزعيم يقلّنا باكراً في الصباح كلاً من أمام منزله المختلف، ويقود حافلته التي يبدو عليها الإجرام، خارج مانهاتن إلى المساحات المفتوحة والفسيحة نسبيّاً لمتنزّه فان كورتلانت أو إلى باليسيد. وإذا رغبنا في مشاهدة ألعاب رياضيّة معيّنة، نذهب إلى فان كورتلانت، حيث الملاعب ذات أبعاد نظاميّة وحيث الفرق المقابلة لا تتضمَّن عربة للأطفال أو سيدة عجوزاً سريعة الغضب تحمل عصا. وإذا رغبت قلوبنا الممتلئة بالحماس في إقامة مُخيَّم كنا نذهب إلى باليسيد ونُقيم معسكراً بدائيّاً. (أتذكّر أنني أضعتُ طريقي ذات يوم سبت في موقع ما في تلك المساحة المُعقّدة الممتدَّة بين لافتة إعلان لينيت Linit وموقع الطرف الغربيّ من جسر جورج واشنطن. لكنني حافظتُ على توازني، واكتفيتُ بالجلوس على الواجهة الفخمة للوحة الإعلانات العملاقة، وفتحت

صندوق غدائي لكي أتناوله في أثناء العمل، لكنني كنتُ أبكي، وشبه واثق من أنَّ الرئيس سوف يعثر عليّ. كان الزعيم دائماً يعثر علينا)

كان الزعيم خلال ساعات فراغه من الاهتمام بنادي الكومانشي، يُصبح جون غيدسودزكي، من ستاتن أيلند، شاباً شديد الحياء، والرقّة، في الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين من العمر، طالب قانون في جامعة نيويورك، وفي العموم كان شخصاً يبقى في الذاكرة. ولن أحاول أنْ أجمع منجزاته العديدة ومزاياه هنا. وبمجرد مروره، كان يُصبح الكشفيّ الفخم، رمز كل ما هو أميركي تقريباً لعام 1926، وعُرفَ عنه أنّه دُعيَ بكل ودّ إلى محاولة الانضمام إلى فريق جاينت في نيويورك لكرة البيسبول. كان حَكَماً نزيهاً وهادئاً في كل أحداثنا الرياضيّة الصاخبة، ومُشعِلاً كبيراً للحماس ومُخمِداً له، وخبيراً في الإسعافات الأوّليّة، ولا يُظهر اشمئزازه من هذا العمل. وكنا جميعاً نحبّه، بدءاً بأصغر مُشاغب إلى أكبرهم، ونحترمه.

ما زال ظهور الزعيم الشخصيّ بيننا في عام 1928 جليّاً في ذهني. ولو كان في الإمكان قياس الأمنيات لقمنا جميعاً نحن أعضاء نادي الكومانشي برسمه على شكل عملاق في الحال. لكنَّ واقع الأمر لم يكن كذلك، فقد كان قصير القامة ممتلئاً لا يزيد حجمه عن خمسة أقدام وثلاث بوصات أو أربع. وكان شَعره مزيجاً من لونيّ الأزرق والأسود، وقصَّة شَعره قصيرة جداً، وأنفه كبيراً وضخماً، وجذعه يُجاري في طوله طول ساقيه. وعندما كان يرتدي سترته الجلديّة القصيرة تبدو كتفاه قويتين، ولكن ضيّقتين ومنحدرتين. ولكن في تلك الأوقات، بدا لي أنّه اندمجتْ في الرئيس معظم الصِفات المتألّقة لبَكْ جونز، وكِنْ مينارد وتوم ميكس[1]، لكنَّ اندماجها كان أرقّ.

***

في نهاية كل يوم، عندما يسود قدر كافٍ من الظلام ويُصبح لدى الفريق الخاسر عُذر لإخفاقه في عدد الضربات الموجّهة نحو الملعب وفي تمريرات الكرة إلى الهدف، كان أعضاء الكومانشي يعتمدون بكل ثقلهم

1- بك جونز وكن مينارد وتوم ميكس: ممثلون أميركيون لأفلام الويسترن في الفترة المبكرة من عصر السينما. - المترجم

وبأنانيّة على موهبة الزعيم لإخبار الحكايات. مع حلول تلك الساعة تكون قد ارتفعت حرارتنا وزاد غضبنا، فنتقاتل فيما بيننا -إما بتبادل اللكمات أو بأصواتنا الحادة- من أجل الحصول على مقاعد أقرب إلى مكان الزعيم في الحافلة. (كانت الحافلة تضمّ صفّين متوازيين من مقاعد القشّ. الصف الأيسر فيه ثلاثة مقاعد زائدة -هي أفضل مقاعد الحافلة- تمتد نحو الأمام حتى تصل إلى جانب السائق). لم يكن الزعيم يرتقي الحافلة إلّا بعد أنْ نستقر جميعاً. ثم ينشر مقعد السائق الذي يجلس عليه نحو الخلف، ويبدأ، بصوته ذي الطبقة العالية الرفيعة ولكن المُرخّمة، بسرد حلقة جديدة من قصّة «الرجل الضاحك». وحالما يباشر السرد يشدّ اهتمامنا بلا تراخٍ. و«الرجل الضاحك» هي القصة المناسبة لأفراد الكومانشي. وربما كانت لها أبعاد كلاسيكيّة، وتنتشر في أرجاء المكان، ومع ذلك كانت تبقى في الأساس قابلة للحمل. كان في وسع المرء أنْ يحملها معه إلى المنزل والتأمّل في أحداثها في أثناء جلوسه، على سبيل المثال، وسط المياه الوافرة لمغطس الاستحمام.

كان الرجل الضاحك ابناً وحيداً لزوجين من المُبشّرين الأثرياء، خطفته عصابات صينية وهو طفل. وعندما رفض الزوجان المُبشران الثريان (بدافع من قناعة دينيّة) أنْ يدفعا قيمة الفِدية من أجل إطلاق سراح ابنهما، غضبت العصابات بشدّة، ووضعت رأس الطفل الصغير داخل ملزمة النجّار وشدّتها عليه. وكبر الطفل ضحيّة تلك التجربة الفريدة حتى أصبحَ رجلاً برأسٍ أصلع، على شكل جوزة ووجه ليس فيه فم بل تجويف بيضاوي الشكل ضخم تحت الأنف. والأنف نفسه يتألّف من منخرين مختومين باللحم. ونتيجة لذلك، عندما كان الرجل الضاحك يتنفّس، كان التجويف الشنيع، الذي يقع تحت الأنف ولا يدل على المرح، يتمدَّد ويتقلّص كأنّه (حسب تصوّري) حويصلة ضخمة (وبيَّنَ الزعيم، ولم يكتفِ بالشرح، طريقة الرجل الضاحك في التنفّس). وكان الأشخاص الغرباء يفقدون الوعي عندما يرون وجه الرجل الضاحك الفظيع. وتخلّى عنه معارفه. لكنَّ الغريب في الأمر هو أنَّ العصابات تركته يتجوّل في أرجاء مكاتبها - ما دام أنّه يُغطي وجهه بقناع من الشاش بلون أحمر فاتح مصنوع من بتلات زهرة نبات الأفيون. وذلك

القناع لم يكن فقط يوفّر على أفراد العصابات رؤية وجه ابنهم الذي تبنّوه، بل يجعلهم يتقصّون مكان تواجده، في ظل تلك الظروف، لأنّه كان يفوح برائحة الأفيون.

كان الرجل الضاحك في صباح كل يوم يتسلَّل مع شعوره المُطلق بالوحدة (كان يمشي برشاقة جميلة كأنّه قط) إلى الغابة الكثيفة التي تكتنف مخبأ العصابات. وهناك كان يعقد صداقة مع أي عدد من أنواع الحيوانات: كلاب، فئران بيضاء، نسور، أسود، وأفاعي البوا العاصرة، والذئاب. وزيادة على ذلك، كان ينزع قناعه أمامها ويتحدث معها بصوت ناعم، وشجيّ، وبلغتها. ولم تكن تجده قبيح المنظر.

(استغرقَ من الزعيم شهرين للوصول إلى هذه النقطة من القصّة. ومنذ ذلك الحين فصاعداً، ازداد تحكّماً في أجزائها، مما زاد في استمتاع فتية الكومانشي)

كان الرجل الضاحك يحبّ وضع أُذنه على الأرض والإصغاء إليها، وسرعان ما توصّل إلى معرفة أسرار مهنة العصابات القيِّمة. لكنّه، لم يأخذها كثيراً على محمل الجدّ، وأسرع بوضع نظامه الخاصّ، الأكثر فعاليّة. في أول الأمر بدأ، على مستوى منخفض، يتجول في أرجاء الريف الصينيّ، يمارس السرقة، والاختطاف، والقتل عند الضرورة القصوى. وسرعان ما وفّرت أساليبه الإجراميّة البارعة، بالإضافة إلى حبّه الفريد للإنصاف في السلوك، مكانةً مرموقة في قلب الأمّة. والغريب في الأمّر، هو أنَّ آباءه بالتبنّي (العصابات التي عملتْ في الأساس على توجيه اهتمامه إلى الجريمة) كانوا آخر العارفين بإنجازاته. وعندما عرفوا، شعروا بغيرة جنونيّة. وذات ليلة مروا واحداً إثر الآخر من أمام سرير الرجل الضاحك، مُعتقدين أنهم نجحوا في إعطائه مُخدِّراً وجعله ينام نوماً عميقاً، وسدَّد كلّ منهم طعنة إلى الشخص النائم تحت الأغطية بخناجرهم الحادّة. ولكنْ اتّضح أنَّ الضحية كانت والدة رئيس العصابات - وكانت امرأة بغيضة، كثيرة الكلام. وهذا الحادث لم يعمل إلّا على شحذ شهيّة رجال العصابات إلى سفك دم الرجل الضاحك، وأخيراً اضطرَّ إلى سجن أفراد العصابات كلهم داخل ضريح عميق لكنّه جميل الزخرفة. وبين وقت وآخر كانوا يهربون ويُسببوا بعض الإزعاج، لكنّه

لم يعمد إلى قتلهم. (كان في شخصيّة الرجل الضاحك جانب عطوف دفعني إلى حافة الجنون)

سرعان ما أصبح الرجل الضاحك يجتاز الحدود الصينيّة بانتظام ويذهب إلى باريس، في فرنسا، ليستعرض عبقريته العالية ولكن المتواضعة أمام مارسيل دوفارج، التحرّي الخاصّ صاحب الشهرة العالميّة والسلوك الذكي. وأصبح دوفارج وابنته (الفتاة الراقية ولكنها أحياناً تتصرّف كالرجال) العدوّين اللدودين للرجل الضاحك. وحاولا مراراً أنْ يأخذا الرجل الضاحك على درب الحديقة، من باب ممارسة بعض الرياضة. وفي المعتاد كان يُرافقهما الرجل الضاحك حتى منتصف الطريق ومن ثم يختفي، وكثيراً ما كان لا يترك أي دليل موثوق إلى أسلوبه في الهرب. ولكن بين حين وآخر كان يترك رسالة وداع قصيرة وواضحة في نظام مجاري باريس، وسرعان ما تصل إلى حذاء دوفارج ذي الرقبة العالية. وكان الثنائي دوفارج يقضيان وقتاً طويلاً جداً في الخوض في مجاري الصرف الصحي في باريس.

وسرعان ما جمع الرجل الضاحك أكبر ثروة شخصية في العالم. تبرّعَ بمعظمها مع إغفال اسمه لرهبان دير محليّ - وهم متقشفون متواضعون كرّسوا حياتهم لتربية كلاب البوليس الألمانيّ. وما تبقّى من الثروة اشترى به أحجاراً كريمة، أسقطها بتصرّف اعتيادي، عبر سراديب من الزمرد إلى البحر الأسود. كانت حاجاته الخاصة قليلة. وكان يقتات حصراً على الأرز وعلى دماء النسور، في كوخ صغير بجوار صالة ألعاب رياضيّة تحت أرضيّة ومضمار للرمي، يقع على شاطئ التيبت العاصفة. وكان يُقيم معه أربعة شركاء مخلصين إخلاصاً أعمى: ذئب غابة فطريّ اسمه بلاك وينغ، وقزم محبوب اسمه أومبا، ومونغوليّ عملاق اسمه هونغ أحرقَ الرجال البيض لسانه، وفتاة أوراسيّة[1] رائعة الجمال، كانت أحياناً، بدافع من حبّها من طرف واحد للرجل الضاحك، تتخذ موقفاً بغيضاً جداً من الجريمة. وكان الرجل الضاحك يُصدر أوامره للمجموعة من خلال شاشة من الحرير الأسود. ولم يكن يُسمح حتى لأومبا، القزم المحبوب برؤية وجهه.

1- أوراسيّة: من أب أوروبيّ وأم آسيويّة.، أو بالعكس. - المترجم

أنا لا أقول إنَّني سوف أستمر في السرد على امتداد ساعات طوال، ولكن في استطاعتي أنْ أفعل ذلك وأرافق القارئ -عنوة، إذا تطلَّبَ الأمر- جيئة وذهاباً متنقلاً بين الحدود الصينيّة والباريسيّة. ويتصادف أنني أعتبر الرجل الضاحك أحد أسلافي المُميّزين جداً - على غرار، على سبيل المثال، القائد روبرت إ. لي، بما يُنسَب إليه من فضائل عبر صِلِة القُربى أو صِلة الدم. وهذا الوهم عادي إذا ما قورن بالوهم الذي انتابني في عام 1928، عندما اعتبرتُ نفسي ليس فقط سليل الرجل الضاحك المُباشَر بل السليل الشرعي الوحيد. فأنا لم أكنْ حتى ابن أبويّ في عام 1928 بل مجرد دجّال رقيق بصورة شيطانيّة، أنتظر أنْ يرتكبا أقلّ خطأ لأتخذه ذريعة للقيام بخطوة -ويُفضّل أنْ لا تكون عنيفة، لكن هذا ليس بالضرورة- لأبرهن على هويتي الحقيقيّة. واتّقاءً لتحطيم قلب أمي الزائفة، قرّرتُ أنْ آخذها إلى عالمي السفليّ من أجل القيام بعمل غير مُحدَّد ولكنه لائق بصورة مُناسبة. لكنَّ الأمر الأساسي الذي كان عليّ أنْ أفعله في عام 1928 هو أنْ أنتبه إلى تصرفاتي. أنْ أشترك في المهزلة. أنْ أنظّف أسناني. وأمشّط شعري. وأخنق ضحكي الطبيعيّ الشنيع، بأي ثمن.

في الواقع، لم أكن السليل الحيّ الوحيد للرجل الضاحك. كان هناك خمسة وعشرون من الكومانشي في النادي، أو خمسة وعشرون من السلالة الحيّة للرجل الضاحك - وكلنا ننتشر بصورة مشؤومة، وبأسماء مُستعارة، في أرجاء المدينة كلّها، ونقيِّم عمّال تشغيل المصاعد لعلّهم يكونون أعداء مُحتملين، نهمس مُصدرين أوامر خافتة ولكنها سلسة في الآذان المرتخية للكلاب، ونمسح حبّات العرق عن جبين أساتذة مادة الحساب. ودائماً ننتظر، ننتظر حلول فرصة لائقة لتوجيه ضربة للرعب وللإعجاب في أقرب قلب عادي.

***

بعد ظهيرة أحد أيام شهر شباط، بُعيد افتتاح موسم مباريات البيسبول للكومانشي، لاحظتُ وجود غرض جديد في حافلة الزعيم. فوق مرآة النظر إلى المشهد الخلفيّ وحاجب الريح، كانت هناك صورة فوتوغرافيّة صغيرة، داخل إطار تبيِّن فتاة ترتدي ثوباً مدرسيّاً وتضع قلنسوة. وبدا لي أنَّ

صورة لفتاة تتعارض بشدّة مع الزخرفة العامة ذات الطابع الذكوري للحافلة، فسألتُ الزعيم بغباء عن الفتاة. في أول الأمر تلكّأ في الإجابة، لكنّه في نهاية الأمر اعترفَ بأنها فتاة. فسألته عن اسمها، فأجاب بعد تردّد، «اسمها ميري هدسن»، فسألته إنْ كانت ممثلة سينمائيّة أو ما شابه. فقال كلا، لكنها تدرس في جامعة ويلزلي، ثم أضاف، بعد فترة تأمّل بطيئة، أنَّ جامعة ويلزلي ذات مستوى راقٍ جداً. فسألته عن سبب تعليقه صورتها في الحافلة، فهز قليلاً كتفيه استخفافاً، كأنما، كما بدا لي، لكي يقول ضمناً إنَّ الصورة فُرِضَتْ عليه بصورة أو بأخرى.

خلال الأسبوعين التاليين، بقيَت الصورة مُعلّقة في الحافلة – سواء أكانت فُرِضَتْ على الزعيم عنوة أم مُصادفة. لم تكن تتلاءم مع ورق لفّ حلوى روبي روث ولا مع سكاكر عرق السوس الساقطة. لكننا نحن الكومانشي تعوّدنا على وجودها. أصبحتْ بالتدريج تُشكّل جزءاً من الطابع غير الجذّاب لعدّاد السرعة.

ولكن ذات يوم كنا في طريقنا إلى المتنزه، فأوقف الزعيم الحافلة على رصيف الجادة الخامسة في حقبة الستينيات، بعد موقع ملعب البيسبول الخاص بنا بنصف ميل كامل. وفي الحال طلب حوالي عشرين من سائقي السيارات الأدنى مرتبة تفسيراً، لكن الزعيم لم يُقدِّم أي تفسير، وجلس ببساطة في موقع سرد الحكاية وانطلقَ قبل الأوان في البدء بجزء جديد من «الرجل الضاحك». ولكن ما إنْ بدأ حتى قرع أحدهم على باب الحافلة. في ذلك اليوم كانت ردود أفعال الزعيم سريعة جداً، فاستدار بحركة سريعة بالمعنى الحرفيّ للكلمة وهو على كرسيه، وشدّ على مقبض الباب، وارتقت فتاة ترتدي معطفاً من جلد القندس الحافلة ودخلتْ.

بالمناسبة، أتذكّر أنني رأيتُ في حياتي كلها ثلاث فتيات لفتن انتباهي في الحال بجمالهن الخلّاب. إحداهن كانت نحيلة ترتدي ثوب استحمام أسود اللون واجهتْ مشقّة في رفع مظلّة برتقاليّة اللون على شاطئ جونز في حوالي عام 1936. والثانية كانت على متن سفينة رحلة في البحر الكاريبيّ في عام 1939، رمتْ ولاعة سجائرها على أحد الدلافين. والثالثة كانت فتاة الزعيم، ميري هدسن.

سألتِ الزعيم، مبتسمة، «هل تأخرتُ كثيراً؟»

كان في وسعها أيضاً أنْ تسأله بنبرة الصوت نفسها إنْ كانت قبيحة.

قال الزعيم «كلا!». ونظر، بشيء من العنف إلى أفراد الكومانشي القريبين من مقعده وأشار إلى الجالسين في الصف الأول أنْ يُفسحوا الطريق. وجلستْ ميري هدسن بيني وبين فتى اسمه إدغار ولا أتذكّر كنيته، كان صديق عمّه الحميم مُهرّباً. وأفسحنا لها أكبر قدر ممكن من الحيِّز، وانطلقت الحافلة بتمايُل غريب، جدير بسائق هاوٍ. وخيَّم الصمت على أفراد الكومانشي كلهم.

في طريق العودة إلى موقع توقفنا المعتاد، مالت ميري هدسن إلى الأمام وهي على كرسيها وأخذتْ تحكي للزعيم بحماس عن القطارات التي أخفقتْ في اللحاق بها وعن القطار الذي لحقتْ به. كانت تعيش في دوغلاستون، في لونغ أيلند. وبدا التوتّر الشديد جليّاً على الرئيس، فهو لم يفشل فقط في أنْ يُساهم في أي قدر من الكلام، بل لم يكن يُصغي إلى كلامها أيضاً. وأتذكَّر أنَّ مقبض تغيير السرعة خُلِعَ في يده.

عندما ترجّلنا من الحافلة، بقيتْ ميري هدسن تلازمنا، وأنا واثق من أنه حالما وصلنا إلى ملعب كرة البيسبول كان قد ارتسم على وجه كل فرد من الكومانشي تعبير ينم عن أنهم يعتقدون أنَّ عليها أنْ تتوجه إلى منزلها. وتتويجاً لذلك كلّه، عندما كنتُ أنا وفرد آخر من الكومانشي نقوم برمي قطعة نقديّة في الهواء لكي نُقرِّر أي الفريقين سوف يحتل الملعب أولاً، عبّرتْ ميري هدسن باشتياق حزين عن أمنيتها في الانضمام إلى المباراة. وكان الردّ على تلك الأمنية واضحاً وضوح الشمس. وما كنا نحن الكومانشي نحدّق ببساطة إليه من قبل في أنوثتها أصبحنا الآن نحملق فيه بشدّة. وبادلتنا الابتسام. كان شيئاً مُربكاً قليلاً. ثم تولّى الزعيم زمام الأمر، كاشفاً عمّا كان من قبل نزعة مُستترة جيداً إلى العجز. وانفرد بميري هدسن، بحيث أصبح بعيداً قليلاً عن مرمى سمع الكومانشي، وبدا أنّه يُخاطبها برصانة، وبعقلانيّة. وبعد مدة طويلة، قاطعته ميري هدسن، وكان صوتها مسموعاً تماماً لأفراد الكومانشي. قالتْ «ولكنّي أرغب، حقاً أرغب في اللعب!» أومأ الزعيم

برأسه موافقاً وحاول من جديد. وأومأ باتجاه قلب الملعب، الذي كان مُشبّعاً بالماء وممتلئاً بالحُفر. وانتقى مضرباً نظامياً واختبر وزنه. قالت ميري هدسن بكل وضوح «لا يهمني، لقد قطعت المسافة كلها حتى نيويورك -لكي أزور طبيب الأسنان وأشياء أخرى- وسوف ألعب». من جديد هزَّ الزعيم رأسه إيجاباً لكنّه استسلم. ومشى بحذر إلى موقع ضارب الكرة، حيث كان فريقا الكومانشي البريفز والووريرز ينتظران، ونظر إليّ. كنت قائد فريق الووريرز. وذكر اسم لاعب المركز النظامي الذي سيردّ الضربة وكان مريضاً يلزم المنزل، فاقترحَ أنْ تحلّ ميري هدسن محلّه. قلتُ إنني لست في حاجة إلى لاعب مركز. فسألني الزعيم ماذا بحقّ الجحيم أعني بقولي إنني لستُ في حاجة إلى لاعب مركز. وصعقتُ. كانت تلك المرَّة الأولى التي أسمع فيها الزعيم يلفظ كلمة فظّة. وزيادة على ذلك، شعرتُ بأنَّ ميري هدسن تبتسم لي. ولكي أشعر بالتوازن، انتقيتُ حجراً ورميته على إحدى الشجرات.

احتللنا الملعب أولاً. لم توجّه أيّة ضربة إلى مركز الملعب في الجولة الأولى. ومن موقعي على القاعدة الأولى، كنتُ ألقي نظرة خاطفة خلفي بين حين وآخر. وكلما فعلتُ ذلك، كانت ميري هدسن تلوّح بيدها بمرح. كانت ترتدي قفّاز متلقّي الكرات، حسب اختيارها العنيد. كان مشهداً شنيعاً.

ضربت ميري هدسن ضربتها التاسعة باتجاه لاعبي فريق ووريرز. وعندما أبلغتها بهذا الترتيب، تجهّمتْ قليلاً وقالتْ «حسن، أسرع، إذن». وفي الحقيقة بدا أننا نسرع. وقامت بضرب الكرة في الجولة الأولى. ونزعت معطفها المصنوع من جلد القندس -وخلعت قفّاز المتلقّي- من أجل المناسبة وتقدّمت إلى الملعب مرتدية ثوباً بلون بنيّ قاتم. وعندما سدّدتُ نحوها ضربة، سألتني لِمَ كانت قويّة. وترك الزعيم موقعه كحَكَم خلف القاذف وتقدَّم بقلق. طلب من ميري هدسن أنْ تضع طرف مضربها على كتفها اليمنى بحزم. فقالت «هذا ما أفعل». وطلب منها ألّا تشدّ على المضرب بقوة، فقالت «أنا لا أفعل هذا». وطلب منها أنْ تركّز نظرها على الكرة، فقالت «سوف أفعل. ابتعد عن طريقي»، وتصدّتْ بعزم للكرة الأولى الموجّهَة نحوها وضربتها نحو رأس اللاعب الأيسر. كان أداءً موفّقاً من

لاعب بديل عاديّ، ولكن كان على ميري هدسن أنْ تؤديه ثلاث مرات – وهي واقفة.

بعد أنْ زالتْ دهشتي، ومن ثم زالت رهبتي، ومن ثم بهجتي، نظرتُ إلى الزعيم. لم يبد عليه كثيراً أنّه واقف خلف الضارب بقدر ما بدا أنّه يطفو فوقه. كان سعيداً بكل معنى الكلمة. ومن موقعها على القاعدة الثالثة لوّحتْ ميري هدسن لي بيدها. ولوحت لها بيدي بدوري. لم أتمكن من منع نفسي عن فعل ذلك، حتى لو أردتُ. بدت وهي تضع سلاحها جانباً أنها تعرف كيف تلوّح بيدها إلى شخص من القاعدة الثالثة.

خلال ما تبقّى من المباراة، كانت تقف على القاعدة كلما تصدّت لضربة. ولسببٍ ما، بدا أنّها تكره القاعدة الأولى؛ فلا شيء كان يُبقيها هناك. وثلاث مرات على الأقلّ تسلّلتْ إلى القاعدة الثانية.

كان ردّها للكرة سيئاً جداً، لكننا كنا نركض كثيراً بحيث لم نكن نلاحظ ذلك جديّاً. وأعتقد أنّه كان سيتحسّن لو أنها كانت تُلاحق الذباب بأي أداة ما عدا قفّاز القابض. لكنّها كانت ترفض نزعه. قالت إنه ظريف.

في الشهر التالي أو نحوه، لعبت البيسبول مع الكومانشي عدَّة مرات في الأسبوع (كلما كان لديها موعد مع طبيب أسنانها، كما بدا). في بعض الأيام كانت تلحق بالحافلة في الوقت المناسب، وأحياناً كانت تتأخّر، وتارة كانت تتكلّم بسرعة كبيرة في الحافلة، وأحياناً أخرى كانت تكتفي بالجلوس والتدخين سجائر هربرت تيريتون (ذات مبسم الفلّين). وعندما كنت أجلس إلى جوارها في الحافلة، كان يفوح منها عبق عطر ذكيّ.

***

في يومٍ شتائيّ من شهر نيسان، بعد إتمام رحلة الساعة الثالثة على الخط رقم 109 وأمستردام، توجّه الزعيم بحافلته الممتلئة بالركاب شرقاً في الشارع رقم 110 ومرّ روتينياً من الجادّة الخامسة. لكنَّ شَعره كان ممشّطاً ورطباً، وكان يرتدي معطفه بدل السترة الجلديّة، وخمّنت بشكلٍ عقلاني أنَّ ميري هدسن مُقرّر لها أنْ تنضم إلينا. وعندما مررنا بسرعة من طريقنا المعتاد في المتنزّه، تيقّنت من ذلك. فقد أوقفَ الرئيس الحافلة عند المنعطف في شارع السكستيز

الملائم للمناسبة. ثم، لكي يمضي الوقت بلا ألم بالنسبة إلى الكومانشي، كان يمدّ مقعده نحو الخلف ويباشر في سرد جزء آخر من «الرجل الضاحك». وأتذكّر الجزء بأدقّ تفاصيله، ويجب أنْ ألخّصه باقتضاب.

جلب مجرى الظروف الصديق الحميم للرجل الضاحك، ذئب الغابات، بلاك وينغ، إلى فخّ جسديّ وفكريّ نصَبَه آل دوفارج. ولأنَّ آل دوفارج يدركان إحساس الرجل الضاحك العالي بالولاء، عَرَضا عليه منح بلاك وينغ حريته في مقابل حرّيته هو. ووافق الرجل الضاحك بكل ما في استطاعته من ثقة بهذه الشروط. (كان بعض من آليات عبقريته الثانويّة مُعرَّضة لحالات انهيار صغيرة غامضة) وتمَّ الإعداد للقاء الرجل الضاحك بآل دوفارج في منتصف الليل في موقع معيَّن من الغابة الكثيفة التي تُحيط بباريس، وهناك، تحت ضوء القمر، تقرَّر أنْ يُطلَق سراح بلاك وينغ. ولكنْ لم يكن لدى آل دوفارج نيّة إطلاق سراح بلاك وينغ الذي كانا يخشيانه ويشمئزان منه. وفي ليلة إجراء الصفقة، قاما بربط ذئب غابة بديل على أنّه بلاك وينغ، وصبغا قائمته الخلفيّة اليسرى باللون الأبيض الناصع، لكي تبدو أشبه بقائمة بلاك وينغ.

ولكن كان هناك شيئان لم يضعهما آل دوفارج في حسبانهما: هما طبيعة الرجل الضاحك العاطفيّة وتمكّنه من لغة ذئاب الغابة. وحالما سمح لابنة دوفارج بربطه إلى شجرة بأسلاك شائكة، شعر الرجل الضاحك بأنّه مطلوب منه أنْ يرفع صوته الشجيّ والجميل ويقول بضع كلمات في وداع صديقه العزيز المُفترَض. تأثَّر الذئب البديل، الواقف على مسافة بضع ياردات تحت ضوء القمر، من تمكّن الرجل الغريب من اللغة وأصغى برهة بأدب إلى نصيحة الدقيقة الأخيرة، الشخصيّة والمُحترفة، التي كان الرجل الضاحك يُلقيها على مسمعه. ولكن بعد فترة طويلة، ضاق صدر الذئب البديل وبدأ يتململ. وقام بسرعة، وبصورة بغيضة، بمقاطعة الرجل الضاحك بمعلومة هي أولاً أنَّ اسمه ليس دارك وينغ أو بلاك وينغ أو غراي ليغز أو أي من تلك الأسماء، بل إنّ اسمه أرمان، وثانياً، أنّه لم يذهب قط في حياته إلى الصين وليست لديه أدنى نيّة في الذهاب إلى هناك.

استشاط الرجل الضاحك غضباً وخلع القناع عن وجهه بلسانه ووقفَ أمام آل دوفارج بوجهه العاري تحت ضوء القمر. كان ردّ فعل الآنسة دوفارج

هو فقدانها الوعي التامّ. أما والدها فكان أوفر حظّاً. فلحُسن حظّه أنّه كان يمرّ بنوبة سعال في تلك اللحظة ولهذا فاتته عملية نزع القناع القاتلة. وبعد انتهاء نوبة السعال ورؤيته ابنته متمددة على ظهرها على الأرض المغمورة بضوء القمر، فكّر دوفارج قليلاً، وهو يُظلّل عينيه بيده، وأطلق كامل محتوى مسدسه الأوتوماتيك باتجاه تنفّس الرجل الضاحك الثقيل.

وهنا انتهى هذا الجزء من القصّة.

أخرج الزعيم قلمه الحبر من جيب ساعة يده، ونظر فيها، ثم التفتَ إلى الخلف وهو على كرسيه وأدار مُحرّك الحافلة. تقضّيت الوقت على ساعة يدي. كان يقترب من الساعة الرابعة والنصف. ومع انطلاق الحافلة، سألتُ الرئيس ألا يريد أنْ ينتظر ميري هدسن، فلم يُجبني. وقبل أنْ أتمكن من تكرار سؤالي، أمال رأسه إلى الخلف ووجّه كلامه إلينا جميعاً: «فلنلزم الهدوء في هذه الحافلة اللعينة». كان النظام في الأساس بلا معنى، إنْ كان أي شيء آخر. كان الهدوء يسود الحافلة حينئذٍ، وكذلك ساد قبلاً. والجميع كانوا يفكرون في النقطة التي توقف عندها الرجل الضاحك. وكنا قد توقفنا منذ أمد طويل عن القلق بشأنه -كانت ثقتنا به هائلة في هذا المجال- لكننا لم نكفّ قط عن قبول أشدّ لحظاته خطورة.

في الجولة الثالثة أو الرابعة من مباراتنا في ذلك اليوم لمحتُ ميري هدسن من القاعدة الأولى. كانت جالسة على المقعد على مسافة مائة ياردة إلى يساري، محصورة بين مربيتَي أطفال ومع كل منهما عربة أطفال. كانت ترتدي معطف جلد القندس، وكانت تدخّن، وبدا أنها تنظر في اتّجاه مباراتنا. وفرحت لاكتشافي هذا وهتفتُ بهذه المعلومة للزعيم، الواقف خلف الضارب. فهرع نحوي، ليس ركضاً بالضبط. سألني، «أين؟»، فأشرتُ له من جديد. حدّقَ برهة إلى الاتجاه الصحيح، ثم قال إنّه سيعود بعد قليل وغادر الملعب. غادر ببطء، فاتحاً معطفه وواضعاً يديه في جيبيّ البنطلون الجانبيين. وجلستُ على القاعدة الأولى ورحتُ أراقب. ومع بلوغ الرئيس مكان ميري هدسن، كان قد ثبّتَ من جديد أزرار معطفه وترك يديه تتدليان إلى جنبيه.

توقف فوقها مدة خمس دقائق، من الواضح أنّه كان يتحدث معها. ثم نهضتْ ميري هدسن واقفة، وسار الاثنان باتجاه ملعب البيسبول. في أثناء سيرهما لم يتحدثا، أو يتبادلا النظرات. وعندما وصلا إلى الملعب، اتّخذ الرئيس موقعه خلف الضارب. وهتفتُ نحوه «ألنْ تلعب؟»، فطلبَ مني أنْ أحمي كيسي. فحميتُ كيسي وراقبتُ ميري هدسن. مشتْ ببطء خلف الموقع ويداها في جيبَي معطف جلد القندس، وأخيراً جلستْ على مقعد اللاعبين الجالسين في غير أماكنهم خلف القاعدة الثالثة. وأشعلتْ سيجارة أخرى ووضعتْ ساقاً فوق ساق.

عندما حان وقت فريق الووريرز في تسديد الضربة، اقتربتُ من مكان جلوسها وسألتها إنْ كانت ترغب في اللعب في الملعب الأيسر. هزّتْ رأسها نفياً. وسألتها إنْ كانت مُصابة بالبرد، فهزّتْ رأسها نفياً من جديد. فقلتُ لها إنّه ليس هناك مَنْ أعرفه في الملعب الأيسر. قلتُ لها إنَّ هناك شاباً يلعب في الملعب المركزي وفي الملعب الأيسر. ولم أتلقَّ أي ردّ على تلك المعلومات. ورميتُ أول قفّاز أحظى به للعبة البيسبول في الهواء وحاولتُ أنْ أجعله يستقرّ على رأسي، لكنّه سقط في بركة من الوحل. فمسحته ببنطلوني وسألتُ ميري هدسن إنْ كانت تقبل المجيء إلى منزلي لتناول وجبة العشاء في وقتٍ ما. قلتُ لها إنَّ الزعيم يأتي إلينا كثيراً، فقالت «دعني وشأني. أرجوك دعني وشأني». حدّقتُ إليها ثم مشيتُ في اتجاه مقعد لاعبي فريق الووريرز، وأخرجتُ ثمرة يوسفي من جيبي ورميتها في الهواء. وفي منتصف المسافة على امتداد خط القاعدة الثالثة الملتوي، استدرتُ وعدتُ أدراجي، ناظراً إلى ميري هدسن وممسكاً بثمرة اليوسفي. لم تكن لديّ أدنى فكرة عمّا يجري بين الرئيس وميري هدسن (وكنتُ لا أزال لا أعلم، إلّا بالمعنى الحدسيّ، والضئيل)، ولكن مع ذلك كنتُ شديد اليقين من أنَّ ميري هدسن خرجت عن مسار الكومانشي. كان من نوع اليقين التام، وإنْ كان مُستقلاً عن مُجمل حقائقه، الذي يمكن أنْ يجعل طريق العودة ينطوي على مخاطر أكثر من المعتاد، وارتطمتُ بقوة بعربة أطفال.

بعد جولة لعب أخرى، أصبح الضوء ضعيفاً ولا يصلح للعب. وأُعلِنتْ نهاية المباراة، وباشرنا بجمع أغراضنا. والنظرة الطويلة الأخيرة التي ألقيتها

على ميري هدسن، كانت وهي واقفة بالقرب من القاعدة الثالثة تبكي. وكان الرئيس يُمسك بكُمّ معطف جلد القندس، لكنّها ابتعدتْ عنه، وركضتْ مبتعدة عن الملعب باتجاه الممر الأسمنتيّ وتابعت الركض إلى أنْ لم يعُد في استطاعتي أنْ أراها.

لم يلحق الرئيس بها، بل وقفَ يُراقبها تختفي، ثم استدار ومشى نحو موقع الضارب ورفع مضربينا: كنا دائماً نترك المضارب لكي يقوم هو بحملها. واقتربتُ منه وسألته إنْ كان قد تشاجر مع ميري هدسن، فطلبَ مني أنْ أدسّ قميصي تحت البنطلون.

وكما يحدث دائماً، قمنا نحن الكومانشي بقطع مسافة بضع مئات من الأقدام الأخيرة التي تفصلنا عن موقع توقف الحافلة ركضاً، ونحن نهتف، ونتدافع، ويُحاول كلّ منا أنْ يضرب الآخر، وكلنا حيويّة استعداداً لسماع فصل آخر من «الرجل الضاحك». وفي أثناء التسابق على الجادّة الخامسة، أسقطَ أحدهم سترته الزائدة أو المنبوذة، لكنني تعثّرتُ بها وانبطحتُ على وجهي. وأنهيتُ قطع مسافة الاندفاع نحو الحافلة، ولكن مع وصولي لكي أجلس في منتصف الحافلة كانت أفضل المقاعد قد شُغِلَتْ. انزعجتُ مما آلتْ إليه الأمور ولكزتُ الفتى الجالس إلى يميني في أضلعه بمرفقي، ثم استدرتُ وراقبتُ الزعيم وهو يعبر نحو القاعدة الخامسة. لم يكن الظلام قد ساد بعد، لكنَّ عتمة الساعة الخامسة والربع كانت قد عمّتْ. واجتاز الزعيم الشارع رافعاً إلى أعلى ياقة معطفه، ومتأبطاً المضربين تحت ذراعه اليسرى، ومُركّزاً انتباهه على الشارع. كان شَعره الأسود، الذي مشّطه وهو رطب في وقت سابق من اليوم، قد جفّ وأخذ يتطاير في وجه الهواء. وأتذكّر أنني تمنيتُ لو أنَّ الزعيم يضع قفّازاً.

عندما ارتقى الحافلة كان الهدوء، كالمعتاد، يسود المكان – هدوء نسبيّ، على أيّ حال، كما تُخفت أضواء المسرح، وتُختَم الأحاديث بهمس سريع أو تسكت تماماً. ومع ذلك، فإنَّ أول ما قاله الزعيم لنا هو «حسن، فلنُنه الضجيج، وإلّا لن نحكي القصة». وفي الحال، عمّ الحافلة صمت غير مشروط، بحيث لم يعُد لدى الزعيم من بديل غير أنْ يتّخذ جلسة الراوي. وعندما فعل ذلك، أخرج منديلاً وتمخّط بانتظام، مرَّة من كل منخر. راقبناه

بصبر وأيضاً بقدرٍ معيَّن من اهتمام المُراقب. وبعد أنْ انتهى من استخدام منديله، طواه بأناقة بشكلٍ رباعيّ وأعاده إلى جيبه. ومن ثم أخذ يسرد علينا الجزء الجديد من «الرجل الضاحك». ولم يستغرق من البداية وحتى النهاية أكثر من خمس دقائق.

أُصيبَ الرجل الضاحك بأربع طلقات رصاص من دوفارج، اثنتان منها اخترقتا القلب. وعندما سمع دوفارج، الذي كان لا يزال يُظلل عينيه اتّقاءً لمشهد وجه الرجل الضاحك، زفيراً غريباً ينمّ عن ألم من جهة الهدف، وغمره الفرح. خفقَ قلبه الأسود بعنف، واندفع نحو ابنته الغائبة عن الوعي وأعاده إليها. وتجرّأ الاثنان، المُضطربان من فرط البهجة وشجاعة الجبان، على رفع بصريهما إلى الرجل الضاحك. كان رأسه منحنياً كأنّه ميّت، وذقنه مُستقرة على صدره المُلطّخ بالدماء. وببطء، ولهفة، تقدّم الأب والابنة ليتفقّدا غنائمهما. وكانت في انتظارهما دهشة عارمة. فقد كان الرجل الضاحك أبعد ما يكون عن الموت، كان منهمكاً في القبض على عضلات بطنه بطريقة سريّة. وعندما اقترب آل دوفارج منه، رفعَ فجأة وجهه، وأطلقَ ضحكاً فظيعاً، وبكل أناقة، بل وبحساسيّة، لفظ الطلقات الأربع. كان أثر هذا العمل الغريب على الثنائي دوفارج قوياً جداً انفجر قلباهما بالمعنى الحرفيّ للكلمة، وسقطا ميّتين عند قدميّ الرجل الضاحك. (لو أنَّ ذلك الجزء من القصّة كان قصيراً، لانتهى عند ذلك الحدّ، ولاستطاع الكومانشي أنْ يعتبروا موت آل دوفارج المُفاجئ أمراً معقولاً. لكنَّ الجزء لم ينته عند ذلك الحد). ومع مرور الأيام، استمرّ الرجل الضاحك في البقاء مربوطاً إلى الشجرة بأسلاك شائكة، وجثّتا الثنائي دوفارج تتحلّلان عند قدميه. كان ينزف بغزارة ونفد منه مخزون دماء النسور، وأصبح شديد القُرب من الموت. ولكن ذات يوم، بدأ يصرخ بصوت خشن، ولكنْ سلس، طالباً العون من حيوانات الغابة. استدعاها لكي تُحضِر أومبا، القزم المحبوب. ففعلتْ. لكنَّ رحلة الانتقال جيئة وذهاباً بين الحدود الصينيّة – الباريسيّة كانت طويلة، ومع وصول أومبا إلى مكان الحدث حاملاً حقيبة المعدّات الطبيّة وكميّة من دماء النسور، كان الرجل الضاحك قد دخل في حالة غيبوبة. وكان أول عمل يدل على الرحمة قام به أومبا هو استعادة قناع سيده، الذي كان قد قفز وضرب جذع الآنسة

دوفارج الذي يعجّ بالهوام. ووضعه باحترام على قسمات الوجه الشنيعة، ثم بدأ يضمد الجراح.

عندما فتح الرجل الضاحك عينيه الصغيرتين أخيراً، رفع أومبا زجاجة دماء النسور وقرّبها من القناع. لكنَّ الرجل الضاحك لم يشرب منها، وبدل ذلك نطقَ بصوتٍ واهن اسم محبوبه بلاك وينغ.

أحنى أومبا رأسه المُشوَّه قليلاً وبيَّنَ لسيده أنَّ الثنائي دوفارج قتلا بلاك وينغ. فصدرتْ عن الرجل الضاحك شهقة حزن ختامي غريبة وتعصر القلب. ومدَّ يده بوهن إلى زجاجة دم النسور وسحقها بيده. والكمية القليلة المتبقيّة من الدم تركها تسيل بخط رفيع من رسغه. وأمر أومبا أنْ يُشيح ببصره بعيداً، فأطاعه أومبا وهو يجهش بالبكاء. وآخر ما فعله الرجل الضاحك، قبل أنْ يُدير وجهه نحو الأرض الملوّثة بالدماء، هو أنّه خلع القناع عن وجهه.

طبعاً، القصة انتهت عند ذلك الحد. (ولن تعود إلى الحياة)، وأدار الرئيس مُحرّك الحافلة. وعلى الجانب الآخر من الممر الفاصل بين المقاعد انفجر بيلي والش، أصغر الكومانشي سناً في البكاء. لم يطلب أحدٌ منا منه أنْ يسكت. أما أنا، فأتذكر أنَّ رُكبتيّ كانتا ترتعشان.

بعد مرور بضع دقائق، عندما ترجّلتُ من حافلة الرئيس، كان أول ما تصادفَ أنْ رأيت هو قطعة من منديل ورق حمراء اللون ترفرف في وجه الريح عند قاعدة عمود نور، بدتْ أشبه بقناع شخص ما مصنوعة من ورقة نبات الخشخاش. وصلتُ إلى المنزل وأسناني تصطك بشكل عجزتُ عن السيطرة عليه وطُلِبَ مني أنْ آوي إلى السرير في الحال.

في القارب

كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة بقليل من بعد ظهيرة يوم صيفيّ شديد الحرارة. وكانت ساندرا، الخادمة، قد ابتعدتْ عن النافذة المُطلّة على البحيرة في المطبخ حوالي خمس عشرة أو عشرين مرَّة منذ حلول الظهيرة وفمها مزموم. وهذه المرّة عندما ابتعدتْ راحت تربط شريط مئزرها وتحلّه بشرود، لترفع الجزء القليل المرتخي الذي سمح به محيط خصرها الهائل. ثم عادتْ إلى الطاولة ذات السطح اللامع وأخفضَتْ جسمها الذي ارتدى الزيّ الرسمي حديثاً لتجلس قبالة السيدة سنيل. وبما أنَّ السيدة سنيل كانت قد انتهتْ من أعمال التنظيف والكيّ جلستْ لتشرب كوب الشاي المعتاد قبل أنْ تنزل إلى الشارع وتتوجه إلى موقف الحافلة. كانت السيدة سنيل تعتمر قبّعتها. كانت القطعة الوحيدة من اللباد الأسود نفسها، المُثيرة للانتباه التي تغطي بها رأسها، ليس فقط طوال فصل الصيف، بل طوال فصول الصيف الثلاثة الأخيرة - خلال موجات الحرّ القياسيّة، وخلال تغيّرات أحوال الحياة، وهي تميل فوق عدد كبير من ألواح الكيّ، ومقابض العديد من المكانس الكهربائيّة. كانت العلامة التجاريّة هاتي مارنيجي لا تزال داخل تلك القبعة، باهتة اللون ولكن (يمكن القول) غير مُجعّدة.

أعلنتْ ساندرا للمرة الخامسة أو السادسة، مُخاطبة نفسها بقدر ما كانت تخاطب السيدة سنيل، «لن أقلق بشأنه. قرّرتُ ألّا أقلق بشأنه. ولِمَ أفعل؟»

قالت السيدة سنيل «هذا صحيح. أنا أيضاً لن أقلق لو كنتُ مكانك. لن أقلق حقاً. ناوليني حقيبة يدي، يا عزيزتي»

كانت هناك حقيبة يد من الجلد، متهرّئة بكل معنى الكلمة، تحمل داخلها

علامتها التجاريّة المُثيرة للاهتمام كتلك الموجودة داخل قبعة السيدة سنيل، مُلقاة على خزانة المؤن. كان في وسع ساندرا أنْ تصل إليها من دون أنْ تنهض. وناولتها عبر الطاولة للسيدة سنيل التي فتحتها وأخرجتْ منها علبة من سجائر مُنكّهة بطعم النعناع وعليها عيدان كبريت تنتمي لنادي ستورك.

أشعلت السيدة سنيل سيجارة، ثم رفعت فنجان الشاي إلى شفتيها، لكنّها أعادته في الحال إلى طبقه. «إذا لم يبرد هذا بسرعة فسوف تفوتني الحافلة»، ونظرتْ إلى ساندرا، التي كانت تُحدِّق بضيق إلى الاتّجاه العامّ لمجموعة المقالي النحاسيّة المصفوفة على الجدار. قالت السيدة سنيل «كفاكِ قلقاً حول الأمر. ما فائدة القلق بشأنه؟ فإمّا أنْ يُخبرها أو لا يُخبرها. هذا كل شيء. فما فائدة القلق؟»

ردّتْ ساندرا «أنا لا أقلق بشأنه. إنَّ آخر ما سأفعله هو أنْ أقلق بشأنه. كل ما في الأمر، أنّ أسلوب ذلك الصبي في السير خلسة في أرجاء المنزل يُثير جنوني. حتى إنكِ لا تسمعينه. أعني، لا أحد يسمعه، في الواقع. ومؤخّراً كنتُ أنزع حبّات اللوبياء على هذه الطاولة – وكدتُ أدوس على يده. كان جالساً تحت الطاولة مباشرة.

«في الواقع، لو كنتُ مكانك لما قلقت»

قالت ساندرا «أعني يجب أنْ تزني كل كلمة تنطقينها في حضوره. وهذا يثير الجنون»

قالت السيدة سنيل «ومع ذلك ما زلتُ لا أستوعب هذا... أمرٌ فظيع أنْ تضطري إلى وزن كل كلمة تقولينها»

«شيء يُثير الجنون! حقاً. إنني شبه مجنونة في معظم الوقت». نفضَتْ ساندرا فُتاتاً وهمياً عن حِجرها، ونخرت قائلة «وهو مجرد صبي في الرابعة من عمره!»

قالت السيدة ستيل «وصبي وسيم، ذو عينين بنّيتين كبيرتين»

من جديد نخرت ساندرا. «سوف يصبح له أنف كأنف والده»، ورفعتْ كوبها وشربت منه من دون أنْ تواجه أيّة صعوبة. قالت بانزعاج وهي تُنزِل كوبها، «لا أعلم لِمَ يرغبان في المكوث هنا طوال شهر تشرين الأول. أعني

أنَّ لا أحد منهما يقترب من الماء. هي لا تخوض بعيداً في الماء، وهو لا يبتعد كثيراً داخل الماء، الصبي لا يذهب بعيداً. لا أحد يبتعد داخل الماء. لم يعُدْ أيٌّ منهما يستقل ذلك القارب الجنونيّ، ولا أعلم لِمَ يُبددان كل ذلك المال عليه.

«لا أعلم كيف تطيقين شرب مشروبك. أنا لا أستطيع أنْ أشرب مشروبي»

حدّقتْ ساندرا بحقد إلى الجدار المُقابل. «سوف يُسعدني أنْ أعود إلى المدينة. أنا لا أمزح؛ إنني لا أطيق هذا المكان الجنونيّ»، ورمت السيدة سنيل بنظرة عِدائيّة سريعة. «إنَّ الوضع جيد بالنسبة إليك، وتُقيمين هنا على مدار العام، ولديك حياة اجتماعيّة كاملة. ولا تأبهين بأي شيء»

قالت السيدة سنيل وهي تنظر إلى ساعة الجدار المُعلّقة فوق المدفأة، «سوف أشرب هذا حتى إنْ كان سيتسبب في موتي».

سألتها ساندرا على عجل «ماذا يمكن أنْ تفعلي لو كنتِ في مكاني؟ أعني، ماذا ستفعلين؟ قولي الحقيقة»

***

فُتِحَ الباب الهزّاز من غرفة الطعام ودخلت منه بوو بوو تانينبوم، سيدة المنزل، إلى المطبخ. كانت ضئيلة الحجم، كأنَّها فتاة في الخامسة والعشرين ليس لديها وركان، ذات شَعر هشّ، بلا لون ولا تصفيفة خاصة، دفعته خلف أُذنيها الكبيرتين جداً. كانت ترتدي بنطلون جينز يصل طوله حتى الرُكبتين، وسترة صوفيّة سوداء بياقة مرتفعة، وجورباً وحذاءً خفيفاً. وبغضّ النظر عن اسمها المُضحِك، وعن افتقارها التامّ للجمال، كانت -من ناحية الوجوه التي تنتمي إلى منطقة صغيرة، وتبقى في الذاكرة دائماً، وذات بصيرة ثاقبة- فتاة مُذهلة وفريدة. توجّهت مباشرة إلى البرّاد وفتحته. وبعد أنْ ألقت نظرة متفحّصة داخله، صفَّرتْ، بلا نغم، من بين أسنانها، مُحافظة على الإيقاع مع حركة مؤخرتها المُنتظمة القصيرة المُتواصلة. كانت ساندرا والسيدة سنيل صامتتين. وأطفأت السيدة سنيل سيجارتها، بلا استعجال.

«ساندرا...»

«نعم، يا سيدتي؟ «ونظرتْ ساندرا بانتباه خلف قبعة السيدة سنيل.

«أليس هناك المزيد من المُخلّل؟ أريد أنْ أُحضِر له مُخلّلاً»

أخبرتها ساندرا بذكاء «لقد أكله. أكله قبل أنْ يأوي إلى السرير ليلة أمس. لم يكن قد تبقّى إلّا قطعتان»

«أوه. لا بأس، سوف أُحضِر بعضاً منه عندما أذهب إلى المحطة. حسبتُ أنَّ في استطاعتي أنْ أُبعده عن ذلك القارب». أغلقتْ بوو بوو باب البرّاد وتقدّمت لتنظر من تلك النافذة المُطلّة على واجهة البحيرة. سألتها، من موقعها عند النافذة، «هل نحتاج إلى أي شيء آخر؟»

«نحتاج فقط إلى الخبز»

«تركتُ لك الشيك على طاولة الرواق، يا سيدة سنيل. شكراً لك»

قالت السيدة سنيل «حسن. لقد سمعتُ أنّه من المُفترَض بليونيل أنْ يهرب»، وأطلقت ضحكة قصيرة.

قالت بوو بوو «هذا ما يبدو حتماً»، وأدخلتْ يديها في جيبيها الجانبيين.

قالت السيدة سنيل، وهي تضحك ضحكة قصيرة أخرى، «على الأقلّ لن يهرب إلى مكان بعيد»

عند النافذة، غيّرتْ بوو بوو وضعيتها قليلاً بحيث لم يعُد ظهرها يواجه مباشرة المرأتين الجالستين عند الطاولة. قالتْ «كلا»، ودفعت بعضاً من شعرها خلف أُذنيها. وأضافتْ، بلهجة مُثقّفة صرفة «إنّه يتنقّل بانتظام منذ أنْ كانَ في الثانية. لكنّه لا يُرهق نفسه أبداً. وأعتقد أنَّ أبعد مسافة قطعها -داخل نطاق المدينة، على أيّة حال- كانت حتى مُجمَّع التسوّق في سنترال بارك. وهو قريب من المنزل. وأقصر مسافة قطعها -أو أقرب مكان- وصل إليه كان الباب الأمامي من المبنى الذي نُقيم فيه. ومكثَ لكي يودّع والده»

ضحكت المرأتان الجالستان عند الطاولة.

قالت ساندرا بودّ شديد للسيدة سنيل، «في نيويورك الجميع يذهبون إلى مُجمَّع التسوُّق لكي يمارسوا التزلج، الأطفال وكل الناس»

قالت السيدة سنيل «أوه!»

قالت بوو بوو وهي تُخرِج علبة السجائر وعلبة الكبريت من جيب بنطلون الجينز الجانبيّ، «لم يكن قد تجاوز الثالثة من العمر. وقد حدث ذلك

في العام الفائت». وأشعلتْ سيجارة، بينما كانت المرأتان تُراقبانها بحيويّة. «كان حَدَثاً مثيراً جداً. واستدعينا كامل رجال الشرطة لكي يبحثوا عنه»

قالت السيدة سنيل «وهل عثروا عليه؟»

قالت ساندرا بامتعاض، «طبعاً عثروا عليه! ماذا تعتقدين؟»

«عثروا عليه عند الساعة الحادية عشرة والربع ليلاً، في منتصف -يا إلهي، منتصف شهر شباط، في اعتقادي. لم يكن في المتنزه أي طفل. كان هناك فقط أشخاص مشبوهون، وتشكيلة من الفاسقين المتسكعين. كان جالساً على أرضيّة الفرقة الموسيقيّة، يُدحرج كلّة جيئة وذهاباً على طول شق. كاد يموت من التجمّد وبدا-»

قالت السيدة سنيل «يا إلهي! كيف فعل ذلك؟ أعني ممَّ كان يهرب؟»

نفختْ بوو بوو حلقة واحدة غير منتظمة من الدخان على لوح الزجاج. «بعد ظهيرة ذلك اليوم جاء إليه طفل في المتنزّه حاملاً معلومات خاطئة حالمة. «رائحتك كريهة، يا ولد». على الأقلّ، هذا ما نعتقد أنّه حدث. لا أعلم، يا سيدة سنيل. إنَّ كل شيء يفوق قدرتي على الفهم»

سألت السيدة سنيل «منذ متى وهو يفعل ذلك؟ أعني، منذ كم من الوقت يفعل هذا؟»

قالت بوو بوو عنه «في عمر العامين ونصف العام اختبأ تحت مغسلة في الطابق التحتيّ لمنزلنا. في غرفة الغسيل السفليّة. وقد أخبرته ناعومي لا أذكر كنيتها -وهي صديقة مُقرّبة منه- أنَّ هناك دودة في زجاجة الترمس التي عندها. على الأقلّ، هذا كل ما استطعنا أنْ نستخلصه منه». وتنهّدتْ بوو بوو، وابتعدتْ عن النافذة وفي طرف سيجارتها كمية كبيرة من الرماد. وتوجهتْ نحو الباب - الستارة. قالت، على سبيل تحية الوداع للمرأتين، «سوف أخوض في هذا الموضوع مرة أخرى»

وضحكن.

خاطبتْ ساندرا، ولا تزال تضحك، السيدة سنيل، «ميلدريد، سوف تفوتك الحافلة إذا لم تنطلقي»

أغلقت بوو بوو الباب - الستارة خلفها.

وقفتْ على المستوى المنخفض قليلاً للمرج الأمامي لمنزلها، وشمس أواخر الظهيرة المنخفضة، المُستعرة، تضرب ظهرها. وعلى مسافة حوالي مئتي ياردة أمامها، كان ابنها ليونيل جالساً في الجزء الأمامي من قارب والده المربوط والمُجرَّد من أشرعة السارية الأساسيّة، وكان يطفو بزاوية يُمنى مثاليّة بعيداً عن الطرف النائي من رصيف المرسى. وبعده بخمسين قدماً أو نحوه، كانت أداة تزلّج على الماء ضائعة أو متروكة تطفو وقعرها نحو الأعلى، ولكن لم ترَ أيّة قوارب للتنزّه في البحيرة، شاهدت فقط من جهة مؤخر القاربِ القاربَ البخاري الخاص بالمقاطعة في طريقه إلى مرسى بحيرة ليتش. وقد وجدت بوو بوو أنّ إبقاء ليونيل في حالة تركيز ثابتة أمراً غاية في الصعوبة. وعلى الرغم من أنَّ الشمس لم تكن حارة جداً، فإنها مع ذلك كانت شديدة البريق بحيث جعلتْ أيّة صورة بعيدة جداً -لصبي، أو قارب- تبدو متموجة ومُجزّأة كصورة عصا تغمرها المياه. وبعد قليل، سمحتْ بوو بوو للصورة بالتلاشي. وقطعت السيجارة نصفين كما يفعلون في الجيش، ومن ثم انطلقت نحو مرسى القارب.

كان الشهر هو تشرين الأول، ولم تعد ألواح خشب المرسى تعكس الحرارة وتُصيب بها وجهها. وتابعت سيرها وهي تُصفِّر لحن «حبيبتي من كنتكي» من بين أسنانها. وعندما وصلتْ إلى آخر المرسى، جلست القرفصاء، ومفاصل ركبتيها تفرقع، في الزاوية الصحيحة، ونظرتْ إلى ليونيل. كان على مسافة تقلّ عن طول مجداف منها. ولم يرفع بصره إليها.

قالت بوو بوو «مرحباً، أيها الصديق. أيها القرصان. أيها الكلب القذر. ها قد عدتُ»

في الحال بدا ليونيل، أيضاً من دون أنْ يرفع بصره، كأنَّ هناك مَن استدعاه لكي يستعرض مقدرته على الإبحار. فأدار بحركة سريعة ذراع الدفّة إلى أقصى اليمين، وفي الحال شدّها إلى ناحيته. وأبقى عينيه متمركزتين حصراً على سطح القارب.

قالت بوو بوو «هذا أنا، نائب الأميرال تانينبوم. من آل غلاس. أتيتُ لكي أتفحّص البيانات»

وجاءها الردّ.

قال ليونيل «أنتِ لستِ الأميرال. أنتِ سيدة». في المعتاد كان يكسر جُمله ارتكابُ خطأ واحد على الأقلّ في التحكّم في التنفّس، بحيث إنَّ كلماته المُشدَّدة كانت تغوص في الغالب بدل أنْ تبرز. ولم تكن بوو بوو فقط تصغي إلى صوته، بل بدا كأنّها تراقب ذلك الصوت.

«مَنْ قال لك هذا؟ مَنْ قال لك إنني لستُ الأميرال؟»

أدلى ليونيل بجواب، ولكن بصوت غير مسموع.

قالتْ بوو بوو «مَنْ؟»

«أبي»

وضعتْ بوو بوو يدها اليُسرى، ولا تزال تجلس القرفصاء، بين ساقيها، ولمست من خلالهما ألواح خشب المرسى لكي تُحقق توازنها. قالتْ «والدك شخص لطيف، لكنّه ربما أكبر بحّار قليل الخبرة أعرفه. صحيح تماماً أنني عندما أكون في المرفأ أكون سيدة –هذا صحيح. ولكنَّ شغفي أولاً وأخيراً، ودائماً هو ربط–»

قال ليونيل «أنتِ لستِ أميرالاً»

«عفواً؟»

«أنتِ لستِ أميرالاً. أنتِ سيدة دائماً»

سادت برهة من الصمت. ملأها ليونيل بتغيير مسار قاربه من جديد – ممسكاً ذراع الدفّة بذراعيه. كان يرتدي بنطلوناً قصيراً باللون الكاكي وقميصاً رياضيّاً نظيفاً وأبيض وعلى صدره صورة مطبوعة، تمثّل جيروم طائر النعام وهو يعزف على آلة الكمان. وكانت بشرته مُصابة بسمرة شمس شديدة، وشعره الذي يُشبه بالضبط شعر أمّه في اللون والنوعيّة، كان متأثّراً قليلاً بأشعة الشمس عند قمّته.

قالت بوو بوو، وهي تراقبه، «كثير من الناس يعتقدون أنني لستُ أميرالاً، لمجرد أنني لا أكفّ عن الثرثرة حول هذا الموضوع». وبعد أنْ حافظتْ على توازنها، تناولتْ سيجارة وعيدان الكبريت من جيب بنطلونها الجينز الجانبي. «إنني تقريباً لم أتعرَّض لغواية مناقشة رتبتي مع الناس. خاصة مع

الصِبية الصغار الذين حتى لا ينظرون إليّ عندما أخاطبهم. كنتُ أُطرَد من الخدمة المزدهرة»، وفجأة، ومن دون أنْ تُشعِل سيجارتها، نهضَتْ واقفة، وانتصبت قامتها بصورة مبالغ فيها، ورسمتْ بإبهامها وسبّابتها في يدها اليمنى شكلاً بيضاويّاً، وشكّلتْ فمها على شكل بيضاويّ، وأصدرت – بأسلوب آلة كازو[1] الموسيقيّة – صوتاً يُشبه نفير البوق. وفي الحال رفع ليونيل بصره. في الغالب أنّه وعى أنَّ النفير كان صوتاً زائفاً، لكنّه مع ذلك بدا منتبهاً بعمق، وفغر فاه. وأصدرت بوو بوو صوت النفير –الشبيه بمزيج غريب من «الربت» و«نفير الاستيقاظ»- ثلاث مرات، بلا توقف. ومن ثم قامت، بحركة احتفاليّة، بتحيّة الموجودين على الشاطئ المقابل. وعندما عادتْ أخيراً إلى وضعيّة القرفصاء على حافة المرسى، بدا كأنها تفعل ذلك مع إحساس بندم شديد، كأنها تأثّرت بعمق بإحدى مزايا التقاليد البحريّة المُحرَّمة على العامة وعلى الصِبية الصِغار. وأخذتْ تُحدِّق برهة إلى الأفق الضيّق للبحيرة، ثم بدا كأنها تذكّرتْ أنها ليست وحدها. ألقت نظرة سريعة وقور –إلى ليونيل، الذي كان فمه ما يزال فاغراً. «ذاك كان نفير بوقٍ سريّ لا يُسمح إلّا لأصحاب رتبة الأميرال بسماعه»، وأشعلت سيجارتها، وأطفأتْ عود الثقاب بالنفخ عليه مُصدِرة بطريقة استعراضيّة دفقاً طويلاً، رفيعاً من الدخان. «إذا سمع أحدٌ بأنني سمحتُ لك بسماع ذلك النفير–» وهزّتْ رأسها سلباً. وبدأتْ تضبط زاوية نظرها إلى الأفق.

«انفخي من جديد»

«مستحيل»

«لِمَ؟»

كافحت بوو بوو لكي تقول «أولاً، هنا في الجوار الكثير من الضباط ذوي الرتب المتدنية»، وغيَّرتْ وضعيّة جلوسها، واضعة ساقاً فوق ساق، على الطريقة الهنديّة، ورفعت جوربها. قالت، بنبرة صوت عاديّة، «ولكن سأخبرك ماذا سأفعل، إذا أخبرتني أنت لماذا تهرب، فسوف أنفخ نفير كل نداء سرّي على البوق من أجلك. اتفقنا؟»

1- آلة موسيقيّة أميركيّة تشبه في تصميمها الغليون.

في الحال نظر ليونيل من جديد نحو الأسفل إلى سطح القارب. قال «كلا»

«لِمَ لا؟»

«هكذا»

«ولكن لماذا؟»

قال ليونيل «لأنني لا أريد»، وهزّ ذراع الدفّة دلالة على التوكيد.

حَمَتْ بوو بوو الجانب الأيمن من وجهها من وهج أشعة الشمس. قالت «أنت أخبرتني بأنك توقفت عن الهرب، وتحدثنا بهذا الشأن، وأخبرتني بأنك لم تعُد تهرب. ووعدتني بذلك»

أعطاها ليونيل جوابه، لكنها لم تسمعه. قالت بوو بوو «ماذا؟»

«أنا لم أعط وعداً»

«أه، نعم، أعطيتَ. أعطيت من دون أدنى شك»

استأنفَ ليونيل قيادة قاربه. قال «إذا كنتِ أميرالاً، أين أسطولك؟»

قالت بوو بوو «أسطولي. يُسعدني أنْ تسألني عنه» وبدأتْ تنزل إلى القارب.

أمرها ليونيل، ولكن ليس إلى درجة الصراخ، وبقيَ ينظر إلى أسفل، «غادري القارب! لا يُسمح لأحد بالدخول إلى هنا»

«أحقاً؟». كانت قدم بوو بوو قد لمست منحنى القارب. فتراجعتْ طائعة إلى مستوى المرسى. وعادتْ إلى وضعيّة القرفصاء الهنديّة. «ولا لأي شخص؟ ولِمَ لا؟»

كان جواب ليونيل كاملاً، لكنه، من جديد، ليس مسموعاً بدرجة كافية.

قالت بوو بوو «ماذا؟»

«لأنه لا يُسمح لهم»

أبقتْ بوو بوو عينيها مُثبّتتين على الصبي، ولم تنطق بأية كلمة على مدى دقيقة كاملة.

قالت، أخيراً، «يؤسفني أنْ أسمع هذا. وددتُ فقط أنْ أهبط إلى قاربك. أشعر بوحشة شديدة عندما أفكر فيك. إنني أشتاق إليك كثيراً. لقد مكثتُ وحدي في المنزل طوال النهار ولم أجد مَنْ أتحدث معه»

لم يُحرك ليونيل ذراع الدفّة بحركة سريعة. أخذ يتفحَّص ذرة من الخشب على مقبض الذراع. قال «يمكنك أنْ تتحدثي مع ساندرا»

قالت بوو بوو «ساندرا مشغولة. وعلى أيّة حال، لا أرغب في التحدث مع ساندرا، بل أرغب في التحدث معك. أريد أنْ أهبط إلى قاربك وأتحدث معك»

«تستطيعبن أنْ تتحدثي من مكانك»

«ماذا؟»

«تستطيعين أنْ تتحدثي من مكانك»

«كلا، لا أستطيع. المسافة كبيرة جداً. يجب أنْ أقترب»

حرّك ليونيل ذراع الدفّة بسرعة. قال «لا يُسمح لأحد بالدخول إلى هنا»

«ماذا؟»

«لا يُسمح لأحد بالدخول»

سألته بوو بوو «حسن، هلّا أخبرتني من مكانك لماذا تهرب؟ بعد أنْ وعدتني بأنكَ لن تفعل هذا بعد الآن؟»

كان هناك منظار تحت الماء على سطح القارب، بالقرب من المقدمة. وعلى سبيل إعطاء جواب، وضع ليونيل شريط تثبيت منظار تحت الماء على الرأس بين إصبعَي قدمه اليُمنى، الإصبعين الكبيرة والثانية، وبحركة مُقتضبة، ورشيقة من الساق، نقر المنظار وأسقطه عن القارب فغاص في الحال.

قالتْ بوو بوو «هذا شيء جميل، وبنّاء؛ إنّه يخصّ عمّك ويب. أوه، سوف يفرح كثيراً»، وسحبت كميّة من دخان سيجارتها. «كان يخصّ عمّك سيمور ذات يوم»

«لا يهمني»

قالت بوو بوو «هذا ما أرى. أرى أنك لا تهتم». كانت سيجارتها تستقر بزاوية معيَّنة بين إصبعيها؛ كانت قد احترقتْ بدرجة خطرة حتى اقتربت من أحد أخاديد برجمها. وفجأة شعرت بالحرّ، فتركت السيجارة تسقط إلى سطح مياه البحيرة. ثم أخرجتْ شيئاً من أحد جيبيها الجانبيين. كانت حزمة، بحجم مجموعة من أوراق اللعب، ملفوفة بورقة بيضاء ومربوطة بشريط

أخضر اللون. قالتْ، شاعرة بأنَّ نظر الصبي يرتفع نحوها، «هذه سلسلة مفاتيح. تشبه تماماً سلسلة والدك، لكنّها تضم عدداً أكبر بكثير من المفاتيح التي في سلسلة الوالد. وهذه تضم عشرة مفاتيح»

مال ليونيل إلى الأمام من حيث يجلس، تاركاً ذراع الدفّة. ومدَّ يديه في وضعيّة التلقّي. قال «هلّا أعطيتنيها؟ أرجوكِ؟»

«فليلزم كلٌ منا مقعده برهة، أيّها المُشرق. سوف أفكّر قليلاً. يجب أنْ أرمي سلسلة المفاتيح هذه في البحيرة»

حدَّقَ ليونيل نحو الأعلى إليها فاغراً فمه. ثم أغلق فمه. قال بنبرة العدالة الباتّة، «إنها تخصّني»

نظرتْ بوو بوو نحو الأسفل إليه، وهزّتْ كتفيها باستخفاف. «لا يهمّني»

عاد ليونيل إلى الجلوس ببطء على مقعده، مُراقباً أمّه، ومدَّ يده خلفاً نحو ذراع الدفّة. عكستْ عيناه إدراكاً تامّاً، كما توقّعتْ أمّه.

رمتْ بوو بوو بالحزمة إليه. «خُذ»، واستقرَّتْ مباشرة في حجره.

نظر إلى الحزمة وهي على حجره، وفتحها، ونظر إليها وهي في يده، ثم رماها -بزاوية جانبية من ذراعه- إلى البحيرة. وفي الحال رفع بصره إلى بوو بوو، بعينين ملؤهما ليس التحدّي بل الدموع. وفي اللحظة التالية، تشوّه تعبير فمه فأصبح أشبه بوضعيّة الرقم 8 بشكلٍ أفقيّ، وكان يبكي بكاءً مُرّاً.

نهضَتْ بوو بوو واقفة على قدميها بحذر شديد، كأنَّ قدمها كانت في سباتٍ عميق داخل دار للمسرح، ونزلتْ إلى القارب. وفي الحال، أصبحتْ جالسة في المقعد الأمامي، والربّان على حجرها، تهزّه وتُقبّله على خلفيّة عنقه وتمدّه ببعض المعلومات: «البحّارة لا يبكون، يا صغيري. البحّارة لا يبكون أبداً. إلّا عندما تغرق سفنهم، أو تتحطَّم، أو يجدون أنفسهم يطفون على ألواح خشبيّة، وليس لديهم ما يشربون غير-»

«ساندرا -أخبرت السيدة سنيل- أنَّ أبي يهوديّ -كبير- قذر»

أجفلتْ بوو بوو قليلاً، لكنّها أنزلت الصبي عن حجرها وأوقفته أمامها وأبعدتْ شعره عن جبينه. قالت «أهذا ما قالت؟»

هزَّ ليونيل رأسه إلى أعلى وإلى أسفل مؤكداً ذلك. واقتربَ أكثر، ولا يزال يبكي، ووقف بين ساقَي أمّه.

قالت بوو بوو، وهي تضمّه بإحكام بين ذراعيها وساقيها، «حسن، هذا الكلام فظيع جداً. لكنّه ليس أسوأ ما يمكن أنْ يحدث»، وبلطف عضَتْ طرف أذن الصبي. «أتعلم منْ هو اليهوديّ، يا صغيري؟»

كان ليونيل إمّا غير راغب أو غير قادر على الكلام في الحال. على أيّة حال، انتظرَ ريثما خفتَ النشيج قليلاً بعد البكاء. ثم أدلى بجوابه المكبوت ولكن المسموع، موجّهاً كلامه إلى عنق بوو بوو الدافئ. قال «إنّه أحد تلك الأشياء التي تنطلق في الهواء وتمسكينها من خيط مربوط بها[1]»

كان من الأفضل النظر إليه، فدفعته بوو بوو بعيداً عنها قليلاً، ثم أمسكته بعنف من مقعدة بنطلونه. أجفلَ الصبي بقوة، لكنها سحبت يدها في الحال تقريباً وقامت باحتشام بدس قميصه إلى الداخل نيابة عنه. قالت «سأخبرك ماذا سنفعل. سوف نذهب بالسيارة إلى المدينة ونشتري بعض المُخلّل، وبعض الخبز، ومن ثم سوف نذهب إلى المحطة ونُحضر البابا، ومن ثم نوصل البابا إلى المنزل ونجعله يأخذنا في جولة بالقارب. وسوف تساعده في إنزال الأشرعة. اتّفقنا؟»

قال ليونيل «اتّفقنا»

لم يعودا إلى المنزل مشياً، بل هرولة. وفاز ليونيل.

1- هنا ليونيل يختلط عليه الأمر، فهو يخلط بين كلمتَي kike و kite – الأولى هي صفة عاميّة للشخص اليهودي، بينما الثانية تعني طائرة ورقيّة. – المترجم

إلى إسمه Esme ، – مع حبي وقذارتي.

مؤخّراً، تلقّيت بالبريد الجوّي دعوة إلى حفل زفاف سوف يُقام في إنكلترا في الثامن عشر من شهر نيسان. ويتصادف أنّه حفل زفاف من النوع الذي أستطيع أنْ أدفع الكثير مقابل أنْ أحضر، وعندما وصلتني الدعوة، ظننتُ أنَّه ربما يمكنني أنْ أقوم برحلتي إلى الخارج بالطائرة، بما أنَّ تكاليف الرحلة ثابتة. على أي حال، ومنذ أنْ ناقشتُ المسألة بإسهاب مع زوجتي، صاحبة الذكاء الوقّاد، وقرّرنا إثر ذلك ألّا نذهب – لسبب واحد هو أنني كنتُ قد نسيتُ تماماً أنَّ حماتي تصبو إلى قضاء أسبوعَين معنا في شهر نيسان. في الحقيقة أنا لا أرى الأم غرينتشر كثيراً، وهي لم تعُد شابّة. إنها في الثامنة والخمسين. (وهي أول مَنْ اعترفَ بذلك). ومع هذا، أينما أذهب لا أعتقد أنني من النوع الذي لا يرفع إصبعاً واحدة لمنع حفل زفاف من الفشل. وعلى هذا الأساس، قمتُ بتدوين بضع ملاحظات سريعة موضّحة عن العروس حسب معرفتي بها قبل ذلك بحوالي ستة أعوام. فإذا أزعجتْ ملاحظاتي قليلاً العريس، الذي لم أقابله البتّة، فهذا أفضل. لا أحد يسعى إلى إسعاد أحد هنا، أو، زيادة على ذلك، إلى تثقيفه، أو إرشاده.

في شهر نيسان من عام 1944، كنتُ بين حوالي ستين أميركيّاً مُجنّدين خضعوا لدورة تدريب مختصّة قبل وقوع الغزو، بإدارة المُخابرات البريطانيّة، في ديفون، إنكلترا. والآن وأنا أستعيد تلك الذكرى، يبدو لي أننا كنا مجموعة من النوع النادر حقاً، الستون جندياً كلهم، من ناحية عدم وجود مُثيري المشاكل بيننا. كنا جميعاً في الأساس من نوع كتّاب الرسائل، وعندما كان يتكلّم أحد مع آخر يحدث ذلك بدافع أداء الواجب، كأنْ يطلب أحد بعض الحبر الذي لا يلزمه. وعندما لا نكتب الرسائل أو نحضر الدروس، ينفرد

كل منا بنفسه. بالنسبة إليّ كنتُ أقوم، في الأيام الصافية، بجولات في الريف لمشاهدة المناظر الطبيعيّة. وخلال الأيام الممطرة، كنتُ في العموم أجلس في مكان جافّ وأقرأ في كتاب، على مقربة من طاولة لعب البينغ - بونغ.

استمرّتْ دورة التدريب ثلاثة أسابيع، وانتهتْ في يوم سبت، يوم كان غزير الأمطار. وفي الساعة السابعة من تلك الليلة الأخيرة، تقرّر نقل مجموعتنا بأكملها بالقطار إلى لندن، حيث، كما أُشيع، تقرَّر أنْ نوزَّع على سلاح المُشاة والفرق المُجوقلة التي حُشِدَتْ من أجل يوم الإنزال الكبير. ومع حلول الساعة الثالثة من بعد الظهيرة، كنتُ قد حزمتُ أمتعتي في حقيبة الثكنة، بالإضافة إلى حاوية خاصة بأقنعة الغاز من قماش القنب مملوءة بالكتب التي اشتريتها من الأزر سايد. (قناع الغاز نفسه الذي كنتُ قد أسقطته من كوّة سفينة *موريتانيا* قبل ذلك بحوالي بضعة أسابيع، وأنا أعي تماماً أنّه إذا استخدم العدو الغاز فلن أتمكن من وضع ذلك الشيء اللعين في الوقت المناسب). وأتذكّر أنني وقفتُ عند نافذة بعيدة من ملجأنا العسكري ولكن لوقت طويل جداً، أطلّ منها على الأمطار الكئيبة، المنحرفة، وإصبعي التي على الزناد متلهّفة برهافة. وكان في استطاعتي أنْ أسمع من خلف ظهري الحفيف العدائيّ للعديد من أقلام الحبر على العديد من أوراق بريد النصر. ابتعدتُ عن النافذة بسرعة، من دون أي هدف أبيّته، وارتديتُ معطفي المطريّ، ولفاح الكشمير، وانتعلتُ الحذاء الواقي، والقفّاز الصوف، وقلنسوة عسكريّة (التي يقال لي حتى الآن إنني أضعها بزاوية خاصة بي - تميل أكثر قليلاً فوق كلتَي الأذنين). ثم، بعد ضبط تزامن ساعة يدي مع ساعة جدار مرحاض المعسكر، أخذتُ أهبط أسفل التل الطويل، المُبلَّط المؤدّي إلى المدينة متجاهلاً ومض البرق من حولي. فهو إمّا أنْ يحمل رقمك أو لا يحمله.

في قلب المدينة، وهو ربما الجزء الأشد رطوبة فيها، توقفتُ أمام كنيسة لكي أقرأ لوحة نشرة الأخبار، في الغالب لأنَّ الأرقام المُدوّنة، بالأبيض والأسود، لفتتِ انتباهي ولكن جزئيّاً لأنني، بعد أنْ أمضيتُ ثلاث سنوات في الجيش، أصبحتُ مُدمناً على قراءة نشرات الأخبار. وعند الساعة الثالثة وثلاث عشرة دقيقة، أعلنتْ نشرة الأخبار أنّه سيجري تدريب لجوقة

الأطفال. نظرتُ في ساعة يدي، ثم رجعتُ إلى نشرة الأحبار. فوجدتُ أنَّ ثمة ورقة ثُبِّتت، تضمّ لائحة بأسماء الأطفال المتوقع أنْ يحضروا التمرين. وقفتُ تحت المطر أقرأ الأسماء كلها، ثم ولجتُ الكنيسة.

كان يتوزع بين مقاعد الكنيسة عدد من البالغين، بعضهم كانوا يضعون في حجرهم أحذية من المطاط صغيرة الحجم، تتجه نعالها نحو الأعلى. تجاوزتهم وجلستُ في الصف الأمامي. وعلى المنبر، احتلَّ ما يُقارب العشرين طفلاً ثلاثة صفوف كاملة العدد، فتيات في معظمهم، تتراوح أعمارهم بين حوالي السابعة والثالثة عشرة. وفي تلك اللحظة، كانت قائدة جوقتهم، امرأة ضخمة الجثّة ترتدي ثوباً من الجوخ، تنصحهم بفتح أفواههم كثيراً عندما يرتّلون، وتسألهم، هل سبق لأيّ منهم أنْ سمع عن طائر صغير تجرّأ على إنشاد أغنيته الساحرة من دون أنْ يفتح أولاً منقاره الصغير واسعاً إلى أقصى مدى؟ كان جليّاً أنَّ لا أحد سمع. وتلقَّت نظرة مُبهمة، ثابتة. وتابعت قائلة إنها تريد من تلامذتها كلهم أنْ يستوعبوا معنى الكلمات التي يرتلونها، لا أنْ ينطقوها فقط، كببغاوات بلهاء. ثم عزفت نغمة على مزمار النغم، وكالعديد من رافعي الأثقال المُبتدئين، رفع الأطفال كتب تراتيلهم.

رتّلوا من دون آلات مُصاحبة - أو، بعبارة أدقّ بالنسبة إلى حالتهم، من دون أي عنصر دخيل. كانت أصواتهم شجيّة وليست عاطفيّة، إلى الدرجة التي يمكن لرجل أكثر طائفيّة بقليل مني، أنْ يختبر عندها الخفّة من دون بذل مجهود كبير. أطال اثنان من الأطفال الأصغر سناً الإيقاع قليلاً، ولكن بالطريقة التي يمكن فقط لوالدة المؤلِّف الموسيقي أنْ تكتشف فيها خطأً. ولم أكنْ قد سمعت الترتيلة قبل ذلك، لكنني ظللتُ آمل أنْ تكون واحدة تتألّف من عدد من الأبيات الشِعريّة. أخذتُ أستعرض، وأنا أُصغي، وجوه الأطفال، لكنّني توقفتُ عند واحد بعينه، وجه طفلة كان الأقربَ مني، جالسة على المقعد الأخير من الصف الأول. كانت في حوالي الثالثة عشرة، ذات شَعر أشقر - رمادي مسترسل يصل طوله حتى شحمة الأذن، وجبين متألّق، وعينين لا مباليتين من المُحتَمَل كثيراً، في اعتقادي، انهما تأملتا المكان. وكان صوتها منفصلاً بصورة واضحة عن أصوات الأطفال الآخرين، وليس فقط لأنها تجلس قريبة مني. كان الصوت يتّسِم بالمقدرة الأفضل، وأكثر

عذوبة، ودلالة على الثقة في النفس، وكان يقود مجموعة الأصوات بصورة تلقائيّة. لكنَّ المرأة الشابة، بدتْ ضجرة قليلاً من مقدرتها على الترتيل، أو ربما كانت ضجرة فقط من الوقت ومن المكان: رأيتها مرّتين، بين الأبيات الشِعريّة، تتثاءب. تثاؤب يليق بسيدة محترمة، تثاؤب بفم مُغلَق، ولكن لم يكن في الإمكان عدم ملاحظته، وفَضَحَه منخراها.

حالما انتهى الترتيل، بدأتْ قائدة الجوقة تُعطي رأيها المُطوَّل في الأشخاص الذين لم يتمكنوا من إبقاء أقدامهم ثابتة ولا شِفاههم ساكتة في أثناء موعظة القسّ. وأدركتُ أنَّ قسم الترتيل من التدريب قد انتهى، وقبل أنْ يكسر رنين صوت المُدرّبة تماماً السِحر الذي رماه ترتيل الأطفال، نهضتُ لأغادر الكنيسة.

كانت الأمطار أشدّ غزارة. مشيتُ في الشارع وأخذتُ أنظر من خلال نافذة غرفة استراحة الصليب الأحمر، لكن كان هناك جنودٌ واقفون بعمق جنديين أو ثلاثة على نضد تقديم القهوة، ولكن حتى من خلال الزجاج لم أتمكن من سماع سوى ضجيج قفز كرات البينغ - بونغ في الغرفة الأخرى. اجتزتُ الشارع ودخلتُ فرفة شرب الشاي الخاصة بالمدنيين التي كانت خالية إلّا من نادلة في منتصف عمرها، وبدتْ كأنها كانت تُفضِّل زبوناً يرتدي معطفاً مطريّاً جافاً. استخدمت منصب المعاطف برقّة متناهية، ثم جلستُ على الطاولة وأمرتُ بإحضار شاي بمذاق القرفة. وكانت تلك المرة الأولى طوال النهار التي أتحدث فيها مع أي شحص. ثم فتشتُ جيوبي كلّها، بما فيها جيوب معطفي، وأخيراً عثرتُ على رسالتين قديمتين ينبغي إعادة قراءتهما، واحدة من زوجتي، تُخبرني فيها كيف أنَّ الخدمة في مطعم شرافت في الشارع الثامن والثمانين أصبحت أسوأ، ورسالة من حماتي ترجوني فيها أنْ أرسل إليها بعضاً من قماش الكشمير حالما يتصادف أنْ أبتعد عن «المُعسكر».

بينما كنتُ لا أزال أشرب كوب الشاي الأول، كانت الفتاة الصغيرة تراقب وتُصغي لصوت الجوقة الواصل إلى غرفة شرب الشاي. كان شعرها منقوعاً بالرطوبة، وحواف أُذنيها بارزة. كان برفقتها صبيّ صغير جداً، لا ريب في أنّه أخوها، وكانت قد رفعتْ قلنسوته عن رأسه بحركة بسيطة من طرفَي

إصبعيها، وكأن القبعة عيّنة في المُختبر. ومن الخلف برزت امرأة تبدو عليها الكفاءة تعتمر قبعة مترهلة من اللباد -كأنها مربيتهما. خلعت عضو الجوقة معطفها في أثناء اجتيازها المكان، وانتقت طاولة- طاولة جيدة، من وجهة نظري، بما أنها لم تكن تبعد أكثر من ثمانية أقدام أو عشرة أمامي مباشرة. جلست هي والمربّية. أما الصبي الصغير، الذي كان في حوالي الخامسة من العمر، فلم يكن مُستعداً بعد للجلوس. خلع سترته السميكة ورماها: ثم أخذ يُزعج مُربيته بانتظام، وعلى وجهه تعبير طفل مُشاغب بالفطرة، بدفع كرسيه جيئة وذهاباً مرات عدّة، وهو يُراقب وجهها. أصدرتْ إليه المربّية بصوتٍ حرصَتْ على أنْ يبقى منخفضاً الأمر بالجلوس وأن يتوقف عن القيام بتلك الحركات العابثة، ولكن فقط عندما وجّهتْ أخته كلامها إليه عاد إلى الجلوس على كرسيه. وفي الحال رفع فوطته ووضعها على رأسه، فأزالتها أخته، وفتحتها، ونشرتها على حجره.

مع مجيء طلبهم من أكواب الشاي، لاحظتْ عضو جوقة الترتيل أنني أحدِّق إلى مجموعتها. فبادلتني التحديق بعينيها اللتين تفحّصتا بهما دار الكنيسة، ثم، وبسرعة، ابتسمتْ لي ابتسامة صغيرة، مُقتضبة. كانت مُشرقة بصورة غريبة، كما هو حال بعض الابتسامات الصغيرة المُقتضبة أحياناً. بادلتها الابتسام بقدر أقل بكثير من الإشراق، مُحافِظاً على شفتي العليا فوق حشوة الأسنان السوداء الخاصة بالجنود الظاهرة بين اثنتين من أسنانه الأماميّة. والشيء التالي الذي عرفته هو أنَّ الشابة الصغيرة كانت واقفة وِقفة تُحسَد عليها، بجوار طاولتي، ترتدي ثوباً من قماش التارتان - أعتقد أنه من صنف كامبل. وبدا لي ثوباً رائع الجمال يليق بشابة صغيرة أنْ ترتديه في يومٍ مُمطر، وغزير الأمطار. قالت «كنتُ أظنّ أنّ الأميركيين يكرهون شرب الشاي»

لم تكن تلك ملاحظة جديرة بشخص أحمق ذكي، بل بشخص مُحبّ للحقيقة أو مُحب لعلم الإحصاء. أجبتُ بأنَّ بعضاً منا لا يشربون أي شيء آخر غير الشاي. وسألتها إنْ كان لديها مانع بالانضمام إليّ.

قالت «شكراً لك. نعم ربما لفترة وجيزة»

نهضتُ واقفاً وقرّبتُ كرسيّاً لكي تجلس عليه، الكرسي الموضوع

أمامي، فجلستْ على الربع الأمامي منه، مُحافظة على عمودها الفقريّ مُستقيماً بسهولة وبجمال. رجعت -بحركة سريعة- إلى كرسيّ، متلهّفاً إلى التمسّك بأطراف حديثي. ولكن عندما جلستُ، لم يخطر في بالي أي شيء أقوله. فابتسمتُ من جديد، ولا أزال أُخفي الحشو الأسود. وعلّقتُ قائلاً إنّه كان حتماً يوماً فظيعاً.

قالت ضيفتي، بصوتٍ واضح، لا يُخطئه السمع، لشخص يكره الثرثرة، «نعم؛ فظيعاً جداً». ووضعت أصابعها بأكملها على حافة الطاولة، كأنها في جلسة تحضير أرواح، وفي الحال، تقريباً، ضمّتْ يديها معاً - كانت قد قَضَمَتْ أظافرها حتى آخرها. كانت تضع ساعة يد كأنها مقياس السرعة الذي يستخدمه البحّار، وكان وجه المقياس كبيراً جداً على رسغها النحيل. قالت بنبرة عاديّة «كنتَ تحضر تدريب جوقة الترتيل. لقد شاهدتك»

فقلت إنني كنتُ هناك حتماً، وإنني سمعتُ صوتها يُرتّل بشكل منفصل عن باقي أفراد الجوقة. وقلت إنني أرى أنَّ صوتها غاية في الجمال.

أومأت برأسها موافقة «أعلم. سوف أُصبح مغنيّة محترفة»

«أحقاً؟ مُغنية أوبرا؟»

«يا إلهي، كلا. سوف أغني ألحان الجاز عبر أثير الإذاعة وأجني الكثير من المال. ثم، مع بلوغي سن الثلاثين، سوف أتقاعد وأعيش في مزرعة في أوهايو»، ولمستْ قمّة رأسها المنقوع بالرطوبة بكامل راحة يدها. وسألتني «هل تعرف أوهايو؟»

قلت إنني مررتُ بها وأنا على متن قطار بضع مرّات لكنني لا أستطيع أنْ أقول إنني أعرفها حقاً. وقدّمتُ لها قطعة من الخبز المُحمَّص بطعم القرفة.

قالت «كلا، شكراً لك. في الواقع أنا آكل بشراهة»

قمتُ أنا بقضم قطعة من الخبز المُحمّص، وعلَّقتُ بالقول إنَّ أوهايو تكتنفها منطقة ريفيّة شاسعة ووعرة. «أعلم هذا. أخبرني بهذا أميركيٌ قابلته. وأنت الأميركي رقم أحد عشر الذي أُقابله»

عندئذٍ كانت مُربيتها تُشير إليها بإلحاح لكي تعود إلى طاولتها - في الواقع، لكي تكفّ عن إزعاج الرجل. لكنَّ ضيفتي حرّكتْ كرسيها بهدوء

مقدار بوصة أو اثنتين بحيث يكسر ظهرها كل إمكانيّة لمزيد من التواصُل مع الطاولة الأساسيّة. وسألتْ بهدوء «أنت تلتحق بمدرسة المخابرات السريّة التي هناك فوق التل، أليس كذلك؟»

وأجبتُ بحذر كما فعلت عن السؤال التالي، قلتُ إنني أقوم بزيارة ديفونشير لدواعٍ صحيّة.

قالت «إنني لستُ ساذجة إلى هذه الدرجة»

قلتُ إنني أراهن على أنها ليستْ كذلك. وانهمكتُ قليلاً بشرب الشاي. وأصبحت أعي قليلاً وضعية جلوسي فاستقمتُ أكثر في جلستي على مقعدي.

قالت ضيفتي متفكّرة «تبدو ذكيّاً جداً بالنسبة إلى شخصٍ أميركي»

قلت لها إنَّ هذا الكلام ينمّ عن عنجهيّة شديدة، إنْ فكّرتْ فيه مليّاً، وإنني آمل ألّا يكون هذا لائقاً بها.

احمرّتْ خجلاً تلقائياً ومنحتني توازناً اجتماعيّاً كنت أفتقده. «في الواقع، أنّ معظم الأميركيين الذين قابلتهم يتصرّفون كالحيوانات. فهم دائماً يتقاتلون، ويوجهون الإهانات إلى الجميع، ثم – أتعلم ماذا فعل أحدهم؟»

هززتُ رأسي نفياً.

«أحدهم رمى زجاجة ويسكي فارغة من نافذة عمتي. ولحسن الحظ، كانت النافذة مفتوحة. ولكن هل يبدو لك هذا تصرّفاً يدل على الذكاء؟»

لم يبدُ لي كذلك، لكنني لم أجهر بهذا الرأي. قلت إنَّ العديد من الجنود، في العالم أجمع، بعيدون عن أوطانهم، وإنَّ قليلاً منهم يحظون بامتيازات حقيقيّة في الحياة، وقلت إنني أعتقد أنَّ معظم الناس يعون وضعهم هذا.

قالت ضيفتي، من دون اقتناع، «ربما». ورفعتْ يدها من جديد إلى رأسها الرطب، وعبثتْ ببضع شُعيرات رخوة من شعرها الأشقر، مُحاولة أنْ تغطي حواف أذنيها المكشوفة. قالتْ «إنَّ شعري مُشبَّع بالرطوبة. عندما يكون جافاً يُصبح متموجاً جداً»

«أدركُ هذا. أدرك أنّه كذلك»

قالت «لا أقول إنّه مُجعّد، بل متموج بصورة واضحة. أأنتَ متزوج؟»

قلتُ إنني كنتُ كذلك.

أومأتْ برأسها إيجاباً. «وهل تحبّ زوجتك حبّاً جمّاً؟ أم أنني أتدخل في شؤونك الشخصيّة؟»

قلتُ إنها إنْ كانت تتدخّل فسوف أخبرها.

مدّتْ يديها ورسغيها ووضعتها على الطاولة، وأتذكّر أنني رغبتُ في فعل شيء بشأنْ ساعة اليد ذات السطح الضخم تلك التي كانت تلبسها – كأنْ أقترح ربما أنْ تُحيط بها خصرها.

قالت «في المعتاد، لا أميل كثيراً إلى الاختلاط»، ونظرتْ إليّ لترى إنْ كنتُ فهمتُ معنى كلمة اختلاط. لكنني لم أعطها أية إشارة إلى ذلك، بصورة أو بأخرى. «لقد أتيتُ إليك فقط لأنني رأيتُ أنكَ بدوت وحيداً إلى أقصى مدى. إنَّ لك وجهاً حسّاساً جداً»

قلتُ إنها على صواب، وإنني كنتُ أشعر بالوحشة، وإنني سعيد جداً لأنها انضمتْ إليّ.

قالتْ «إنني أتدرَّب على أنْ أكون متعاطفة. وتقول خالتي إنني شخص بارد جداً»، وتحسّستْ قمّة رأسها من جديد. «إنني أُقيم مع خالتي، وهي شخص عطوف إلى أقصى مدى. ومنذ وفاة أمي، وهي تقوم بكل ما في وسعها لتجعل كل من تشارلز وأنا نشعر بالتكيّف مع المجتمع»

«يُسعدني هذا»

«كانت أمي ذكيّة جداً. وشديدة الحسيّة، من أوجه عديدة»، ونظرتْ إليّ بما يشبه حِدّة الذكاء الجديدة. «هل تجدني شديدة البرودة؟»

قلتُ لها إنَّ هذا غير صحيح البتّة – وهذا عكس الحقيقة تماماً، في الحقيقة. أخبرتها عن اسمي وسألتها عن اسمها. فتردّدتْ. «اسمي إسمه Esme. ولا أعتقد أنني سوف أخبرك اسمي كاملاً، حاليّاً. ولديّ لقب ولعلك تتأثّر بالألقاب. الأميركيون يتأثّرون بها، كما تعلم»

قلتُ إنني لا أعتقد أنني سأتأثّر، لكنّها قد تكون فكرة جيّدة أنْ يتمسّك المرء باللقب بعض الوقت.

عندئذٍ بالذات، شعرتُ بالأنفاس الدافئة لشخصٍ يقف خلف ظهري. استدرتُ وكاد أنفي يرتطم بأنف أخي إسمه الأصغر. فتجاهلني، ووجّه كلامه إلى أخته بصوتٍ ثاقب عالي النبرة، «قالت الآنسة ميغلي إنَّ عليك أنْ تأتي وتُنهي شرب الشاي!». وبعد أنْ سلَّم رسالته، عاد إلى الكرسي الكائن بين أخته وبيني، إلى يميني. تأمّلته باهتمام شديد. بدا رائعاً بالبنطلون البنيّ القصير ماركة شتلند، والسترة القصيرة بلون الأزرق البحري، والقميص الأبيض، وربطة العنق المُخطّطة. بادلني التحديق بعينين بلون أخضر قاتم. سألني «لِمَ يتبادل الناس القُبل في الأفلام السينمائيّة بشكل منحرف؟»

قلت «بشكلٍ منحرف؟». تلك المشكلة كانت قد حيَّرتني في طفولتي. فقلت «أعتقد أنَّ السبب يعود إلى أنَّ أنوف الممثلين كبيرة جداً ولا تصلح لتبادُل القُبل»

قالت إسمه «اسمه تشارلز. وهو حادّ الذكاء بالنظر إلى سنّه»

«الشيء المؤكّد هو أنَّ لديه عينين خضراوين. أليس كذلك، يا تشارلز؟» رماني تشارلز بالنظرة المُرتابة التي يستحقها سؤالي، ثم تلوّى نحو الأسفل وإلى الأمام وهو على كرسيه إلى أنْ أصبح جسمه كله تحت الطاولة باستثناء رأسه، الذي تركه على مقعدة الكرسيّ، بأسلوب حركة الجسر التي يقوم بها المُصارع. وقال بصوتٍ متوتر، مُخاطباً السقف، «لونهما برتقاليّ»، ثم انتقى زاوية مفرش الطاولة وغطّى بها وجهه الصغير، الوسيم، والخالي من التعبير.

قالت إسمه «أحياناً يبدو ذكيّاً وفي أحيانٍ أخرى لا يبدو كذلك. تشارلز، اعتدل في جلستك!»

بقيَ تشارلز في الوضعيّة التي كان عليها، كأنّه يحبس أنفاسه.

«إنّه يشتاق إلى والدنا كثيراً. لقد قتِلَ في شمال إفريقيا»

عبّرتُ عن أسفي لذلك.

أومأتْ إسمه برأسها إيجاباً. «كان والدي يعبده». عضّتْ بشرة إبهامها وهي تتأمّل. «إنّه يُشبه والدتي كثيراً – أعني، تشارلز. وأنا أشبه والدي كثيراً». واستمرّتْ في عضّ بشرة إبهامها. «كانت أمي امرأة عطوفاً جداً. وكانت تعبِّر عمّا يجول في داخلها. أبي كان انطوائيّاً. لكنّهما كانا على وئامٍ تامّ، بالمعنى

السطحيّ للكلمة. وبصراحة، كان والدي في الحقيقة في حاجة إلى شريكة حياة عقلانيّة أكثر مما كانت عليه أمي. وكان عبقريّاً موهوباً إلى أقصى مدى»

انتظرتُ، بانفتاح، تلقّي المزيد من المعلومات، ولكن لم يصلني أي شيء. ثم نظرتُ إلى تشارلز الذي كان حينئذ يُريحُ جانب وجهه على مقعدة كرسيه. وعندما لاحظَ أنني أنظر إليه، أغمضَ عينيه، كالنائم، كأنّه ملاك، ثم مدَّ لي لسانه -كان طويلاً بصورة مُذهلة- وأطلقَ ما كان يمكن في بلدي أنْ يُعتبَر صيحة ثناءً فخمة على حَكَم في مباراة بيسبول حسير النظر، واهتزَّتْ في إثرها غرفة شرب الشاي.

قالتْ إسمه، التي كان واضحاً أنها لم تتأثّر بها، «كُفّ عن هذا. لقد شاهد أحد الأميركيين يفعل ذلك في أثناء وقوفه في طابور شراء البطاطا المقلية مع السمك، والآن أصبح يفعلها كلما شعر بالضجر. كُفَّ عن هذا، الآن، وإلّا أرسلتك مباشرة إلى الأنسة ميغلي»

فتح تشارلز عينيه الواسعتين، كدلالة على أنّه سمع تهديد أخته، لكنّه فيما عدا ذلك لم يبد عليه الانتباه الشديد. ثم عاد فأغمض عينيه من جديد، واستمر في إراحة جانب وجهه على مقعدة الكرسيّ.

كنتُ قد ذكرتُ أنّه ربما عليه أنْ يدّخرها -أي صيحة برونكس- إلى أنْ يبدأ باستخدام لقبه بانتظام. أي، إذا نال ذلك اللقب، أيضاً.

رمتني إسمه بنظرة طويلة، وتبّسم بقدر قليل من الرصانة. قالت - بكآبة، «إنك تتّصف بحس فكه جاف، أليس كذلك؟ قال والدي إنني لا أتّصف بأي حسّ فكه، وقال إنني غير مؤهّلة لمواجهة الحياة لأنني مُجرّدة من أي حسٍ فكه»

أشعلتُ سيجارة، وأنا أراقبها، وقلت إنني لا أعتقد أنَّ للحسّ الفكه أيّة فائدة في وقت الحاجة المُلحّة.

«أبي قال إنّه يُفيد»

كان ذلك تقريراً نابعاً عن إيمان، وليس عن إنكار، وأسرعتُ بتغيير الموضوع. أومأتُ برأسي إيجاباً وقلت إنَّه ربما والدها تبنّى وجهة النظر العامة، بينما تبنّيتُ أنا وجهة النظر المحدودة (كائناً ما كان معنى هذا).

قالت إسمه «إنَّ تشارلز يشتاق إليه كثيراً»، وأضافت بعد قليل، «لقد كان

رجلاً محبوباً جداً، ويتصف أيضاً بوسامة طاغية. وهذا لا يعني أنَّ المظهر مسألة على قدر كبير من الأهميّة، لكنّه هكذا كان يتّصف. وكان ذا عينين ثاقبتين بالنسبة إلى رجل رقيق بطبعه»

أومأتُ برأسي موافقاً. قلت إنني أتخيَّل أنّ والدها كان يمتلك مخزوناً خارقاً من المفردات اللغويّة.

قالت إسمه «أوه، نعم؛ هذا صحيح. كان أرشيفيّاً - هاوياً طبعاً»

عند تلك النقطة، شعرتُ بمن يربت بإلحاح مزعج، إلى درجة اللَّكم، على أعلى ذراعي، من جهة تشارلز. التفتّ نحوه. كان حينئذٍ جالساً في وضعيّة طبيعيّة على كرسيه، ما عدا أنّه كان يُقحِم إحدى رُكبتيه تحته. سألني بصوته الحادّ «لِمَ يقول أحد الجدران مرحباً لجدار آخر؟ هذا لغز!»

أدرتُ عينيّ متفكّراً وأنا أنظر إلى السقف وكرّرتُ السؤال بصوتٍ مرتفع. ثم نظرتُ إلى تشارلز مع تعبير متحدٍّ على وجهي وقلت إنني لا أعلم.

قال، بأعلى صوت، «أقابلك عند ناصية الشارع»

وصل الأمر إلى الذروة بالنسبة إلى تشارلز نفسه، ووجده مُسلياً إلى أقصى درجة. في الحقيقة، اضطرّتْ إسمه إلى الاقتراب وضربه بقوة على ظهره، كأنها تُعالجه من نوبة سعال. قالت «والآن، كفّ عن هذا»، ثم عادتْ إلى مقعدها. «إنه يطرح هذا اللغز نفسه على كل مَنْ يُقابله وفي كل مرَّة يفرح. في المعتاد عندما يضحك يُريِّل. «كفَّ عن هذا الآن، أرجوك»

قلتُ، وأنا أراقب تشارلز الذي كان يتخلّى عن الضحك، «لكنّه أحد أفضل الألغاز التي سمعت». واستجابة لمديحي هذا، غاص عميقاً في كرسيه وغطّى وجهه من جديد وحتى عينيه بطرف مفرش الطاولة. ومن ثم نظر إليّ بعينيه المكشوفتين، المملوءتين بمرحٍ كان يخفت ببطء وبفخر شخص يعرف لغزاً جيداً أو أكثر.

سألتني إسمه «هل لي أنْ أسأل كيف تمّ استخدامك قبل أنْ تلتحق بالجيش؟»

قلت إنني لم أُستخدَم قط، وإنني فقط تركتُ الجامعة مدة عام ولكنني أحبّ أنْ أعتبر نفسي كاتب قصة قصيرة مُحترفاً.

أومأتْ برأسها إيجاباً بتهذيب. وسألتْ «أهي منشورة؟»

كان سؤالاً مألوفاً لكنّه دائماً يكون شديد الحساسية، ومن النوع الذي لا أحبّ أنْ أُجيب عنه بصورة تقليديّة. وبدأتُ أشرح كيف أنَّ غالبيّة المُحررين في أميركا هم حفنة من الـ–»

قاطعتني إسمه «كان والدي يكتب بأسلوب جميل. وأنا أحتفظ بعدد من رسائله من أجل الأجيال التالية»

قلتُ إنَّها تبدو فكرة جيّدة. وتصادفَ أنني كنتُ أنظر من جديد إلى سطح ساعة يدها الضخم، الشبيهة بمقياس الترتيب الزمني. وسألتها إنْ كانت تخصّ والدها.

نظرتْ إلى رسغها بوقار. قالت «نعم، كانت كذلك. لقد أعطاني إياها قُبيل أنْ يتمّ إجلاؤنا أنا وتشارلز» وأبعدتْ يديها بحياء عن الطاولة، وهي تقول «مجرد تذكار، طبعاً»، ثم نقلَت الموضوع إلى اتّجاه مختلف. «سوف يُسعدني كثيراً إذا كتبتَ ذات يوم قصّة من أجلي خصيصاً. أنا قارئة نهمة»

قلتُ لها إنني سأفعل ذلك حتماً، إنْ استطعت. قلتُ إنّ إنتاجي ليس غزيراً.

قالت بتأمّل «ليس من الضروري أنْ تكون غزير الإنتاج! يكفي ألّا يكون صبيانيّاً وسخيفاً. أُفضّل القصص التي تدور حول الفساد. إنني شديدة الاهتمام بالفساد»

أوشكتُ أنْ ألحّ عليها من أجل إمدادي بمزيد من التفاصيل، لكنني شعرتُ بتشارلز يقرص ذراعي، بقسوة. فالتفتُّ نحوه، مُجفلاً قليلاً. كان واقفاً بجواري مباشرة. سألني، بألفة «إذن ماذا قال جدار لجدار آخر؟»

قالت إسمه «لقد سبقَ أنْ سألته عن هذا. كفى الآن»

تجاهل تشارلز أخته، وداس على إحدى قدميّ، وكرَّر طرح السؤال المطلوب. لاحظتُ أنَّ عقدة ربطة عنقه ليست بالشكل اللائق. فدفعتها لتُصبح في موقعها الصحيح، ثم نظرتُ إلى عينيه مباشرة، واقترحت عليه «هل نتقابل عند ناصية الشارع؟»

حالما قلتُ هذا، تمنّيتُ لو لم أفعل. فغر تشارلز فمه واسعاً، وشعرتُ

كأنني سدَّدتُ إليه لكمة لكي ينفتح. نزل عن قدمي، ومشى، بمهابة كاملة باتجاه طاولته، من دون أنْ يلتفت خلفه.

قالت إسمه «إنّه حانق. إنَّه صاحب مزاج عنيف. كانت أمي تميل إلى إفساده بالتدليل. وكان والدي هو الشخص الوحيد الذي لم يعمد إلى تدليله»

بقيتُ أنظر إلى تشارلز الذي كان قد جلسَ وباشر بشرب الشاي مُستخدماً كلتا يديه في الإمساك بكوبه. وتمنيتُ أنْ يلتفت نحوي، لكنّه لم يفعل.

نهضَتْ إسمه واقفة. قالت، مع تنهّد «il faut que je parte aussi (أنا أيضاً يجب أنْ أذهب) هل تُحسن الفرنسيّة؟»

نهضتُ عن كرسيّي، مع خليط من مشاعر الندم والاضطراب. تصافحنا أنا وإسمه: كانت يدها، كما توقّعت، يداً متوترة، وراحتها رطبة. عبّرتُ لها، بالإنكليزيّة، عن مدى استمتاعي بصحبتها.

أومأتْ برأسها إيجاباً. قالت «هذا ما توقّعت. إنني منفتحة تماماً بالنسبة إلى سني»، ولمستْ شَعرها لمسة تجريبيّة أخرى. قالتْ «إنني آسفة بشأن شَعري. لعل شكلي قبيح»

«هذا غير صحيح البتّة! في الحقيقة، أعتقد أنَّ الكثير من التموّج بدأ يعود إلى شعرك»

ولمستْ شَعرها من جديد بسرعة. سألتني «أتعتقد أنكَ ستأتي إلى هنا من جديد في المستقبل المنظور؟ نحن نأتي إلى هنا في كل يوم سبت، بعد تمرين الجوقة»

أجبتُ بالقول إنّه كان سيُسعدني كثيراً أنْ أفعل ولكنني متأكّد، لسوء الحظ، من أنني لن أتمكن من ذلك من جديد»

قالت إسمه «بعبارة أخرى، لا تستطيع أنْ تناقش تحرّكات الجيش». ولم تأت بأيّة حركة للابتعاد عن قربها من الطاولة. في الحقيقة، وضعتْ إحدى قدميها فوق الأخرى، ثم نظرتْ نحو الأسفل ووضعتْ مقدمتَي حذائها جنباً إلى جنب. كانت حركة صغيرة جميلة، لأنها كانت ترتدي جورباً أبيض وكان كاحلاها وقدماها جميلة. وبسرعة رفعتْ بصرها إليّ. وسألتْ، مع شيءٍ من الاحمرار في وجهها، «أترغب في أنْ أراسلك؟ إنني أكتب رسائل بأسلوب واضح مع شخص في مثل-»

«أرغب في ذلك»، وأخرجت قلم رصاص وورقة ودوَّنت اسمي، ورتبتي العسكريّة، ورقمي المتسلسل، ورقم استمارة الشراء.

قالتْ، بعد أنْ تلقّتها «سوف أبدأ أنا بمراسلتك، كي لا تشعر بأنك أدنى مرتبة بأي صورة»، ووضعت العنوان في جيب ثوبها. وقالت «وداعاً»، وعادتْ إلى طاولتها.

أمرتُ بإحضار إبريق آخر من الشاي وجلستُ أراقب الاثنين، مع الآنسة ميغلي التي تتعرَّض للإزعاج، إلى أنْ نهضوا استعداداً للمغادرة. قاد تشارلز الطريق إلى الخارج، وهو يعرج بحركة استعراضيّة، كأنَّ إحدى ساقيه أقصر من الأخرى بمقدار بضع بوصات. لم ينظر نحوي. وبعده جاءت الآنسة ميغلي، ثم إسمه، التي لوّحت لي بيدها، ولوّحت لها بيدي بالمقابل، بعد أنْ نهضتُ قليلاً عن الكرسي. كانت لحظة مؤثّرة بصورة غريبة بالنسبة إليّ.

بعد ذلك بقليل، عادت إسمه إلى غرفة شرب الشاي، وهي تجرّ تشارلز من كُم سترته خلفها. قالت «تشارلز يُريد أنْ يُقبّلك قبلة الوداع»

وبسرعة تركت كوب الشاي، وقلت إنَّ ذلك شيء لطيف جداً، ولكن هل هي واثقة من رغبته؟

قالتْ، مع قليل من التجهّم، «نعم»، وتركت كُمّ تشارلز ودفعته بقوة باتجاهي. فتقدَّمَ، بوجهٍ شاحب، ومنحني قبلة قويّة رطبة ومُفرقعة تحت أُذني اليُمنى. وبعد انتهاء هذه المحنة، بدأ يمشي بمسارٍ ملتوٍ كنحلة نحو الباب وإلى أسلوب حياة أقلّ عاطفيّة، لكنني قبضتُ على الجزء الخلفيّ من حزام سترته، وتمسّكتُ بها، وسألته «ماذا قال جدار لجدار آخر؟»

أشرقَ وجهه. زعقَ «قال له قابلني عند ناصية الشارع!»، وهرعَ خارجاً من المكان، وهو ربما في حالة من الهستيريا.

كانت إسمه واقفة وكاحلاها في وضعيّة التصالب من جديد. سألتني «أواثق أنت من أنكَ لن تنسى أنْ تؤلّف تلك القصة من أجلي؟ لا داعي لأنْ تكون موجّهة خصيصاً لي. يمكن أنْ-»

قلتُ لها لا يمكن أنْ أنسى. وأخبرتها بأنّه لم يحدث قط أنْ كتبتُ قصّة من أجل أي شخص، وأنّه يبدو أنَّ الوقت المناسب قد حان لكي أفعل هذا.

أومأتْ برأسها موافقة. واقترحت عليّ قائلة «اجعلها قذرة إلى أقصى مدى ومؤثّرة. أتعرف ما هي القذارة؟»

قلت ليس بدقّة لكنني أتحسّن في التعرّف إليها، بصورة أو بأخرى، طوال الوقت، وإنني سوف أبذل أقصى جهدي لأرتقي إلى مستوى معاييرها. وتصافحنا.

«أليس شيئاً مؤسفاً أننا لم نلتقِ في ظروف مُخفّفة أكثر؟»

قلت لها نعم، نعم شيء مؤسف حقاً.

قالت إسمه «وداعاً. آمل أنْ تعود من الحرب وكامل مَلكاتك سليمة»

شكرتُها، وقلت بضع كلمات أُخَر، ومن ثم تابعتها وهي تغادر غرفة الشاي. غادرت بخُطى بطيئة، متأمّلة، وهي تتلمّس أطراف شعرها لترى مدى جفافه.

***

هذا هو الجزء القذر، أو المؤثِّر، من القصّة، والمشهد يتغيَّر. والناس يتغيّرون، أيضاً. أنا ما زلتُ موجوداً، ولكن من الآن فصاعداً، ولأسبابٍ وجيهة، لا يُسمح لي بالكشف عنها، سوف أستتر ببراعة بطريقة لن يتمكن حتى أشدّ القرّاء مهارة من معرفتها.

كانت الساعة حوالي العاشرة والنصف ليلاً في غوفرت، بافاريا، بعد يوم انتصار الحلفاء في الحرب بعدّة أسابيع. وكان الرقيب الأول X في غرفته في الطابق الثاني من منزل المدنيين حيث كان هو وتسعة من الجنود الآخرين ينزلون، حتى قبل إعلان الهدنة. كان جالساً على كرسيّ من خشب قابل للطيّ أمام طاولة للكتابة صغيرة تعيث فيها الفوضى، ورواية ذات غلاف ورقيّ مُخصّصة للتوزيع في بلدان ما وراء البحار مفتوحة أمامه، كان يواجه صعوبة جمّة في قراءتها. وكانت المشكلة تكمن فيه هو، وليس في الرواية. وعلى الرغم من أنَّ الرجال المُقيمين في الطابق الأول كانوا أول مَنْ يستخدمون الكتب التي تُرسَل في كل شهر عبر الخدمات الخاصّة، فقد بدا في المعتاد أنَّ الكتاب الذي يمكن أنْ يكون x قد انتقاه بنفسه يبقى معه. لكنّه كان شاباً لم يخرج من الحرب بمَلَكات سليمة، وعلى مدى أكثر من

ساعة ظل يُكرر قراءة الفقرات نفسها ثلاث مرّات، والآن أصبح يفعل الأمر نفسه مع الجُمل. وفجأة أغلق الكتاب، من دون أنْ يضع علامة على مكان توقّفه. وبيده ظلّلَ عينيه برهة درءاً للوهج القوي القاسي المنبعث من مصباح كهربائي عارٍ يعلو الطاولة.

أخرجَ سيجارة من علبة سجائر موجودة على الطاولة وأشعلها بأصابع ظهرت متزاحمة برفق وبلا توقف واحدة تلو الأخرى. استرخى في جلسته قليلاً على كرسيه وبدأ يُدخّن من دون أي استمتاع بالطعم. كان يُدمن التدخين منذ أسابيع. أصبحتْ لثّته تنزف دماً لتعرّضها لأقلّ ضغط من طرف لسانه، وكان نادراً ما يتوقف عن التجريب: كانت تلك لعبته الصغيرة التي يُمارسها، أحياناً على مدى ساعة. جلسَ يُدخّن قليلاً على سبيل التجريب. ثم، وبسرعة، وبصورة مألوفة، وكالمعتاد، وبلا أي إنذار، اعتقد أنّه شعر كأنَّ عقله انخلع من مكانه وأخذ يتمايل، كمتاع غير آمن موضوع على رف فوقه. وبسرعة قام بما كان يقوم به منذ أسابيع لكي يضع الشيء في مكانه الصحيح: ضغط يديه بقوة على صِدغيه، وظلّ يضغط برهة. كان في حاجة إلى قصّ شَعره، وكان أيضاً قذراً. وخلال فترة مكوثه في مستشفى فرانكفورت على ضفاف نهر مين كان قد غسله ثلاث مرّات أو أربعاً، لكنّه اتّسخَ من جديد خلال مدة قيادة سيارة الجيب الطويلة في طريق عودته إلى غوفرت. الجندي Z، الذي استدعاه إلى المستشفى، ما زال يقود سيارة جيب كأنّه في حالة حرب، ويُنزِل حاجب الريح إلى الأسفل نحو غطاء السيارة، سواء أكانت هناك هدنة أم لا. كانت هناك آلاف القوّات الجديدة في ألمانيا، والجندي Z بقيادته السيارة بينما حاجب الريح نحو الأسفل، كما يحدث في وقت الحرب، يأمل في أنْ يُبيِّن أنّه ليس واحداً منهم، وأنّه سريعاً سوف يُصبح واحداً منهم في مكتب الثقافة التقنيّة.

عندما تخلّى z عن التفكير بدأ يُحدِّق إلى سطح طاولة الكتابة، الذي كان يضمّ ركاماً من عدد من الرسائل التي لم تُفتَح بعد وعلى الأقل على خمس أو ست لُفافات التي لم تُفكّ بعد، وكلّها موجّهة إليه. مدَّ يده خلف الركام وانتقى كتاباً مسنداً إلى الجدار، كتاباً من تأليف غوبلز، عنوانه «Die Zeit Ohne Beispiel» (وقت بلا سابقة). والكتاب يخصّ ابنة العائلة ذات الثمانية

والثلاثين عاماً، العزباء، التي كانت حتى قبل بضعة أسابيع تُقيم في المنزل. كانت موظفة صغيرة في الحزب النازي، لكنَّ مركزها كان عالياً، وفق معايير أنظمة الجيش، بحيث توضع ضمن فئة المقبوض عليهم تلقائيّاً. وZ نفسه هو الذي قام بإلقاء القبض عليها. والآن، وللمرة الثالثة منذ أنْ عاد من المستشفى في ذلك اليوم، فتح كتاب تلك المرأة وقرأ الإهداء الموجز الذي على الورقة البيضاء التي في أول الكتاب، كُتِبَتْ بقلم حبر، بالألمانيّة، بخط يد صغير، وبأسلوب بسيط إلى أقصى مدى، ويقول «عزيزي الله، الحياة جحيم». لا شيء يقود إليه أو ينشأ عنه. كان وحده على الصفحة، ووسط سكون الغرفة السقيم، بدا كأنَّ الكلمات ليس لها مُنافِس، بل كأنها تهمة تقليديّة. حدَّقَ X إلى الصفحة بضع دقائق، مُحاولاً، على الرغم من كل شيء، ألّا يُخدَع. ثم بحماسة لم يلجأ إليها في القيام بأي عمل منذ أسابيع، أمسك بالقطعة الصغيرة المتبقّية من قلم الرصاص ودوَّنَ تحت الإهداء، وبالإنكليزيّة، «أيّها الآباء والأساتذة، إنني أتساءل، «ما هو الجحيم؟». أعتقد أنّه مُعاناة العجز عن الحب». وبدأ يكتب اسم دوستويفسكي تحت الإهداء، لكنّه رأى –والخوف يسري في أعضاء جسمه كلّها– أنَّ ما كتبَ بأكمله تقريباً غير منطقيّ. وأغلق الكتاب.

وبسرعة انتقى شيئاً آخر مما على الطاولة، رسالة وصلته من أخيه الأكبر في ألباني. وكانت تستقر على طاولته حتى قبل أنْ يدخل المستشفى. فتح المُغلَّف، وعزَمَ من دون حماس على أنْ يقرأ الرسالة حتى آخرها، لكنّه لم يقرأ إلّا النصف العُلويّ من الصفحة الأولى. توقّفَ بعد الكلمات التي تقول «والآن بعد أنْ انتهت الحرب العظمى وربما توفّر لك خلالها الكثير من الوقت هناك، ما رأيك في إرسال بضع حِراب ونجوم معقوفة للأولاد...» وبعد أنْ مزّقها، نظر نحو الأسفل إلى النُتَف المُستقرّة في سلّة المهملات، ورأى أنّه أغفلَ الصورة الموجودة في الداخل. وميَّز فيها قدمَي شخص ما واقف على مرج في مكان ما.

وضع ذراعيه على الطاولة وأراح رأسه عليهما. شعر بوجع من رأسه وحتى القدمين، وكأنَّ مناطق الألم كلها يتوقف أحدها على الآخر، كأنّه شجرة الميلاد التي ينبغي على أضوائها، التي يربط بينها سلك واحد، أنْ تنطفئ كلّها إذا أُصيب عطب لمبة واحدة منها.

فُتِحَ الباب بقوة وعنف، من دون أنْ يُسمَع قرع. رفعَ X رأسه، وأداره، فرأى الجندي Z واقفاً عند الباب. كان الجندي Z شريك X في قيادة سيارة الجيب ورفيقه الدائم منذ يوم الإنزال الكبير وطوال حملات الحرب الخمس كلها. كان يُقيم في الطابق الأول وفي المعتاد كان يصعد لكي يقابل X عندما يحمل له في جعبته بضع إشاعات أو شكاوى لكي يُفضي بها. كان شاباً ضخم الجثّة وجميل الصورة في الرابعة والعشرين. وخلال الحرب، نشرت إحدى المجلات الوطنيّة صورة فوتوغرافيّة له وهو في غابة هورتغن، كان قد اتّخذ وِقفة أكثر من جميلة، وديك عيد الشكر بالقرب منه. سأل X، «أتكتب رسائل؟ الجو مُخيف هنا، يا رجل». كان دائماً يُفضِّل أنْ يدخل غرفة فيها ضوء فوق الرؤوس.

استدار X وهو على كرسيه وطلب منه أنْ يدخل، وأنْ ينتبه كيلا يطأ الكلب.

«أطأ ماذا؟»

«ألفين. إنّه تحت قدمك مباشرة، يا كلاي. ما رأيك أنْ تُدير مفتاح النور اللعين؟»

عثر كلاي على مفتاح النور الذي في السقف، أداره، ثم عبر أرض الغرفة الموحشة، الشبيهة بغرفة الخدم وجلسَ على حافة السرير، في مواجهة مضيفه. كان شَعره الأحمر القرميديّ، الذي سرّحه تواً، يقطر كميّة من الماء تكفي لتنظيف حصان بصورة مُرضية. وكان هناك مشط ورأس قلم حبر يبرزان، بشكل مألوف، من الجيب الأيمن لقميصه ذي اللون الرمادي الزيتونيّ. وفوق الجيب الأيسر كان يضع شارة رجال المُشاة المُقاتلين (التي لم يكن يُسمح له، تقنياً، بوضعها)، وشريط المسرح الأوروبيّ، الذي عليه خمسة نجوم قتال من البرونز (بدل نجم فضيّ واحد، الذي يُعادل خمسة نجوم من البرونز)، وشريط خدمة بيرل هاربر. وتنهّد بعمق وقال «يا رب العالمين». لم يكن يعني أيّ شيء؛ إنّه الجيش. وأخرج علبة سجائر من جيب قميصه، وتناول منها سيجارة، ثم أعاد العلبة إلى مكانها وأعاد تثبيت زر غطاء الجيب. ونظر حوله ببلاهة في أرجاء الغرفة وهو يُدخّن. وأخيراً استقرّ نظره على جهاز الراديو. قال «هيه، سوف يُذيعون هذا البرنامج الرائع في الراديو بعد قليل. مع بوب هوب، والآخرين كلهم»

فتح X علبة سجائر جديدة، وقال إنّه أغلق الراديو تواً.

توهّجَ وجه كلاي وهو يراقب X يُحاول إشعال سيجارة. قال، بحماسة المراقب، «يا إلهي، يجب أنْ ترى يديك اللعينتين. إنكَ ترتجف، أتعلم هذا؟»

أشعل X سيجارته، وأومأ برأسه موافقاً، وقال إنَّ لكلاي عيناً ثاقبة لرصد التفاصيل. مكتبة سُر مَن قرأ

«هذا مؤكَّد. كدتُ أفقد وعيي عندما رأيتك في المستشفى. لقد بدوت أشبه بالجثّة. كم فقدتَ من وزنك؟ كم رطلاً؟ أتعلم؟»

«لا أعلم. كيف وجدتَ بريدك بعد أنْ ذهبت؟ هل تلقيتَ أخباراً من لوريتا؟»

لوريتا كانت صديقة كلاي. وكانا ينويان الارتباط بالزواج في أقرب وقت مناسب. وكانت تُراسله بانتظام، من فردوسٍ يتألّف من ثلاث علامات تعجّب وملاحظات غير دقيقة. وطوال فترة الحرب، كان كلاي يقرأ رسائل لوريتا كلّها على مسمع X بصوتٍ مرتفع، مهما كانت حميمة - في الحقيقة، كلما كانت حميمة، كان ذلك أفضل. ومن عادته، بعد كل قراءة أنْ يطلب من X أنْ يصوغ له أو يُدبِّج له رسالة جوابيّة، أو أنْ يُقحِم بضع كلمات مؤثّرة بالفرنسيّة أو بالألمانيّة.

قال كلاي بفتور، «نعم، تلقّيتُ رسالة منها بالأمس وأنا في غرفتي في الأسفل. سوف أُريك إيّاها لاحقاً»، واستقام في جلسته على حافة السرير، وحبسَ أنفاسه، وأطلقَ تجشُؤاً طويلاً، رنّاناً. واسترخى من جديد، وقد بدا عليه شبه سرور بإنجازه. قال «لقد تركَ أخوها اللعين سلاح البحريّة بدعوى إصابته بوركه. وابن الحرام كان مُصاباً بوركه فعلاً»، واعتدل من جديد في جلسته وحاول أنْ يُطلِق تجشّؤاً آخر، لكنَّ النتيجة كانت أدنى في مواصفاتها. وطرأ على وجهه الكثير من التغيُّر. «هيه، قبل أنْ أنسى. يجب أنْ نستيقظ عند الساعة الخامسة غداً ونذهب بالسيارة إلى هامبورغ أو مكان ما. ونُحضِر سترات أيزنهاور[1] من أجل الكتيبة كلها»

تأمّله X بعدائيّة، وأعلنَ أنه لا يريد سترة أيزنهاور.

1- سترات أيزنهاور: سترات عسكرية.

بدت الدهشة على كلاي، بل بدا متأذّياً قليلاً. «أوه، إنها جيدة! تبدو جيدة. لماذا؟»

«بلا أي سبب. ما الذي يُجبرنا على الاستيقاظ عند الساعة الخامسة؟ لقد انتهتِ الحرب، إكراماً لله»

«لا أعلم –ويجب أنْ نعود قبل موعد الغداء. لديهم استمارات جديدة يجب أنْ نملأها قبل الغداء... وسألتُ بولينغ لم لا نستطيع أنْ نملأها هذه الليلة– وكانت الاستمارات اللعينة موجودة أمامه على الطاولة. إنه لا يريد أنْ يفتح المغلّفات الآن، ابن الحرام ذاك»

جلس الاثنان يرين عليهما الهدوء برهة، يشعران بكراهيّة بولينغ. وفجأة نظر كلاي إلى X باهتمام جديد أشدّ من ذي قبل. قال «هيه، أتعلم أنّ قسَمات جانب وجهك تنتفض بشدّة؟»

قال X إنّه يعرف كل شيء عن الأمر، وغطى تقلّص عضلات وجهه بيده.

حدّقَ كلاي برهة إليه، ثم قال، بحيويّة، كأنّه يحمل نبأً جيداً استثنائيّاً، «لقد كتبتُ إلى لوريتا أقول إنكَ أُصِبتَ بانهيارٍ عصبيّ»

«أوه؟»

«نعم. وقد أبدتْ اهتماماً هائلاً بهذا الشأن. إنها تدرس علم النفس». تمدّد كلاي على السرير، وهو ينتعل حذاءه. «أتعلم ماذا قالت؟ قالت إنَّ لا أحد يُصاب بانهيار عصبيّ فقط بسبب الحرب، وإنك ربما كنت مهزوز الشخصيّة طوال حياتك»

وضع X يديه على هيئة جسر فوق عينيه –بدا أنَّ الضوء المُسلَّط على السرير من فوق يُبهره– وقال إنَّه لطالما استمتع بنظرتها النافذة إلى الأشياء.

نظر كلاي إليه. قال «اسمع، يا ابن الحرام. إنها تعرف أكثر منك أنَّ البصيرة هي أقرب إلى عِلم النفس»

سأل X، «أتعتقد أنَّ في استطاعتك أنْ ترفع قدمك القذرة عن سريري؟»

ترك كلاي قدميه حيث كانتا برهة أخرى كأنّه يقول لا تقُل لي أين أضع قدميّ، ثم رفعهما ووضعهما على الأرض واستقام في جلسته. «على أيّة حال كنتُ أنوي أنْ أهبط إلى أسفل. هناك جهاز راديو في غرفة ووكر».

لكنّه لم ينهض عن السرير. «هيه، كنتُ تواً أخبر ابن الحرام برنستاين في الطابق السفليّ. أتتذكّر عندما قدنا السيارة أنا وأنت في منطقة فولوني، وانهالت علينا القنابل طوال ساعتين كاملتين، وتلك القطة اللعينة التي قفزت على غطاء سيارة الجيب ونحن نكمن داخل تلك الحفرة وأطلقت النار عليها؟ أتتذكّر؟»

«نعم – اللعنة، لا تبدأ الكلام عن تلك القطّة من جديد، يا كلاي. لا أريد أنْ أسمع المزيد عنها».

«كلا، كل ما أعني هو أنني كتبت لرويتا عنها. وقد قامت بمناقشة هذا الموضوع مع كامل طلاب مادة عِلم النفس. في الصف وخارجه. مع البروفسور ومع كل شخص»

«لا بأس. لا أريد أنْ أسمع عنها، يا كلاي»

«كلا، أنت تعلم السبب في إطلاقي النار عليها مباشرة، أتعلم ماذا قالت لوريتا؟ قالت إنني أُصِبتُ بجنون مؤقّت. لا أمزح. جرّاء القصف والقنابل»

مرَّر X أصابعه، مرّة واحدة، خلال شعره القذر، ثم ظلّل من جديد عينيه في وجه الضوء. «أنت لم تكن مجنوناً، بل كنتَ ببساطة تؤدي واجبك، وقتلتَ تلك القطة برجولة كما يمكن لأي شخص أنْ يفعل في ظل تلك الظروف»

رماه كلاي بنظرة مرتابة. «عمَّ تتحدث بحقّ الله؟»

«كانت القطّة جاسوسة. وكان لابد من قتلها. كانت أداة ألمانيّة بارعة جداً مكسوّة بشكلٍ بدائيّ لتبدو أشبه بمعزاة. لذلك لم يكن الأمر يتّسِم بأي قدر من الوحشيّة، أو القسوة، أو القذارة، أو حتى–»

قال كلاي، وهو يشدّ شفتيه معاً، «اللعنة! ألا تستطيع أبداً أنْ تكون صادقاً؟»

فجأة شعر X بالاشمئزاز، وأخذ يتململ على كرسيه وأمسك بسلّة المهملات – في الوقت المناسب. وبعد أنْ اعتدل في جلسته والتفت نحو ضيفه من جديد، وجده واقفاً، مُحرجاً، في منتصف المسافة بين السرير والباب. بدأ X يعتذر، لكنّه غيَّر رأيه ومدّ يده إلى علبة سجائره.

قال كلاي، مُحافظاً على المسافة ولكن مُحاولاً أنْ يكون ودوداً، «تعال إلى الطابق السفليّ لنستمع إلى هوب في الراديو. سوف تستمتع. أؤكد لك»

«اذهب أنت، يا كلاي... سوف أتفرّج على مجموعتي من الطوابع»

«أحقاً؟ ألديك مجموعة من الطوابع؟ لم أكن أعلم أنك–»

«أنا أمزح»

مشى خطوتين باتجاه الباب. ثم قال «قد أذهب بالسيارة إلى إيشتاد في وقت لاحق. لديهم حفلة راقصة هناك. قد تستمر السهرة حتى حوالي الساعة الثانية. أترغب في الذهاب؟»

«كلا، شكراً... قد أتمرَّن على بعض خطوات الرقص في الغرفة»

«حسن. تصبح على خير. هوّن عليك، بحقّ الله». أُغلِقَ الباب بقوة، وفي الحال فُتِحَ من جديد. «اسمع، حسن. إذا تركتُ رسالة إلى لوريتا تحت عقب بابك؟ هلّا صحّحتَ بعض العبارات بالألمانيّة التي ضمّنتها إكراماً لي؟»

«نعم. دعني وشأني الآن. اللعنة»

قال كلاي «سأتركك. أتعلم ماذا كتبتْ أمي لي تقول؟ قالت لي إنها سعيدة لأننا كنا أنا وأنت معاً طوال مدّة الحرب. وفي سيارة الجيب نفسها. وقالت إنَّ رسائلي أصبحت تتّسم بالذكاء أكثر منذ أنْ أصبحنا معاً»

رفع X بصره إليه، وقال بصعوبة بالغة، «شكراً لك. أبلغها شكري بالنيابة عني»

«سأفعل. تصبح على خير!»، وأغلقَ الباب بقوة، وهذه المرّة دون رجعة.

جلس X ينظر إلى الباب فترة طويلة، ثم أدار كرسيه نحو طاولة الكتابة ورفع الآلة الكاتبة المحمولة عن الأرض، وأفسح حيِّزاً لها على الطاولة التي تعيثُ الفوضى على سطحها، مُزيحاً جانباً الركام المنهار من الرسائل والحزم التي لم تُفتَح بعد. رأى أنّه إذا كتب رسالة إلى صديق قديم له في نيويورك قد يُشكّل ذلك علاجاً له، وإنْ كان لفترة وجيزة. لكنّه لم يتمكّن من إقحام ورقة الرسالة داخل أسطوانة البريد بشكلٍ صحيح، كانت أصابعه ترتعش بعنف. فأنزل يديه إلى جنبيه برهة من الوقت، ثم أعاد المُحاولة من جديد، لكنّه في الختام دعك ورقة الكتابة بيده.

كان يعي أنّ عليه أنْ يُخرِج سلّة المهملات من الغرفة، لكنّه بدل أنْ يفعل شيئاً بهذا الشأن، وضع كلتَي ذراعيه على الآلة الكاتبة وأراح رأسه من جديد، مُغمِضاً عينيه.

بعد مُضيّ بضع دقائق من الاضطراب، عندما فتح عينيه، وجد أنّه يُدقِّق النظر في حزمة صغيرة لم تُفتَح بعد ملفوفة بورقة خضراء اللون. لعلها كانت قد انزلقتْ عن الركام في أثناء إفساحه حيِّزاً للآلة الكاتبة. اكتشف أنّها أعيدت إلى عنوانها مرات عِدَّة. وتبيَّن أنّ على أحد جوانب الحزمة ثلاثة أرقام على الأقلّ من أرقام مكتب بريد الجيش.

فتح الحزمة من دون أي حماس، من دون حتى أنْ ينظر إلى العنوان العائدة منها. فتحها بحرق الخيط بعود كبريت مشتعل. كان أشد اهتماماً بمراقبة خيط يشتعل حتى آخره أكثر من اهتمامه بفتح اللفافة، لكنّه فتحها، أخيراً.

كان في داخل الصندون رسالة قصيرة، مكتوبة بقلم حبر، موضوعة على قمة غرض صغير ملفوف بمنديل ورقيّ. رفعَ الرسالة وقرأها:

17، ---- رود

--- ديفون

7، حزيران، 1944

عزيزي الرقيب X،

آمل أنْ تغفر لي لأنّه استغرقَ مني 38 يوماً لأبدأ مراسلاتنا، لكنني كنتُ مشغولة إلى أقصى مدى لأنَّ خالتي كانت تعاني من المكورات العقديّة في حنجرتها وكادت تموت وانهالت عليّ الالتزامات المُبرَّرة. لكنني كنتُ أفكر فيك باستمرار وفي ذاك اليوم الممتع أيّما إمتاع الذي أمضيناه معاً في الثلاثين من شهر نيسان بين الساعة 3:45 و4:15 بعد الظهر، إنْ كنتَ لا تزال تذكر.

جميعنا متحمسون ونشعر بالرهبة بالنسبة ليوم الإنزال الكبير ونأمل أنْ

يجلب النهاية السريعة للحرب ولأسلوب الحياة على الأقلّ. إنني وتشارلز قلقان جداً عليك؛ ونأمل ألّا تكون بين الذين شاركوا في الهجوم الأول على شبه جزيرة كوتنتان. هل كنتَ بينهم؟ أجب أرجوك بأسرع وقت ممكن. مع أحرّ تمنياتي لزوجتك.

المُخلصة لك

إسمه

بالمناسبة: لقد سمحتُ لنفسي بوضع ساعة يدي في الداخل وآمل أنْ تحتفظ بها لكي تحسب مدة الصراع. أنا لم ألاحظ إنْ كنت تضع ساعة يد خلال مدة تواصلنا القصيرة، لكنَّ هذه مُضادة تماماً للماء وللصدمات بالإضافة إلى وجود العديد من المزايا من بينها قدرتك على معرفة سرعة خطواتك إذا شئت. وأنا متيقّنة تماماً من أنك سوف تستفيد منها إلى أقصى درجة خلال تلك الأيام العصيبة أكثر مني ومن أنك سوف تقبلها كتعويذة جالبة للحظ.

إنَّ تشارلز، الذي أعلّمه القراءة والكتابة وأجد أنّه تلميذ مُبتدئ على قدر عالٍ جداً من الذكاء، يرغب في أنْ يُضيف بضع كلمات. أرجوك اكتب لي ردّاً حالما يتوفر لديك الوقت والرغبة في ذلك.

مرحبا مرحبا مرحبا مرحبا مرحبا مرحبا مرحبا مرحبا مع حبي وقُبلاتي. تشارلز.

مرَّ وقتٌ طويل قبل أنْ يتمكّنَ X من وضع ورقة الرسائل داخل الآلة، ناهيك عن أخذ ساعة يد والد إسمه من الصندوق. وعندما أخرجها أخيراً، اكتشفَ أنْ زجاجها قد انكسر في أثناء نقلها. وتساءلَ إنْ كانت الساعة بقيتْ سليمة، ولكن لم تكن لديه الشجاعة لملئها ومعرفة الحقيقة. واكتفى

بالجلوس وهو يحملها بيده مدة أخرى من الزمن. وفجأة، وبما يشبه النشوة، شعر بالنعاس.

لقد تعرَّفتِ على رجل نعسان جداً، يا إسمه، ودائماً ينتظر أنْ تسنح الفرصة لكي يُصبح من جديد رجلاً سليماً مع كل مواهبه.

فمي جميل وعيناي خضراوان

عندما رنَّ جرس الهاتف، سأل صاحب الشعر الأشيب الفتاة، بقدر من الاحترام، إنْ كان في استطاعتها أنْ تنوب عنه في الإجابة على المكالمة في حال لم يتمكن هو من فعل ذلك لأي سبب من الأسباب. سمعت الفتاة صوت الرجل كأنّه قادم من بعيد، وأدارت وجهها نحوه، وإحدى عينيها -على الجانب الذي يوجد فيه ضوء- مُغمَضَة بإحكام، وعينها المفتوحة كبيرة جداً، وإنْ بصورة مُخادعة، وزرقتها شديدة العمق حتى كادت تكون بنفسجية اللون. حثّها الرجل الأشيب على الإسراع، فنهضَتْ متكئة على ساعدها الأيمن بسرعة كافية بحيث لم تبدُ الحركة لا مبالية. أزاحت شَعرها عن جبينها إلى الخلف بيدها اليُمنى وقالت، «يا إلهي، لا أعلم. ما رأيك أنت؟» قال صاحب الشعر الأشيب إنّه لا يعتقد أنّ هذا يشكل أي فرق بصورة أو بأخرى، ودسَّ يده اليُسرى تحت ذراع الفتاة الداعمة، من فوق المِرفق، متغلغلاً بأصابعه نحو الأعلى، فاسحاً حيزاً للأصابع بين الأسطح الدافئة للجزء العلوي من ذراعها وجدار الصدر. مدَّ يده اليُمنى نحو جهاز الهاتف. ولكي يصل إليها من دون أنْ يتلمّس طريقه، كان عليه أنْ يرتفع قليلاً، مما جعل خلفيّة رأسه تحفّ بزاوية مظلّة المصباح. وفي تلك اللحظة، كان الضوء، على وجه الخصوص يُطري، وإنْ بحيويّة، شَعره الأشيب، الأبيض في مُعظمه. وعلى الرغم من أنّه في تلك اللحظة كان جليّاً أنّه قُصَّ حديثاً – أو بالأحرى، سُرِّحَ مؤخّراً، وإنْ بطريقة مُشوّشة. كانت حافة العنق والصدغان قد شذّبت بشكل قصير جداً بالطريقة التقليديّة، لكنَّ شعر الجانبين وقمة الرأس فقد تُرِكَ أطول بمقدار أكبر، وفي الحقيقة بدا مُميَّزاً قليلاً. قال في الهاتف، بصوت رنّان، «ألو؟». بقيت الفتاة مُستندة إلى ساعدها وراقبته.

وعكست عيناها، اللتان لم تكونا فقط مفتوحتين بل يقظتين أو تتأملان، حجمهما ولونهما.

وصله من الطرف المقابل للهاتف صوت رجل - خال من الإحساس، لكنّه كان حيوياً بفظاظة، تكاد تبلغ حد البذاءة بالنسبة إلى المناسبة: «لي؟ هل أيقظتك؟»

ألقى الرجل الأشيب نظرة خاطفة إلى يساره، إلى الفتاة. سأل «من المتكلِّم؟ آرثر؟»

«نعم - هل أيقظتك؟»

«كلا، كلا. أنا في السرير، أقرأ. هل من خطب؟»

«أواثقٌ أنتَ من أنني لم أوقظك؟ صدقاً؟»

قال الأشيب، «كلا، كلا -حتماً. في الواقع، كنتُ أعمل على مدى حوالي أربع ساعات طوال-»

«إنَّني اتّصل بك، يا لي، لأسألك هل صادف أنْ لاحظتَ متى غادرتْ جوني؟ هل لاحظتَ بالمصادفة إنْ كانت قد غادرت مع عائلة إلينبوغن؟»

من جديد نظر الرجل الشائب جهة اليسار، ولكنه نظر عالياً هذه المرَّة، بعيداً عن الفتاة التي كانت الآن تراقبه كرجل شرطة أيرلندي شاب، أزرق العينين. قال، وعيناه تنظران إلى الطرف القصيّ، المُعتِم من الغرفة، حيث يلتقي الجدار بالسقف، «كلا، لم ألاحظ، يا آرثر. ألم تغادر معك؟»

«كلا. يا إلهي، كلا. إذن أنت لم ترها وهي تغادر؟»

قال الأشيب، «في الواقع، كلا، لم أرها، يا آرثر. في الحقيقة، لم أر أي شيء لعين طوال الأمسية. وحالما اجتزتُ الباب، تورطت في جلسة طويلة جداً مع ذلك الهراء الفرنسي، هراء من فيينا - كائناً ما كان. وكل فرد من أولئك الأجانب فتح عينيه واسعاً استعداداً لتلقّي نصيحة قانونيّة صغيرة مجّانيّة؟ لمَ؟ ما الأمر؟ هل ضاعتْ جوني؟»

«أوه، يا إلهي. مَنْ يدري؟ أنا لا أعلم. أنت تعرف كيف تتصرَّف عندما تسكر وتتوق إلى المغادرة. لا أعلم. لعلها فقط-»

سألَ الأشيب، «هل اتّصلتَ بآل إلينبوغن؟»

«نعم. لم يعودوا إلى المنزل بعد. لا أعلم. يا إلهي، إنني حتى لستُ متأكّداً من أنها غادرتهم. كل ما أعرف. الشيء الوحيد اللعين الذي أعرف هو أنني سئمت التفكير في الأمر. أنا جادّ هذه المرّة. لقد سئمت. لقد مرّتْ خمس سنوات، يا إلهي»

قال الأشيب، «حسن، حاول أنْ تُهدِّئ من روعك الآن يا آرثر. أولاً، حسب معرفتي بآل إلينبوغن، لعلهم جميعاً استقلوا سيارة أجرة وذهبوا إلى منطقة فيليج لقضاء بعض الوقت. لعل الثلاثة يمرحون–»

«لديّ إحساس بأنها ذهبتْ لكي تعبث مع أحد أولاد الحرام في المطبخ. إنّه مجرد إحساس. إنها دائماً تبدأ بمعانقة ابن حرام في المطبخ عندما تسكر. لقد سئمت. أُقسِم بالله أنا جادّ هذه المرَّة. خمس–»

سأله الأشيب «أين أنت الآن، يا آرثر؟ في المنزل؟»

«نعم. في المنزل. المنزل العزيز. يا إلهي»

«حسن، حاول أنْ تتفهّم الوضع قليلاً –ما خطبك– أأنتَ ثمل، أم ماذا؟»

«لا أعلم. ما أدراني؟»

قال الأشيب، «حسن الآن، اسمع. استرخ. فقط استرخ. أنت تعرف آل إلينبوغن طبعاً. لعلَّ ما حدث هو أنَّ القطار الأخير فاتهم. لعلَّهم ثلاثتهم سوف يدخلون عليك في أيّة لحظة، ممتلئين بروح المرح–»

«لقد وصلوا»

«كيف عرفت؟»

«من جليسة أطفالهم. دارت بيننا أحاديث خاطفة. إننا متقاربان كثيراً. كحبتي فول»

قال الأشيب، «حسن. حسن. ماذا إذن؟ هلا جلستَ الآن وهدأتْ؟ قد يدخلون عليك في أيّة لحظة وهم يرقصون. صدّقني. أنت تعرف ليونا. أنا لا أعرف ما هذا – إنهم جميعاً ينغمسون في مرح سكان كونكتيكت الفظيع عندما يأتون إلى نيويورك. أتعلم هذا»

«نعم. أعلم. أعلم. ومع ذلك، لا أعلم»

«طبعاً تعلم. استخدم مخيلتك. لعل الاثنين يجرّان جوني بالمعنى الحرفيّ للكلمة-»

«اسمع. لا أحد اضطرّ أبداً إلى جرّ جوني في أي مكان. فلا تحدثني عن أي عمليّة جرّ»

قال الأشيب بهدوء «لا أحد يتحدث عن عمليّة جرّ، يا آرثر»

«أعلم، أعلم! عُذراً. يا إلهي، إنني أفقد عقلي. صدقاً، أواثق أنتَ من أنني لم أوقظك؟»

قال الأشيب «سوف أخبرك إذا فعلتَ هذا». أبعدَ يده اليُسرى، بحركة شاردة، عن الجزء العلويّ من ذراع الفتاة وجدار صدرها. قال «اسمع، يا آرثر، أتريد نصيحة مني؟». أمسك سلك الهاتف بين أصابعه، من تحت جهاز الإرسال. «أنا جادّ في هذا. أتريد نصيحة مني؟»

«نعم. لا أعلم. يا إلهي. إنني أمنعك من النوم. لِمَ لا أذهب وأقطع-»

قال الأشيب «أصغِ إليّ قليلاً. أولاً -أنا جادّ في هذا- اذهب إلى السرير واسترخ. اصنع لنفسك كأساً كبيرة من شراب لذيذ، وتدثّر-»

«شراب قبل النوم! أتمزح؟ يا إلهي، لقد استهلكت ما يُقارب ربع غالون من الشراب خلال الساعتين اللعينتين الأخيرتين. شراب قبل النوم! إنني الآن ثمل إلى درجة أنني أكاد لا-»

قال الأشيب، «حسن. حسن. اذهب إلى السرير إذن، واسترخ - أتسمعني؟ قُل الحقيقة. هل سيفيدك أنْ تبقى يقظاً وتعاني الحرّ؟»

«نعم. أعلم. لا أريد أنْ أقلق، وحقّ الله، ولكنْ لا يمكن الوثوق بها! أُقسم بالله. أُقسم بالله لا يمكن. تستطيع أنْ تثق بها بقدر ما تستطيع أنْ ترمي - لا أعلم ماذا. آآه، ما الفائدة؟ أكاد أفقد عقلي»

قال الأشيب، «حسن. دعك من هذا الآن. هلّا تقدِّم لي معروفاً وتطرح الموضوع من تفكيرك؟ حسب عِلمي، أنت تصنع -أعتقد حقاً أنكَ تصنع جبلاً من-»

«أتعلم ماذا أفعل؟ أتعلم ماذا أفعل؟ أخجل أنْ أخبرك، ولكنْ أتعلم ماذا أفعل في كل ليلة لعينة تقريباً؟ عندما أعود إلى المنزل؟ أتريد أنْ تعرف؟»

«آرثر، اسمع، هذا ليس–»

«انتظر لحظة –سأخبرك، اللعنة. إنني بالمعنى الحرفي يجب أنْ أمنع نفسي من فتح كل باب مُغلق لعين في الشقّة– أقسم بالله. في كل ليلة أعود إلى المنزل وأنا شبه متيقّن من أنني سوف أجد حفنة من أولاد الحرام مُختبئين في أرجاء المكان كلّه. صِبية المصاعد. صِبية توصيل الطلبات. رجال شرطة–»

قال الأشيب، «حسن، حسن. دعنا نهدِّئ من روعنا، يا آرثر»، وألقى نظرة سريعة إلى يمينه، حيث كانت السيجارة المشتعلة منذ وقت مبكّر من الأمسية في وضعيّة متوازنة على منفضة. ولكن من الواضح أنها انطفأتْ، ولم يرفعها. قال في فوهة الهاتف، «أولاً، كم من مرَّة أخبرتك، يا آرثر، أنك هنا بالضبط ترتكب أفدح أخطائك. أتعلم ماذا تفعل؟ أتريد مني أنْ أخبرك ماذا عليك أنْ تفعل؟ ابتعد –أنا جادّ في هذا– أنت في الواقع تبتعد لكي تعذِّب نفسك. وفي الحقيقة، أنت تُلهِم جوني»، وسكت فجأة. «أنت محظوظ جداً لأنها فتاة رائعة. أنا جادّ. إنكَ لا تُقدِّر تلك الفتاة الرائعة على جودة ذائقتها –أو مقدرتها العقليّة في هذا المجال، وحقّ الله–»

«مقدرة عقليّة! أتمزح؟ إنها لا تملك أي عقل! إنها حيوان!»

بدا أنَّ الأشيب يأخذ نَفَساً عميقاً، وأنَّ منخريه يتّسعان. قال «نحن حيوانات، في الأساس، نحن حيوانات»

«هذا غير صحيح. أنا لستُ حيواناً. قد أكون أحمق، ابن حرام مُشوَّش من القرن العشرين، لكني لستُ حيواناً. لا تقُل هذا، لستُ حيواناً»

«اسمع، يا آرثر. هذا لن يوصلنا إلى–»

«مقدرة عقليّة. يا إلهي، ليتك تعلم كم هذا مُضحك. إنها تعتقد أنها مُثقّفة. هذا هو الجزء المُضحك، هذا هو الجزء المُضحك إلى أقصى درجة. إنها تقرأ النصّ المسرحيّ، وتشاهد التلفزيون حتى تكاد تُصاب بالعمى الحقيقيّ –إذن هي مُثقّفة. أتعلمْ ممَّن أنا متزوج؟ أتريد أنْ تعرف ممَّن أنا

متزوج؟ أنا متزوج من أعظم ممثّلة مغمورة، مُبتدئة على قيد الحياة، وروائيّة، ومُحلِّلة نفسيّة، وعبقريّة مشهورة لم تأخذ حظّها في نيويورك. أنت لا تعلم هذا، أليس كذلك؟ يا إلهي، إنَّ الأمر مُضحك إلى درجة أنَّ في استطاعتي أنْ أحزّ عنقي. مدام بوفاري في مدرسة كولومبيا الشاملة. مدام-»

سأل الأشيب، بنبرة صوت منزعجة «مَنْ؟»

«مدام بوفاري تأخذ دورة في استحسان التلفزيون. يا الله، لو كنت تعلم كيف-»

قال الأشيب «حسن، حسن. أنتَ تعلم أنَّ هذا الكلام لا يوصلنا إلى أيّة نتيجة»، والتفت وأشار إلى الفتاة، واضعاً إصبعين بالقرب من فمه، أي أنّه يُريد سيجارة. قال، في فوهة الهاتف، «أولاً، بوصفكَ رجلاً عالي الذكاء، أنت شخص تنقصه اللباقة القُصوى». جلس باستقامة لكي تتمكن الفتاة من مدّ يدها من خلفه لتتناول السجائر. أنا جادّ. هذا ظاهر في حياتك الخاصّة، وظاهر في-»

«عقل. أوه، يا إلهي، هذا يصرعني! يا إلهي الجبار! هل سمعتها مرَّة وهي تصف أيّ شخص -أعني، أي رجل؟ أحياناً عندما لا يكون لديك ما تفعل، قدِّم لي معروفاً واجعلها تصِف أحد الرجال لك. إنها تصِفُ كل رجل تراه بأنّه «ذو جاذبية طاغية». قد يكون أكبر الرجال سناً، وتفاهة، وقذارة-»

قال الأشيب بحِدّة، «حسن، حسن. هذا لا يوصلنا إلى أي شيء». تناول سيجارة مُشتعلة من الفتاة. كانت قد أشعلتْ اثنتين. قال، وهو ينفث الدخان من منخريه «بالمناسبة، كيف حالك اليوم؟»

«ماذا؟»

كرّر الأشيب السؤال «كيف حالك اليوم؟ كيف تسير القضيّة؟»

«أوه، يا الله! لا أعلم. سيئة. قبل أنَّ أبدأ بعمليّة جمع مواد القضيّة بدقيقتين، دخل مُحامي الادّعاء، ليسبرغ، إلى غرفة الخادمة الجنونيّة مع حملٍ من أغطية الأسرَّة يستخدمها دليلاً - ومكسوّة ببقع عثّ الفراش. يا إلهي!»

سأل الأشيب، وهو يستنشق من جديد دخان سيجارته، «ماذا حدث؟ أخسرت القضيّة؟»

«أتعلم مَنْ كان جالساً على مقعد القاضي؟ إنه موذر فيتوريو. ماذا لدى ذلك الرجل ضدي، لن أعرف أبداً. ما إنْ أفتح فمي حتى يثب عليّ. لا يمكن النقاش مع رجل كهذا. هذا مستحيل»

أدار الأشيب رأسه ليرى ما تفعل الفتاة. كانت قد رفعت منفضة السجائر ووضعتها بينهما. قال في فوهة الهاتف «هل خسرت، أم ماذا؟»

«ماذا؟»

«قلت، هل خسرت؟»

«نعم. كنتُ أنوي أنْ أحكي لك عن هذا. لم تُتح لي الفرصة في الحفلة، بسبب وجود كل ذلك الصخب. أتعتقد أنَّ جونيور سيستشيط غضباً؟ لا يهمني، ولكن ما رأيك؟ أتعتقد أنّه سيُجنّ؟»

وضع الأشيب رماد سيجارته الذي على حافة المنفضة، بيده اليُسرى.

قال بهدوء، «لا أعتقد أنّه بالضرورة سيستشيط غضباً، يا آرثر. لكنَّ الظروف بدرجة عالية تقول إنّه سوف يبتهج بالأمر. أتعلم كم بقينا نُدير تلك الفنادق اللعينة الثلاثة؟ والعجوز شانلي بنفسه باشر كامل الـ-»

«أعلم، أعلم. لقد أخبرني جونيور عن هذا على الأقل خمسين مرّة. إنّها إحدى أشدّ أجمل القصص التي سمعتها في حياتي. حسن، لقد خسرتُ القضيّة. أولاً، الخطأ ليس خطأي. أولاً، هذا المجنون فيتوريو أخذ يُضايقني طوال فترة المُحاكمة. ثم بدأتْ تلك الخادمة الحمقاء بإخراج تلك الأغطية المملوءة بعثّ الفراش-»

لا أحد يقول إنّه خطؤك، يا آرثر. أنت سألتني إنْ كنتُ أعتقد أنَّ جونيور سيستشيط غضباً، وأنا أعطيتك ببساطة جواباً صادقاً-»

«أعلم - أعلم ذلك... لا أعلم. لا يهمّ. على أي حال قد أعود إلى الانخراط في الجيش. هل أخبرتك عن هذا؟»

أدار الأشيب رأسه من جديد نحو الفتاة، ربما لكي يُبيِّن لها كيف أنَّ قسمات وجهه غير متأثّرة، بل خالية من الانفعال. لكنَّ الفتاة لم تر ذلك. كانت قد قلبتْ تواً المنفضة برُكبتها وقامت بسرعة بنفض الرماد المتناثر،

بأصابعها، وجمْعِه على شكل ركام صغير؛ رفعتْ عينيها إليه متأخّرة. قال الأشيب «قال في الهاتف، كلا، لم تُخبرني، يا آرثر»

«نعم. ربما. لا أعلم حتى الآن. لستُ مولعاً بالفكرة، طبعاً، ولن أذهب إذا استطعتُ تجنب الأمر. ولكن قد أُضطرّ. لا أعلم. على الأقلّ، أصبح أمراً منسيّاً. إذا أعادوا إليّ خوذتي الصغيرة وطاولة كتابتي الكبيرة، الضخمة، وشبكة الوقاية من الناموس الكبيرة فقد لا-»

قال الأشيب «أودّ أنْ أُدخِل بعض الحسّ السليم إلى رأسك، يا فتى، هذا ما أودّ أنْ أفعل. بوصفك -بوصفك رجلاً من المُفتَرَض أنّه ذكيّ، تتكلَّم كأنك طفل صغير. وأنا أقول هذا بكل صدق. لقد سمحتَ لحفنة من الأشياء الضئيلة عديمة الأهميّة أنْ تكتسب أهميّة كبيرة في تفكيرك بحيث لم تعُد صالحة لأي-»

«كان ينبغي أنْ أتركها. أتعلم هذا؟ كان ينبغي أنْ أُنهي الأمر في الصيف الفائت، في ذروة الوضع - أتعلم هذا؟ أتعلم لِمَ لم أفعل؟ أتريد أن تعرف لمَ لم أفعل؟»

«آرثر، حباً لله، هذا الموضوع لا يوصلنا إلى أيّة نتيجة»

«انتظر لحظة. دعني أخبرك عن السبب! ألا تريد أنْ تعرف لِمَ لم أفعل؟ أستطيع أنْ أخبرك عن السبب بالضبط. لأنني شعرت بالرثاء لأجلها. هذه هي الحقيقة البسيطة كلها. شعرتُ بالرثاء لأجلها»

قال الأشيب «حسن، لا أعلم. أعني أنَّ هذا خارج سلطتي. ولكن يبدو لي أنَّ الشيء الوحيد الذي يبدو أنك نسيته هو أنَّ جوني امرأة ناضجة. لا أعلم، ولكن يبدو لي-»

«امرأة ناضجة! أمجنون أنت؟ إنها ما زالت طفلة، حبّاً بالله! اسمع، بينما أحلق ذقني -أصغ إلى هذا- بينما أحلق ذقني، وفجأة إذا بها تهتف لي من آخر نقطة في الشقّة. وأذهب لأرى ما الأمر - وأنا وسط حلاقتي لذقني، والصابون يُغطي وجهي كله. أتعلم ماذا تريد؟ تريد أن تسألني إنْ كنتُ أعتقد أنها صاحبة عقلٍ راجح. أُقسم بالله. إنها تُثير الرثاء، أؤكد لك. إنني أراقبها وهي نائمة، وأنا أعرف ماذا أقول. صدّقني»

قال الأشيب «حسن، هذا شيء تعرفه أنت أكثر -أعني أنَّ هذا خارج سلطتي. النقطة الهامة هي، اللعنة، ليس في وسعك أنْ تفعل أي شيء بنّاء لـ-»

«إنَّ زواجنا فاشل، هذا هو لبّ الموضوع. هذه هي القصة الكاملة البسيطة. زواجنا فاشل تماماً. أتعلم مَنْ تحتاج؟ إنها تحتاج إلى ابن حرام ضخم صامت تعامله بازدراء بين حين وآخر ويقتلها -ثم يعود لكي يُنهي قراءة صحيفته. هذا ما تحتاج إليه. أنا شديد الضعف ولا أصلح لها. علِمتُ ذلك بعد أنْ تزوجنا- أُقسم بالله. أعني أنت ابن حرام ذكي، ولم تتزوج قط، ولكن بين حين وآخر قبل أنْ يتزوج رجل، تومض في ذهنه رؤيا حول كيف ستكون الحياة بعد الزواج. أنا أهملتها، أهملتُ تلك الومضات كلها. إنني ضعيف. هذا هو جوهر الأمر»

قال الأشيب، وهو يقبل سيجارة مُشتعلة حديثاً من الفتاة، «أنت لستَ ضعيفاً. كل ما في الأمر أنكَ لا تستخدم عقلك»

«طبعاً أنا ضعيف! أنا ضعيف حتماً! اللعنة، أنا أعرف إنْ كنتُ ضعيفاً أم لا! ولو لم أكنْ ضعيفاً لما اعتقدتَ أنني سأترك كل - آه، ما فائدة الكلام؟ أنا حتماً ضعيف؟... يا الله، إنني أُبقيكَ يقظاً طوال الليل. لِمَ لا تقطع خط الهاتف في وجهي؟ أنا جادّ. اقطع الخط في وجهي»

قال الأشيب «لن أقطع خط الهاتف في وجهك، يا آرثر، أريد أنْ أساعدك، إنّ كان هذا ممكناً من الناحية الإنسانيّة. في الحقيقة، أنت أسوأ أعداء نفسك-»

«إنها لا تحترمني، بل لا تحبّني، وحقّ الله. في الأساس -في النتيجة النهائيّة- أنا أيضاً لم أعُد أحبّها. لا أعلم. أحبّها ولا أحبّها. الوضع يختلف، يتذبذب. يا إلهي! كلما تمكنتُ من وضع الأمور في نصابها، نخرج لنتناول وجبة العشاء، لسببٍ ما، وأضرب لها موعداً في مكانٍ ما وتأتي مرتدية ذلك القفاز اللعين أو أي شيء. أضطرب. أو أفكّر في المرة الأولى التي أتينا بها بالسيارة إلى نيو هافن لمشاهدة مباراة برينستون. وحصلنا على شقّة بعد أنْ تركنا باركواي، وكانت شديدة البرودة، كانت تُمسك مصباح النور بينما أنا أُصلح ذلك الشيء اللعين -أنت تفهم ما أعني. لا أعلم. أو أبدأ بالتفكير

في– يا إلهي، أمرٌ مُحرِج –أفكّر في تلك القصيدة اللعينة التي أرسلتها إليها خلال الفترة الأولى من خروجنا معاً. «الوردي هو لوني المُفضَّل، والأبيض، فمي جميل وعيناي خضراوان»– إنَّ لديها عينين أشبه بأصداف البحر، وحقّ الله – لكنها أثارتْ لدي الذِكرى على أيّة حال... لا أعلم. ما فائدة الكلام؟ أكاد أفقد عقلي. اقطع خط الهاتف في وجهي، لِمَ لا تفعل؟ أنا جادّ»

تنحنحَ الرجل الأشيب وقال، «ليست لديّ أيّة نيّة في قطع خط الهاتف في وجهك، يا آرثر. ثمة فقط شيء واحد–»

«ذات مرّة اشترتْ لي بذلة، من حرّ مالها، هل أخبرتك عن هذا؟»

«كلا، أنا–»

«أعتقد أنها ذهبتْ إلى محلات تريبلر واشترتها. إنني حتى لم أرافقها، أعني أنها كانت تتصِف ببعض المزايا الحسنة. والغريب في الأمر هو أنَّ البذلة لا بأس بها. اضطررتُ فقط إلى قصّ جزء منه عند المقعدة –أقصد البنطلون– ومن الطول. أعني أنها كانت تتصف ببعض المزايا الجيدة»

أصغى الرجل الأشيب برهة أخرى.

ثم، وبسرعة، التفت نحو الفتاة. والنظرة التي رماها بها، على الرغم من قِصَرها، أنبأتها فجأة بما كان يجري على الطرف المقابل من الهاتف. قال في فوهة الهاتف «والآن، يا آرثر، اسمع. هذا لن يفيد أبداً. أنا جادّ. والآن، اسمع. أقول هذا بكل صدق. هلّا بدّلتَ ملابسك وأويتَ إلى السرير، كأي رجل طيب؟ واسترخيت؟ ربما ستصل جوني في غضون دقيقتين. ولا أعتقد أنكَ تريد أنْ تراك وأنت على هذا الحال، أليس كذلك؟ وقد يأتي معها آل إلينبوغن اللعينين. وأنت لن ترغب في أنْ تدخل معها المجموعة كلها ويروا ما أنتَ عليه، أليس كذلك «أصغى. آرثر؟ أتسمعني؟»

«يا إلهي، إنني أبقيك يقظاً طوال الليل. إنَّ كل ما أفعل، أنا–»

قال الأشيب «أنت لا تمنع عني النوم طوال الليل. لا تفكّر في هذا. لقد أخبرتك تواً، إنني أنام معدل أربع ساعات كل ليلة. ولكنْ ما أريد أنْ أفعل، إن كان ذلك ممكناً من الناحية الإنسانيّة، هو أنْ أُقدِّم لك يد المساعدة، يا بنيّ» وأصغى. «آرثر؟ أما تزال هنا؟»

«نعم. أنا هنا. اسمع. لقد أبقيتك يقظاً طوال الليل في كل الأحوال. هل أستطيع أنْ آتي إلى بيتك لأتناول مشروباً؟ ألديك مانع؟»

جلس الرجل الأشيب باستقامة ووضع راحة يده فوق رأسه، وقال «تقصد، الآن؟»

«نعم. أعني إنْ لم يكن لديك مانع. لن أمكث أكثر من دقيقة. أودّ أنْ أجلس في مكان ما و – لا أعلم. ألديك مانع؟»

قال الأشيب، وهو يُنزِل يده عن رأسه «لا مانع، لكنَّ المشكلة هي أنني لا أعتقد أنك يجب أنْ تأتي، يا آرثر. أعني أهلاً وسهلاً بك وعلى الرحب والسِعة، ولكنّني أعتقد صادقاً أنَّ عليك أنْ تبقى في مكانك وتسترخي إلى أنْ تدخل جوني عليك. ألستُ على صواب؟»

«نعم. لا أعلم. أقسم بالله لا أعلم»

قال الرجل الأشيب، «حسن، أما أنا فأجد ذلك صواباً. أجده كذلك صدقاً. اسمع، لِمَ لا تأوي إلى السرير الآن، وتسترخي، ولاحقاً، عندما تشعر بالرغبة في المجيء اتّصل بي. أعني إذا رغبتَ في إجراء حديث. ولا تقلق. هذا أهمّ شيء. أتسمعني؟ هلّا فعلتَ هذا الآن؟»

«حسن»

أبقى الرجل الأشيب سمّاعة الهاتف قريبة من أُذنه برهة أخرى، ثم أنزلها إلى مُستقرّها.

سألتْه الفتاة «ماذا قال؟». رفع سيجارته عن المنفضة – أي، انتقاها من ركام من سجائر لم يُكمِل تدخينها وينبعث منها الدخان، واستنشق منها وقال «يريد أنْ يأتي إلى هنا لكي يتناول مشروباً»

قالتِ الفتاة «يا إلهي! وماذا قلت؟»

قال الأشيب «لقد سمعتني»، ونظر إليها. «سمعتني، أليس كذلك؟»، وسحقَ سيجارته.

قالت الفتاة، وهي تراقبه، «كنتَ رائعاً. بل ممتازاً. يا إلهي، أشعر كأنني كلب!»

قال الأشيب «حسن، إنه وضع صعب. لا أعلم كيف يمكن القول إنني كنتُ رائعاً»

قالت الفتاة «كنتَ كذلك. كنتَ رائعاً. أنا مُعاقة. أنا عاجزة تماماً. انظر إليّ!»

نظر الأشيب إليها. قال «حسن، في الحقيقة، إنه وضع لا يُطاق. أعني أنَّ الأمر برمّته غريب إلى درجة أنّه ليس–»

قالت الفتاة بسرعة «عُذراً، يا حبيبي»، ومالتْ إلى الأمام. «أعتقد أنك تحترق»، وأخذتْ تنفض ظاهر يده بحركات قصيرة ورشيقة بأصابعها المفتوحة. «كلا. إنه فقط رماد»، ثم عادت لتستند إلى ظهرها. قالت «كلا، بل كنتَ رائعاً. يا إلهي، أشعر كأنني كلب بكل معنى الكلمة!»

«حسن، إنّه وضع صعب ولا يُطاق. إنَّ الرجل يمرّ بظرف غاية في–»

فجأة رنَّ جرس الهاتف.

قال الأشيب «يا إلهي!»، لكنّه رفع السمّاعة قبل أنْ يرن مرة ثانية. قال فيها «ألو؟»

«لي؟ أكنتَ نائماً؟»

«كلا، كلا»

«اسمع، رأيتُ أنكَ ربما تريد أن تعرف. لقد وصلتْ جوني تواً»

قال الأشيب «ماذا؟»، وظلَّل عينيه بيده اليُسرى، على الرغم من أنَّ الضوء كان يأتيه من الخلف.

«نعم، دخلتْ ببساطة. بعد أنْ تحدثت معك ببضع ثوان. وفكّرتُ في أنّ أتّصل بك في أثناء وجودها في المرحاض. اسمع، شكراً جزيلاً، لي. أنا جادّ – أنت تعلم ما أعني. أنت لم تكن نائماً، أليس كذلك؟»

قال الأشيب، تاركاً أصابعه تُظلّل عينيه، «كلا. كلا. كنتُ فقط – كلا، كلا». وتنحنح.

«نعم. ما حدث هو أنَّه يبدو أنَّ ليونا ثملتْ ومن ثم أصبحتِ مرحة بصخب، وطلبَ بوب من جوني أنْ تخرج وتشاركهم الشراب في مكان ما ويُسوّي الوضع. لا أعلم. أنت تعلم. أنا متورط جداً. على أي حال، إذن

عادت إلى المنزل. يا له من سباق محموم. صدقاً، أعتقد أنَّ السبب هو تأثير نيويورك. أعتقد أننا سوف نفعل، إذا سار كل شيء على ما يُرام، سوف نعثر على مكان صغير ربما في كونكتيكت. ليس بعيداً جداً، بالضرورة، لكنّه على مسافة كافية لكي نعيش حياة طبيعيّة. أعني أنها مهووسة بالنباتات وبما شابه من أشياء. ولعلها سوف تُصاب بالجنون إذا أصبح لديها حديقتها الخاصة وما شابه. أتفهم ما أعني؟ أعني مَنْ نعرف -باستثنائك- في نيويورك غير حفنة من العُصابيين؟ إنَّ ذلك خليق بأنْ يدمِّر أي شخص طبيعيّ عاجلاً أو آجلاً. أتفهم ما أعني؟»

لم يُجب الرجل الأشيب. كانت عيناه مُغمضتين، خلف تظليل يده. «على أيّة حال، سوف أتحدث معها حول الأمر هذه الليلة. أو غداً، ربما. إنها ما زالتْ ثملة. في الأساس هي فتاة طيبة جداً، وإذا أُتيحتْ لنا فرصة لتسوية أمورنا قليلاً، فسوف نكون أغبياء إذا لم نحاول. وما دمت أخوض في هذا الموضوع، سوف أحاول أيضاً أنْ أُنظِّم هذه الفوضى القذرة من عثّ الفراش. كنتُ أفكِّر في هذا، وما زلتُ أفكر فيه، يا لي. أتعتقد أنني إذا تحدثت مع جونيور شخصيّاً، أستطيع-»

«آرثر، بعد إذنك، إنني أُحبِّذ-»

«أعني لا أريد منك أنْ تعتقد أنني اتّصلتُ بك من جديد لأنني قلق بشأن عملي، فهذا غير صحيح. أعني أنَّ هذا في الأساس هو آخر اهتماماتي. أنا فقط فكّرتُ في أنّه إذا كان في استطاعتي أنْ أُسوّي أموري مع جونيور من دون أنْ أُصاب بالجنون، فسوف أكون أحمق-»

قاطعه الأشيب، مُبعِداً يده عن وجهه، «اسمَع، يا آرثر، فجأة بدأتُ أشعر بصداع شديد، ولا أعرف سببه. هلّا سمحت بإنهاء الحديث؟ سوف نستأنف حديثنا في الصباح - اتّفقنا؟». استمرّ في الإصغاء برهة أخرى، ثم قطع الخط.

من جديد تحدثت الفتاة معه في الحال، لكنّه لم يُعطها جواباً. تناول سيجارة مشتعلة -سيجارة الفتاة- عن المنفضة وبدأ يُقرِّبها من فمه، لكنّها انزلقَتْ من بين أصابعه. فحاولت الفتاة أنْ تساعده في استعادتها قبل أنْ تتسبَّب في إحراق أي شيء، لكنّه أمرها بألّا تتحرّك من مكانها، فأبعدتْ يدها.

المرحلة الزرقاء
للرسّام دو دومييه - سميث

لو كان لذلك أي معنى حقيقيّ -وهو خالٍ من أي معنى- لرغبتُ في إهداء هذه القصّة، مهما كانت قيمتها، خاصّة إذا كان بعض أجزائها بعيداً كل البُعد عن السفاهة، لذكرى المرحوم زوج أمي السفيه، روبرت أغادغانيان الابن، أو بوبي -كما كان الجميع، بمَنْ فيهم أنا، نسمّيه- الذي توفي في عام 1947، غير نادم على أي شيء، وبلا أحزان، جرّاء إصابته بجلطة دمويّة. كان مُغامراً، يتمتّع بجاذبيّة طاغية، وكريماً. (بعد أنْ أمضيتُ سنوات عديدة في حسده باستمرار على استخدامه صِيَغ الوصف الخاصة بالمُشردين، أشعر بأنَّ إيرادها هنا هي مسألة حياة أو موت)

***

تمَّ الطلاق بين أمي وأبي خلال فصل الشتاء عام 1928، عندما كنتُ في الثامنة من العمر، ثم تزوجت أمي من بوبي أغادغانيان في أواخر ربيع ذلك العام. وبعد مرور عام، خسر بوبي وأمي في انهيار بورصة وول ستريت، كل ما يملكان، باستثناء، كما يبدو، عصا سحريّة. على أيّة حال، بين ليلة وضحاها، بالمعنى الحرفيّ للعبارة، تحوّلَ بوبي من سمسار بورصة شبه ميت ومُحبّ مولع بالحياة المُترفة عاجز إلى وكيل تقييم أعمال فنيّة حيويّ يعمل لمصلحة جمعيّة معارض فنيّة أميركيّة مُستقلّة ومتاحف للفنون الجميلة، وإنْ لم يكن مؤهّلاً تماماً لذلك. وبعد مرور بضعة أسابيع، في أوائل عام 1930، انتقلنا نحن الثلاثة من نيويورك إلى باريس، لمصلحة بوبي لكي يمارس عمله الجديد. ولما كنتُ هادئاً، إذا لم أقُل شديد البرودة،

وفي العاشرة من العمر في ذلك الوقت، اتّخذتُ الخطوة الكبيرة بلا آثار مَرَضيّة، حسب تقديري.

أتذكّر حادثة ذات مغزى وقعتْ بعد وصول بوبي إلى نيويورك بيوم أو يومين. كنتُ أركبُ واقفاً حافلة جادة لكسينغتن الشديدة الازدحام، متمسّكاً بالعمود المكسو بالمينا بجوار مقعد السائق، مضغوطاً مع الرجل الواقف خلفي. كان السائق خلال مسافة ليست بالطويلة يُعطي باستمرار أوامر جافّة ومُقتضَبة للمضغوطين معاً منا بالقرب من الباب الأمامي لكي «نعود إلى مؤخر الحافلة». حاول بعضنا أنْ يرضخ لأوامره، والبعض الآخر لم يرضخ. وأخيراً، ظهرت إشارة المرور الحمراء لمصلحته، فالتفت الرجل المنزعج الجالس على مقعده ونظر إليّ، أنا الواقف خلفه مباشرة. وأنا في سن التاسعة عشرة كنتُ من النوع الذي لا يعتمر قبعة، مع تسريحةٍ يرتدُ الشَعر فيها إلى الخلف بشكل مباشر، أسود اللون، وليس نظيفاً جداً، على طريقة أهالي المستعمرات، فوق مقدار بوصة مكسورة من الجبين. خاطبني بنبرة صوت منخفضة، شبه حذرة، «حسناً، يا هذا، تحرَّكْ من مكانك». أعتقد أنَّ كلمة «يا هذا» هي التي أثارتني. ومن دون حتى أنْ أزعج نفسي بالانحناء قليلاً -أي، على الأقلّ لكي أُحافِظ على الطابع الخاص للحديث، كما يفعل أصحاب الذوق الرفيع، وحاول هو أنْ يتصرَّف هكذا- أبلغتُه، بالفرنسيّة، بأنّه رجل فظّ، وغبي، وأحمق مُتغطرس، وأنّه لا يعرف كم أمقته. ثم تراجعتُ إلى خلفيّة الحافلة، بحركة متباهية.

وازدادت الأمور سوءاً. فذات يوم، بعد ذلك بأسبوع أو نحوه، وأنا خارج من فندق الريتز، حيث كنتُ أنا وبوبي نتوقف دائماً، بدا لي أنَّ كل المقاعد التي في الحافلات في نيويورك فُكَّتْ من أماكنها وأُخرِجَتْ ووُضِعَتْ في الشارع، حيث كانت لعبة الكراسي الموسيقيّة الشنيعة تجري على قدم وساق. أعتقد أنّه كان يمكن أنْ أرغب في الاشتراك في اللعبة لو أنَّ كنيسة مانهاتن منحتني إعفاءً خاصّاً يضمن لي أنْ يبقى اللاعبون الآخرون كلهم واقفين باحترام ريثما أجلس. وعندما بات جليّاً أنَّ لا شيء من هذا سيحدث، سلكتُ سلوكاً مباشَراً أكثر، صلّيت متمنياً أنْ تخلو المدينة من الناس، لكي أحظى بهِبة البقاء وحدي، و -ح-د- ي، وهي الصلاة الوحيدة التي نادراً ما

تضيع هباءً أو تتأخّر في الوصول، وفي الحال تحوّل كل ما لمستُ إلى وحدة مُطلقة. كنتُ في أوقات الصباح وبعد الظهيرة أحضر -شخصياً- دروساً في مدرسة للفنون عند تقاطع الشارع الثامن والأربعين وجادّة لكسينغتن، وكرهتها. (قبل أنْ نغادر أنا وبوبي باريس، فزتُ بأول ثلاث جوائز في المعرض الوطني للأحداث، أُقيمَ في معرض فرايبرغ. وفي أثناء الرحلة البحرية إلى أميركا، استخدمتُ مرآتنا في حجرتنا الخاصة لكي ألاحظ شبهي الجسديّ المدهش بالرسام إل غريكو). كنتُ أقضي بعد ظهيرة ثلاثة أيام في الأسبوع على كرسي طبيب الأسنان حيث، في غضون فترة لبضعة أشهر، نزعتُ ثماني من أسناني، ثلاث منها أماميّة. واليومان الآخران كنتُ أمضيهما في المعتاد في التجوال بين معارض الفنون، في الغالب في الشارع السابع والخمسين، حيث لم أكنْ أفعل سوى أنْ أطلب من الرواد الأميركيين أنْ يسكتوا. وفي الأمسيات كنت في العموم أقرأ. واشتريت مجموعة كاملة من سلسلة مطبوعات دار هارفرد من الروايات الكلاسيكيّة -والسبب الرئيسي لذلك هو أنَّ بوبي قال إنه ليس لدينا حيِّز كافٍ لها في جناحنا- وقرأت بحماقة المجلدات الخمسين كلّها. وفي أوقات الليل، كنت على الدوام تقريباً أضع حامل لوحاتي بين السريرين التوأم في الغرفة التي أتقاسمها مع بوبي، وأرسم. وخلال شهر واحد، وفقاً لِما ورد في مذكراتي لعام 1939 أكملتُ رسم اللوحات الثماني عشرة. والجدير بالذكر، أنَّ سبع عشرة منها كانت صور ذاتية. ولكن أحياناً، عندما تكون ملكة إلهامي متقلّبة النزوات، أضع لوحاتي جانباً وأرسم رسوماً هزليّة. وما زلت أحتفظ بأحدها، يُبيِّن عرضاً لغور فم رجل يتفحّصه طبيب أسنانه. ولسان الرجل له ببساطة شكل ورقة نقديّة من فئة المئة دولار من إصدار وزارة الماليّة الأميركيّة، وطبيب الأسنان يقول بحزن، بالفرنسيّة، «أعتقد أنَّ في استطاعتنا أنْ ننقذ الضرس، ولكن أخشى أنَّ اللسان يجب أنْ يبرز نحو الخارج». وكان الرسم هو أحد الأنشطة الكبرى المُفضَّلة لديّ.

بما أننا نتقاسم غرفةً واحدة، لم نكن أنا وبوبي أكثر ولا أقلّ انسجاماً من، على سبيل المثال، طالب متقدّم في جامعة هارفرد منطوٍ على نفسه بشكل استثنائيّ، وبائع صحف في كمبريدج بغيض إلى أقصى مدى. ومع

مرور الأسابيع، عندما اكتشفنا أننا نحن الاثنين واقعان في حب المرأة الميتة نفسها، لم يكن لذلك الاكتشاف أي نفع. في الحقيقة، لقد نشأتْ عن هذا الاكتشاف علاقة رسميّة صغيرة مُخيفة. وبدأنا نتبادل الابتسامات المُفعمة بالحياة كلما تصادف أنْ تلاقينا على عتبة باب الحمّام.

***

في أحد أسابيع شهر أيار من عام 1939، بعد مرور عشرة أشهر من نزولنا أنا وبوبي في فندق الريتز، شاهدتُ في إحدى صحف كيبيك (واحدة من ست عشرة صحيفة ودوريّة تصدر بالفرنسيّة تورطتُ في الاشتراك فيها) إعلاناً تجاريّاً احتلَّ ربع صفحة وضعَتْه إدارة مدرسة الفنون بالمراسلة في مونريال، وينصح كل المُعلّمين المؤهّلين -في الواقع، وحسب ما ورد فيه، فإنه لا يمكن أنْ ينصح المحظوظين- بتقديم طلب على الفور للعمل في أحدث مدارس الفن بالمراسلة، وأكثرها تقدّماً، في كندا. ويشترط الإعلان أنْ يُحسِن المُعلّمون المُرشّحون بطلاقة اللغتين الفرنسيّة والإنكليزيّة، وأنّ أصحاب العادات المعتدلة والشخصيات المثاليّة هم المطلوبون. وكانت الجلسة الصيفيّة في ليزامي ديه فيو ميتر ستُفتتح رسمياً في العاشر من شهر حزيران. وقد قيل إنَّ نماذج من الأعمال يجب أنْ تمثّل المجالين الأكاديميّ والتجاريّ معاً في الفن، ويجب تسليمها إلى المسيو إ. يوشوتو، المدير، وكان في السابق يعمل في الأكاديميّة الإمبراطوريّة للفنون الجميلة، في طوكيو.

وفي الحال، قمت، شاعراً بأنني مُؤهّل بلا دعم خارجي، بإخراج آلة بوبي الكاتبة من ماركة هرمز -بيبي من تحت سريره ورحتُ أكتب، بالفرنسيّة، رسالة طويلة، بإسراف، موجّهة إلى المسيو يوشوتو- متغيّباً عن دروسي الصباحيّة في مدرسة الفنون في جادّة لكسينغتن لكي أكتبها. والفقرة الافتتاحيّة امتدت ثلاث صفحات، وكادت تكون بلا معنى. قلتُ فيها إنني في التاسعة عشرة وإنني أحد أقارب الرسّام هونوريه دوميه. وقلت إنني تركت ضيعتي الصغيرة في جنوب فرنسا، إبّان وفاة زوجتي، لكي آتي إلى أميركا وأُقيم -مؤقّتاً، كما وضّحت- مع أحد أقربائي المرضى. قلت إنني أرسم منذ مرحلة الطفولة، ولكن، تلبية لنصيحة بابلو بيكاسو، الذي كان

أحد أقدم أصدقاء والديّ أقربهم إلى قلبه، لم أعرض أي شيء من أعمالي. لكنَّ عدداً من لوحاتي الزيتيّة ولوحات الألوان المائيّة مُعلّقة في بعض من منازل مُحدثي النعمة في باريس، حيث جذبتْ اهتماماً شديداً من بعض أهمّ النقّاد في أيامنا. وقلت إنّه إبّان وفاة زوجتي المأساوية قبل الأوان، متأثّرة بإصابتها بالقرحة السرطانيّة، فكّرتُ جديّاً في أن أتوقف تماماً عن الرسم. لكنَّ الخسائر الماليّة القريبة التي مُنيتُ بها أجبرتني على تغيير عزمي الجديّ. قلت إنّه يُشرفني أنْ أُقدم عيّنات من عملي إلى ليزامي ديه فيو ميتر، حالما يرسلها إليّ وكيلي في باريس، الذي سأكتب إليه، طبعاً، في الحال. وذيّلتُ رسالتي بعبارة، مع كامل احترام، جان دو دومييه - سميث.

استغرقَ مني انتقاء اسم مُستعار وقتاً طويلاً بقدر ما استغرقت مني كتابة الرسالة بأكملها.

كتبتُ الرسالة على ورقة إضافيّة على الآلة الكاتبة. لكنني وضعتها داخل مُغلّف خاص بفندق الريتز. وبعد أنْ وضعتُ ختم البريد المُستعجل الذي عثرتُ عليه في درج بوبي العِلويّ، حملتُ الرسالة إلى صندوق البريد الرئيسيّ في بهو الفندق. وفي الطريق توقفتُ لكي أنبّه موظف البريد (الذي كان يبغضني بلا أدنى شك) إلى البريد الذي سيرد في المستقبل لدو دومييه - سميث. ثم، عند حوالي الساعة الثانية والنصف، تسللتُ إلى درس التشريح في مدرسة الفنون في الشارع الثامن والأربعين الذي يبدأ الساعة الواحدة وخمس وأربعين دقيقة، وبدا زملائي في غرفة الدرس، للمرة الأولى، مُهذّبين.

خلال الأيام الأربعة التالية، رسمتُ عدداً من العينات رأيتُ أنّها أمثلة نموذجيّة للفن التجاري الأميركي، مُستغلاً بذلك كل وقت فراغي، بالإضافة إلى بعض الوقت الذي لا يخصّني بالضبط. وبما أني كنت أعمل في الغالب بالدهان الخفيف، ولكن أحياناً، من باب التباهي، أرسم أشخاصاً يرتدون ملابس السهرة ويترجلون من سيارات الليموزين في ليالي الافتتاح -أزواج نحيلون، منتصبون، غاية في الأناقة، من الواضح أنه لم يحدث قط أنْ عانوا من أي شيء نتيجة إهمال العناية بتحت الإبط- أزواج ليس لديهم في الحقيقة آباط. ورسمت عمالقة شبّاناً لفحتهم أشعة الشمس يرتدون سترات العشاء

البيضاء، ويجلسون على موائد بيضاء بجوار برك للسباحة بلون التركواز، ويتبادلون شرب الأنخاب، بسرور، ومشروبات مُسكِرة مصنوعة من صنف رخيص ولكن واسع الانتشار ظاهرياً من ويسكي الجودار. ورسمتُ أطفالاً متوردي الخدود، كالذين يظهرون في الإعلانات، ممتلئين بالبهجة والصحة التامة، يرفعون أوعية وجبات الإفطار الفارغة ويُطالبون، بكل ودّ، الحصول على المزيد. ورسمت فتيات كبيرات الأثداء، يضحكن وهن يتزلجن على الألواح المائيّة خاليات من كل همّ، لأنهن بعيدات كل البُعد عن شرور وطنيّة على غرار نزيف اللثّة، وبقع الوجه، والشَعر القبيح، وتأمين على الحياة غير وافٍ وناقص. رسمت ربّات بيوت يحتفظن بشعرٍ شعث، ووضعيّة وقوف ضعيفة، وأطفالاً جامحين، وأزواجاً ساخطين، وأيدي خشنة (لكنها نحيلة)، ومطابخ تعيثُ فيها الفوضى (لكنّها فسيحة)، إلى أنْ يحصلن على النوع الصحيح من الصابون.

عندما انتهت العيّنات، أرسلتها في الحال بالبريد إلى المسيو يوشوتو، مع عدد من لوحاتي غير التجاريّة أحضرتها معي من فرنسا، وأرفقتها بما رأيتُ أنها ملاحظة عابرة بدأتْ تواً تحكي القصّة القصيرة المُفعمة بالروح الإنسانيّة لبلوغي، وحدي وأنا مُعاق من نواحٍ متنوعة، بأنقى تراث رومانسي، الذُرى الباردة، البيضاء والمنعزلة لمهنتي.

الأيام القليلة التي تلت كانت مملوءة بالإثارة العظيمة، ولكن قبل أنْ ينقضي الأسبوع، وصلتني رسالة من المسيو يوشوتو يقبل تعييني مُعلّماً في ليزامي ديه فيو ميتر. وكانت الرسالة مكتوبة بالإنكليزيّة، على الرغم من أنني كتبتُ له بالفرنسيّة. (فهمتُ لاحقاً أنَّ المسيو يوشوتو، الذي كان يُحسن الفرنسيّة وليس الإنكليزيّة، ترك، لسببٍ ما، أمر كتابة الرسالة لمدام يوشوتو، التي كان لديها بعض المعرفة باللغة الإنكليزيّة من خلال التجربة العمليّة). قال المسيو يوشوتو إنَّ الجلسة الصيفيّة قد تكون الجلسة الأكثر غزارة في العمل خلال العام، وأنها بدأتْ في الرابع والعشرين من شهر حزيران. وأشار إلى أنَّ هذا منحني فترة تقارب الأسابيع الخمسة لكي أرتّب شؤوني. وعبَّر لي عن أقصى درجات تعاطفه معي بعد ابتلائي الأخير بالهزائم العاطفيّة والماليّة. وتمنّى أنْ أستعدّ لتقديم تقريري في ليزامي ديه فيو ميتر في يوم

الأحد، الثالث والعشرين من شهر حزيران، لكي أعرف واجباتي وأصبح على علاقة «صداقة حميمة» مع المعلمين الآخرين (الذين، كما علِمتُ لاحقاً، كانوا اثنين، وهما المسيو يوشوتو والمدام يوشوتو). وعبَّر عن ندمه الشديد لأنّه ليس من سياسة المدرسة منح المعلمين الجُدد أجرة نقل. والراتب الابتدائي يبلغ ثمانية وعشرين دولاراً في الأسبوع، وقال المسيو يوشوتو إنّه يعلم أنّه ليس مبلغاً كبيراً جداً من المال، ولكن بما أنّه يتضمن سريراً وطعاماً مغذياً، وبما أنّه شعرَ بأنّني أتمتع بروح مهنيّة حقيقيّة، فإنه يأمل في ألّا أشعر بالإرهاق من فرط الحيويّة، وأنّه ينتظر بشوق أنْ تصِله مني برقيّة قبول رسميّ وينتظر وصولي شخصياً بكل سرور، واختتمَ بقوله إنّه يبقى المُخلِص، صديقي الجديد ومُستخدمي إ. يوشوتو، العضو السابق في أكاديميّة الفنون الجميلة الإمبراطوريّة، في طوكيو.

أرسلتُ برقيتي التي تعلن قبولي الرسميّ في غضون خمس دقائق. والأمر الغريب، وأنا وسط حماستي، أو ربما جرّاء شعوري بالذنب لأنني كنتُ أستخدم جهاز هاتف بوبي من أجل إرسال البرقيّة، تعمّدتُ أنْ أجلس وأعمل على وضع نص البرقيّة واختصرتُ الرسالة إلى عشر كلمات.

في أمسية ذلك اليوم عندما قابلت بوبي، كالمعتاد، من أجل تناول وجبة العشاء عند الساعة السابعة في الغرفة البيضاويّة، أزعجني إذ وجدتُ أنّه أحضر معه ضيفاً. لم أكن قد ذكرتُ أو أشرتُ بأيّة كلمة أمامه إلى أعمالي الأخيرة، اللاروتينيّة، وكنتُ شديد التوق إلى نقل هذا الخبر الأخير إليه قبل غيري -عندما نُصبح وحدنا. وكان الضيف هو سيدة شابة ذات جاذبيّة طاغية، وكانت حينئذٍ مُطلقة منذ بضعة أشهر فقط، كان بوبي يُقابلها خلال تلك الفترة كثيراً وقابلتها في مناسبات عدّة. كانت في العموم امرأة فاتنة، قامت بمحاولات عديدة لتعقد صداقة معي، ولتقنعني برفق بأنْ أستسلم لها، أو على الأقلّ أنْ أتواضع، وقد اعتبرتُ ذلك دعوة ضمنيّة منها لكي أنضم إليها في السرير في أقرب فرصة مُناسبة لي- أي، حالما يمكنها الإفلات من بوبي، الذي من الواضح أنّه كان أكبر سناً بكثير بالنسبة إليها. وطوال فترة تناول العشاء تصرّفتُ بعدائيّة وتكلّمتُ باقتضاب. وأخيراً، في أثناء شرب القهوة. أعطيتُ فكرة عامة عن مخططاتي الجديدة لقضاء فصل الصيف.

وبعد أنْ انتهيت طرح بوبي عليّ بضعة أسئلة تنمّ عن ذكاء شديد. وأجبتُ عليها بكل هدوء، وباقتضاب شديد، وكنتُ أمير ذلك الوضع المتوَّج بلا مُنازع.

قالت ضيفة بوبي «أوه، تبدو خططك ممتعة جداً!»، وانتظرتْ، عابثة، لكي أُسرّب إليها عنواني في مونريال من تحت الطاولة.

قال بوبي «ظننتُ أنك ستذهبين إلى جزيرة رودس معي»

قالت السيدة X له «أوه، حبيبي، لا تكن مزعجاً»

قال بوبي «لستُ كذلك، ولكن لا أمانع في معرفة المزيد عن الأمر»، ولكن ظننتُ أَنَّ في استطاعتي أنْ أتبيَّن من سلوكه أنّه بدأ في ذهنه يبدِّل تذاكر السفر بالقطار إلى جزيرة رودس من النزول في مقصورة إلى مضجعٍ سُفليّ.

قالت السيدة X لي بودّ «أعتقد أنَّ هذا أعذب مديح سمعته في حياتي». وومضتْ عيناها بفسق.

في يوم الأحد عندما ترجلت إلى رصيف محطة ويندسور في مونريال، كنتُ أرتدي بذلة من القماش المتين بلون الصوف الطبيعيّ، مزدوجة الصدر (وكنتُ أقدّرها كثيراً)، وقميص فانيلا لونه أحمر بحريّ، وأضع ربطة عنق من القطن الأصفر المتين، وأنتعل حذاءً باللونين الأبيض والبنيّ، وأعتمر قبعة عريضة (تخصّ بوبي وكانت صغيرة جداً بالنسبة إلى مقاسي)، ولي شارب بنيّ محمرّ، عمره ثلاثة أسابيع. كان المسيو يوشوتو في انتظاري. ذلك الرجل النحيل، ولا يزيد طوله عن خمسة أقدام، ويرتدي بذلة من الكتّان القذر، وينتعل حذاء أسود، ويعتمر قبعة من اللبّاد الأسود حوافها مقلوبة نحو الأعلى من جميع أطرافها. لم يبتسم، ولم ينطق بأيّة كلمة عندما تصافحنا، حسبما أذكر. كان تعبير وجهه مُبهماً - هذه الكلمة لوصفه مأخوذة مباشرة من النسخة الفرنسيّة من سلسلة روايات فو مانشو تأليف ساكس رومر. ولسببٍ ما، كنتُ أرسم ابتسامة عريضة، لم أتمكن من تخفيفها، ناهيك عن إلغائها.

المسافة من محطة ويندسور إلى المدرسة التي تبلغ بضعة أميال كنتُ أقطعها بالحافلة. وأشكّ في أنْ يكون المسيو يوشوتو قد نطق بخمس كلمات طوال الطريق. وإمّا على الرغم من صمته، أو بسببه، لم أتوقف

عن الكلام، واضعاً ساقاً فوق ساق، وكاحلاً فوق كاحل، ومُستخدماً طوال الوقت جوربي كوسيلة لامتصاص العرق عن راحة يدي. وبدا لي أنَّه من المُلحّ بالنسبة إليّ ليس فقط تكرار أكاذيبي السابقة بشكل ممل –حول صِلة القرابة بيني وبين الرسّام دوميه، وحول زوجتي المتوفّاة، وعزبتي الصغيرة في جنوب فرنسا– وتطويرها. وأخيراً، أنْ أوفّر على نفسي، في الحقيقة، التركيز على هذه الذكريات المؤلمة (كانت قد بدأتْ تُصبح مؤلمة قليلاً). وانتقلتُ إلى موضوع صديق والديّ الأعزّ والأقرب: بابلو بيكاسو، أو Le Pauvre Picasso كما كنتُ أشير إليه. (ويمكن القول إنني انتقيتُ بيكاسو لأنه بدا لي أنّه الرسّام الفرنسي المعروف بشكل أوسع في أميركا. واعتبرت صراحةً أنَّ كندا تشكّل جزءاً من أميركا). وكم من مرَّة أذكر أنني قلت للمسيو يوشوتو، لمصلحته، وبقدرٍ استعراضي من إظهار الشفقة الفطريّة على العملاق الساقط، «مسيو بيكاسو، إلى أين أنت ذاهب؟» وكيف كان الأستاذ، ردّاً على هذا السؤال الثاقب، دائماً يقطع أرض المُحترَف ببطء، وكآبة، لكي ينظر إلى نسخة صغيرة من لوحته «البهلوانات»، إلى المجد، الذي طالت مُصادرته، وكان من حقّه. وشرحتُ للمسيو يوشوتو ونحن نترجّل من الحافلة، أنَّ مشكلة بيكاسو هي أنّه لم يكن يُصغي إلى أحد – حتى إلى أقرب أصدقائه.

في عام 1939، كانت مدرسة ليزامي ديه فيو ميتر تحتل الطابق الثاني من مبنى صغير، يكاد يخلو من الأثاث، مؤلَّف من ثلاثة طوابق –في الحقيقة كان منزلاً سكنيّاً– في الفيردون، أو القِطاع الأقلّ جاذبيّة في مونريال. كانت المدرسة تقع مباشرة فوق محل لبيع أدوات تقويم الأعضاء. والمدرسة لا تتألّف إلّا من غرفة واحدة كبيرة، ومرحاض صغير. ومع ذلك، حالما صرتُ في الداخل، بدا المكان لي صالحاً للسكن بصورة غرائبيّة. وكان هناك سبب وجيه لذلك، فجدران «غرفة المُعلّمين» مكسوّة بالعديد من الصور المؤطَّرة –كلها لوحات بالألوان المائيّة– نفّذها مسيو يوشوتو. وما زلت أحياناً أحلم بإوزة بيضاء تطير عبر سماء زرقاء زرقة شاحبة صافية، وكانت زرقة السماء، أو روح زرقة السماء –وهي إحدى أجرأ ما عرفت من إنجازات الحرفيّة وأرسخها، تنعكس على ريش الطائر. كانت اللوحة مُعلّقة خلف طاولة

مكتب مدام يوشوتو مباشرة. وأضفتُ إلى الغرفة- هي ولوحة أخرى أو لوحتان قريبتان منها، سِمة راقية.

عندما دخلت أنا ومسيو يوشوتو غرفة المعلمين كانت مدام يوشوتو، مرتدية رداء كيمونو جميلاً من الحرير الأسود والأحمر الكرزيّ، تكنس الأرض بمكنسة قصيرة الذراع. كانت ذات شعر أشيب، وكانت حتماً أطول من زوجها بمقدار رأس وقسمات وجهها أقرب إلى القسمات المالايّة[1] من اليابانيّة. جمعت ما كنسته واقتربت، وقام مسيو يوشوتو بتقديم كلّ منا للآخر. بدا لي أنّها لا تقلّ إبهاماً البتّةِ عن زوجها، إذا لم تكن كذلك أكثر منه. ثم عرضَ مسيو يوشوتو أنْ يقودني إلى غرفتي التي، كما شرح لي (بالفرنسيّة)، كان ابنه قد أخلاها مؤخراً ورحل إلى كولومبيا البريطانيّة لكي يعمل في إحدى المزارع. (وبعد فترة الصمت الطويلة التي رانت عليه في الحافلة، شعرتُ بالامتنان لسماعه يتكلّم من دون توقف، وأصغيتُ إليه بحيويّة). وبدأ يعتذر لعدَم توفّر كراس في غرفة ابنه -كانت فيها فقط وسائد على الأرض- لكنني سرعان ما دفعته إلى الاعتقاد أنَّ هذا بالنسبة إليّ شبه هِبة من عند الله. (في الحقيقة، قلت إنني أكره الكراسي. وكنتُ متوتر الأعصاب إلى درجة أنّه لو أبلغني أنَّ غرفة ابنه تغمرها المياه، ليلاً ونهاراً، بعلوّ قدم، لأطلقتُ صرخة فرح قصيرة وقلتُ إنني مُصاب بمرض نادر في قَدَمي يتطلَّب مني أنْ أُبقي قدميّ رطبة طوال ثماني ساعات يومياً) ثم قادني إلى مطلع دَرَج خشبي يُصدر صريراً يؤدي إلى غرفتي. وفي الطريق أخبرته، بوضوح كافٍ، بأني طالب في تلقّي التعاليم البوذيّة. ولاحقاً اكتشفتُ أنّه هو ومدام يوشوتو ينتسبان إلى الكنيسة المشيخيّة.

في وقت لاحق من تلك الليلة، وبينما كنتُ أستلقي يقظاً على السرير ووجبة عشاء مدام يوشوتو اليابانيّة - الملاييّة لا تزال تتكدس وتستقر على قفصي الصدريّ كالمصعد، بدأ أحد الثنائي يوشوتو يئن في نومه، على الجانب المقابل من جدار غرفتي؛ أنيناً مرتفعاً، رفيعاً، متقطّعاً، كأنّه لا يصدر عن شخص بالغ، بل عن طفل متخلف في حالة مأساويّة أو عن

1- نسبة إلى دولة مالايو في جنوب آسيا.

حيوان صغير مُشوّه. (أصبح ذلك حدثاً ليليّاً منتظماً. ولم أعرف قط عن أيّ من الزوجين يوشوتو يصدر، ولا سببه) وعندما أصبح سماعه لا يُطاق من وضعيّة الانبطاح، تركتُ السرير، وانتعلتُ خفّي، وانتقلتُ لأجلس على إحدى وسائد الأرض. جلستُ واضعاً ساقاً فوق ساق على مدى ساعتين من الزمن أدخّن السجائر، ثم أسحقها على الخفّ فوق منطقة مشط القدم وأضع أعقاب السجائر في جيب صدر البيجاما. (لم يكن الزوجان يوشوتو يُدخّنان، ولم تكن هناك منافض للسجائر في أي مكان من المبنى وحوله). ذهبتُ إلى النوم عند حوالي الساعة الخامسة صباحاً.

عند الساعة السادسة والنصف، قرع مسيو يوشوتو باب غرفتي ولفتَ انتباهي إلى أنَّ وجبة الإفطار تُقدَّم عند الساعة السابعة إلّا ربعاً. وسألني، من خلال الباب، إنْ كنتُ نمتُ جيداً، فأجبته «Oui!» ثم ارتديتُ بذلتي الزرقاء، التي وجدتها مناسبة لمعلّم في يوم الدوام المدرسي الأول، ووضعت ربطة عنق من الحرير الأحمر كانت أمي قد أعطتني إياها - وهرعتُ، من دون أنْ أغتسل، إلى الرواق في الأسفل المؤدي إلى مطبخ آل يوشوتو.

كانت مدام يوشوتو واقفة عند المدفأة، تعدّ وجبة إفطار من السمك. وكان مسيو يوشوتو بقميص الفانيلا الداخلي والبنطلون جالساً على طاولة المطبخ، يقرأ صحيفة يابانيّة. أومأ برأسه لي، بحركة مُبهمة. لم يكن أيٌّ منهما قد بدا أشد إبهاماً من قبل. وفي الحال، وُضِعَ أمامي طبق مما يُشبه السمك مع أثر قليل ولكنه ملحوظ من صلصة البندورة المتخثّرة على الحواف. وسألتني مدام يوشوتو، بالإنكليزيّة -وكانت لكنتها فاتنة بصورة غير متوقّعة- إنْ كنتُ أُفضّل بيضاً، لكنني قلت، «Non, non, madame–merci!». قلت إنني لا آكل البيض أبداً. أسند مسيو يوشوتو صحيفته على كوب الماء الخاصّ بي، وبدأنا نحن الثلاثة نأكل في صمت، أي، كانا هما يأكلان وأنا أبتلع بحركة منتظمة في صمت.

بعد تناول وجبة الإفطار ارتدى مسيو يوشوتو قميصاً بلا ياقة وخلعت مدام يوشوتو مئزرها، من دون أنْ يُضطرا إلى مغادرة المطبخ، وهبطنا نحن الثلاثة في رتل واحد غير مُنتظَم الدرج المؤدي إلى غرفة المعلّمين. وهناك، على الركام المُشوّش على طاولة مكتب مسيو يوشوتو توزّع عدد

من مغلفات مانيلا المتينة، الضخمة، التي لم تُفتَح بعد. أما أنا فرأيتُ أنها تبدو مُرتَّبة، كتلاميذ جُدد. وحدَّد مسيو يوشوتو لي طاولة مكتبي التي كانت على الجانب النائي، المنعزل من الغرفة، وطلب مني أنْ أجلس. ثم بدأ هو ومدام يوشوتو يفتحان بعض المغلفات. وبدا أنّه ومدام يوشوتو يتفحّصان ويُصنفان محتوياتها بشيء من الأسلوب المُنظَّم، ويتبادلان الاستشارة، بين حين وآخر، باليابانيّة، وأنا جالس على الجانب المُقابل من الغرفة، ببذلتي الزرقاء وربطة عنقي الحرير، أحاول أنْ أبدو في وقتٍ واحد منتبهاً وصبوراً وأيضاً، بصورة ما، لا غِنى عني للمنظّمة. تناولتُ حفنة من أقلام رسم من الرصاص الليِّن من جيب سترتي الداخليّ كنتُ قد جلبتُها معي من نيويورك، ووضعتها على سطح طاولة مكتبي، من دون أنْ أُحدِث أي ضجيج. وحالما ألقى مسيو يوشوتو عليّ نظرة سريعة لسبب ما، وابتسمتُ له ابتسامة مُشرقة بإفراط. وفجأة، ومن دون أنْ ينظرا جهتي أو ينطقا بأيّة كلمة، جلسا على طاولتَي مكتبيهما الشخصيين وانهمكا في العمل. كانت الساعة تقترب من السابعة والنصف.

عند الساعة التاسعة، نزع مسيو يوشوتو نظارته، ونهضَ واقفاً ومشى بخطى بطيئة نحو طاولة مكتبي حاملاً بيده صفائح من الورق. كنتُ قد أمضيتُ مدة ساعة ونصف الساعة من الزمن لم أفعل خلالها أي شيء خلاف محاولة إبقاء ضجيج بطني غير مسموع. فأسرعت بالنهوض حالما اقترب مني، منحنياً قليلاً كي لا أبدو طويل القامة بصورة مُهينة. سلّمني الأوراق التي حملها وسألني أنْ أتلطَّف وأُترجم تصحيحاته المكتوبة من الفرنسيّة إلى الإنكليزيّة. فقلت «Oui, monsieur!». انحنى لي بكل أدب، ثم قفل عائداً إلى طاولته الخاصة. ودفعتُ حفنة أقلام الرصاص اللين الخاصة بالرسم إلى أحد جانبَي طاولة المكتب، وتناولتُ قلمي الحبر وانكببتُ على العمل – وأنا شبه كسير القلب.

كالعديد من الفنانين الجيدين حقاً، كان مسيو يوشوتو يُعلِّم الرسم بطريقة ليست أفضل أبداً مما كان يُعلِّمه الفنان الفلاني الذي يميل إلى التعليم. كان بإضافة نسخة توضيحيّة ذات الطابع العمليّ -أي، رسومه المنقولة عبر الورق الشفّاف التي تُفرَض على رسوم الطلاب- وأيضاً تعليقاته المكتوبة

على خلفيّة الرسومات - قادراً تماماً على أنْ يُبيِّن لطالب ذي موهبة جيدة كيف يرسم خنزيراً واضحاً في زريبة واضحة، أو حتى خنزيراً رائعاً في زريبة رائعة. لكنّه لم يُبيِّن طوال حياته لأي شخص كيف يرسم خنزيراً جميلاً في زريبة جميلة (وهذا هو الشيء التقني الوحيد الصغير الذي رغب أفضل طلابه بقوة في أنْ يتلقّى عبر البريد). ويجب أنْ أُضيف أنَّ هذا لا يعني أنّه كان بوعي منه أو من غير وعي مُقتصداً في موهبته، أو يتعمّد ألّا يُسرف فيها، بل لأنها بساطة ليست مُلكه حتى يهبها. بالنسبة إليّ، لم يكن هناك أي عنصر مفاجأة حقيقيّ في هذه الحقيقة القاسية، وهكذا هي لم تكن لي. ولكن كان لها قدر من التأثير التراكميّ، إذا أخذنا بعين الاعتبار مكان جلوسي، ومع اقتراب ساعة تناول وجبة الغداء، كان لابد من أنْ آخذ حذري الشديد بحيث لا ألوّث ترجماتي بعقبي يديّ المُبلّلين بالعرق. وزيادة في سوء الأوضاع كان خط مسيو يوشوتو في الكتابة بالكاد يُقرأ. وعلى أيّة حال، عندما حان وقت الغداء، رفضتُ الانضمام إلى الزوجين يوشوتو. قلتُ إنني مُضطر إلى الذهاب إلى مكتب البريد. ثم هبطت الدَرَج بخطى أقرب إلى الركض ومنه إلى الشارع وبدأتُ أمشي بسرعة كبيرة، بلا هدى، خلال متاهة من الشوارع الغريبة، التي تبدو شديدة الفقر، إلى أنْ وصلتُ إلى حانة تقدّم وجبات غداء، فدخلتها وازدردتُ أربع شطائر من نوع كوني أيلند وشربت ثلاثة أكواب من القهوة العكرة.

في طريق العودة إلى ليزامي ديه فيو ميتر، بدأتُ أتساءل، أولاً بطريقة مألوفة، وبقلب واهن، تعلّمتُ التعامُل بها، بصورة أو بأخرى، من واقع التجربة، ثم بفزع شديد، إنْ كان هناك أي شيء شخصيّ في استغلال مسيو يوشوتو لي حصراً كمُترجِم طوال الفترة الصباحيّة. هل كان فو مانشو يعرف منذ البداية أنَّ لديَّ، بالإضافة إلى الأشياء المُضلِّلة الأخرى والتأثيرات، شارب فتى في التاسعة عشرة؟ كان التفكير في هذا الاحتمال أمراً لا يُطاق. وكان أيضاً ينهش ببطء في إحساسي بالعدالة. ها أنا ذا -رجل فاز بثلاث جوائز أولى، وصديق مُقرَّب من بيكاسو (في الواقع كنتُ قد بدأتُ أصدِّق أنني كذلك)- يُستغلّ كمُترجِم. لم يكن العقاب يتلاءم قط مع الجريمة. أولاً، كان الشارب الخفيف ملكي الخاص، ولم يُثبَّتْ بصمغٍ كحوليّ.

تحسّسته لأطمئنّ عليه بأصابعي وأنا أهرع إلى المدرسة. ولكن كلما أمعنت التفكير في القضيّة كلها، تُسرع أكثر خطوتي في المشي وأنا عائد، إلى أنْ تحولت خطوتي إلى هرولة، كأنني أتوقَّع في أيّة لحظة تقريباً أنْ أُرجَم بالحجارة من الجهات كلها. وعلى الرغم من أنّ وجبة الغداء لم تستغرق مني أكثر من أربعين دقيقة أو نحوها، فإنَّ الثنائي يوشوتو كانا لدى عودتي جالسَين على طاولتي مكتبيهما ويعملان. لم يرفعا عيونهما أو يُبديا أيّة إشارة إلى أنهما سمعا دخولي. تقدّمتُ، أتصبب عرقاً ومقطوع الأنفاس، وجلست على طاولة مكتبي. جلست بسكون تامّ على مدى الدقائق الخمس عشرة أو العشرين التالية، أُقلِّب أنواعاً شتى من الحكايات الصغيرة والجديدة عن بيكاسو في رأسي، تحسّباً إذا ما نهضَ مسيو يوشوتو واقفاً فجأة واقترب لكي يفضحني. وفجأة نهضَ واقفاً واقتربَ. فنهضتُ لكي أستقبله -مُستعداً للمواجهة الصارمة، إذا لزم الأمر- بقصّة قصيرة جديدة عن بيكاسو، لكنَّ الرعب تملّكني، فحالما وصل إليّ كنت قد نسيتُ الحكاية، واخترتُ اللحظة المناسبة لأعبِّر عن إعجابي بلوحة الإوزة الطائرة المُعلَّقة فوق مدام يوشوتو، وأسرفتُ في مدحها وأطلتُ في ذلك. قلتُ إنني أعرف شخصاً في باريس -مشلولاً وفاحش الثراء- مستعدّاً أنْ يدفع للمسيو يوشوتو أي مبلغ يشاء مقابل الحصول على اللوحة. وقلت إنَّ في استطاعتي أنْ أتّصل به فوراً إنْ كان مسيو يوشوتو مهتماً بالعرض. ولكن لحُسن الحظ قال مسيو يوشوتو إنَّ اللوحة تخصّ قريباً له يقوم بزيارة بعض الأقرباء في اليابان. وقبل أنْ أتمكّن من التعبير عن أسفي، سألني -وهو يُخاطبني على أنني مسيو دومييه- سميث - إنْ كان في استطاعتي أنْ أتلطّف وأقوم بتصحيح بعض الدروس. ومشى إلى طاولته ومن ثم عاد حاملاً ثلاثة مغلفات ضخمة، متخمة، ووضعها على طاولة مكتبي. وبينما أنا واقف مذهول وأومئ برأسي بلا توقف موافقاً وأتحسّس سترتي حيث كنت قد وضعت في جيبها من جديد أقلام الرسم الرصاص، شرح مسيو يوشوتو لي أسلوب التعليم في المدرسة (أو، بالأحرى، أسلوب التعليم الذي لا وجود له). وبعد أنْ عاد إلى طاولته، استغرقَت مني لملمة شتات نفسي بضع دقائق.

كان الطلاب الثلاثة المُخصّصون لي يدرسون اللغة الإنكليزيّة. الأولى

كانت سيدة منزل من تورونتو في الثالثة والعشرين من العمر، قالت إنَّ اسمها المهني هو بومبي كريمر، وأبلغت المدرسة بأنْ يُعنوَن بريدها بهذا الاسم. وكان يُطلَب من طلاب مدرسة ليزامي ديه فيو ميتر أنْ يملؤوا استمارات استفتاء وأنْ يُرفقوها بصورٍ فوتوغرافيّة لهم. ووضعت الآنسة كريمر صورة صقيلة، بمقياس ثمانية وعشرة تمثّلها وهي تنتعل حذاءً خفيفاً، وترتدي ثوب استحمام بلا حمّالات، وتعتمر قبعة بحّار بيضاء اللون كبطة. وعلى استمارة الاستفتاء ذكرتْ أنَّ فنانيها المُفضّلين هما رامبرانت ووالت ويتمن. قالت إنها تأمل في أنْ تتمكن ذات يوم من مُضاهاتهما. وأُرفِقَت صورتها الفوتوغرافيّة بعيّنات من رسومها، كشيء إضافيّ، وكلها كانت آسرة. أحدها لا يُنسى. وذلك الذي لا يُنسى نُفِّذَ بألوان مائيّة مُنمّقة، مع تعليق يقول: «اغفر لهم تعدّيهم»، وتبيِّن ثلاثة صِبية صِغار يصطادون السمك في تجمّعٍ غريب الشكل من المياه، وكُتِبَ على إحدى السترات التي يرتدون عبارة «ممنوع صيد السمك!». وأطول الصِبية قامة الذي يظهر في مقدّمة الصورة، يبدو أنَّه مُصاب بالكِساح في إحدى ساقيه والأخرى تعاني من التضخّم – في الحقيقة، كان جليّاً أنَّ الآنسة كريمر تعمّدتْ أنْ تُبرِز أنَّ الصبي يقفُ متباعد الساقين قليلاً.

الطالب الثاني كان «مُصوِّر مناسبات» في السادسة والخمسين من العمر من ويندسور، أونتاريو، اسمه ر. هوارد ريدجفيلد، قال إنَّ زوجته تقتدي به منذ سنين لكي تتحول إلى مهنة الرسم. والفنانون المُفضّلون لديه هم رامبرانت، وسارجنت، و«تيتان»[1]، لكنّه أضاف برويّة أنّه هو نفسه لا يهتم بالرسم على نمطهم. قال إنّه في الغالب يهتم بالجانب الساخر أكثر من الجانب الفنيّ من الرسم. ودعماً لهذا المُعتقد، أنتجَ عدداً جيداً من اللوحات الأصيلة واللوحات الزيتيّة. وإحدى لوحاته –تلك التي أعتبرها إنجازه الأكبر– كانت لا تُنسى بالنسبة إليّ على مرّ السنين كما تبقى كلمات أغنية «سو الجميلة» أو «دعيني أخاطبك بحبيبتي». إنّها تسخر من المألوف، من المأساة اليوميّة للفتاة الشابة العفيفة، ذات الشعر الأشقر الطويل الذي يهبط إلى ما تحت

1– يقصد الرسّام الإيطالي تيتيان، وقد نطقها بشكل خاطئ.

الكتفين والثديين الشبيهين بالضرعين، التي تعرَّضتْ للاعتداء الإجرامي وهي في الكنيسة، في ظل المذبح مباشرة، من قِبَل القس الذي تتبعه. وكانت ملابس عضويّ الكنيسة في حالة فوضى واضحة. في الواقع، لم أُصدَم بالمضامين الساحرة التي في اللوحة بقدر ما صُدِمتُ ببراعة الصنعة المتجلّية فيها. ولو لم أكنْ أعلم أنها موجودة على بُعد مئات الأميال، لأقسمتُ على أنَّ ريدجفيلد حصل على مُساعدة تقنيّة صرفة من بامبي كريمر.

بغضّ النظر عن الظروف النادرة جداً، في أيّة أزمة، وأنا في سن التاسعة عشرة، كانت عظمة كوعي دائماً تتميَّز بكونها الجزء الأول من جسمي الذي ظهرت عليه جزئيّاً أو كليّاً علامات الشلل. لقد قدَّم ريدجفيلد وكريمر الكثير من الأشياء لي، لكنهما لم يعملا أي شيء لبثّ السرور في نفسي. وثلاث مرات أو أربعاً بينما كنتُ أستعرض مُغلّفاتهما، كدتُ أرضخ لغواية النهوض وإبداء احتجاجي الرسميّ للمسيو يوشوتو. ولكن لم تكن لديّ أدنى فكرة عن الصيغة التي يمكن أنْ يتّخذها احتجاجي. أعتقد أنني كنتُ أخشى أنْ أتقدَّم من طاولة مكتبه فقط لكي أبلّغه، بصوت حادّ: «إنَّ أمي ميتة، واضطررتُ إلى الإقامة مع زوجها الرائع، ولا أحد في نيويورك يتكلَّم الفرنسيّة، وليس هناك أي كرسي في غرفة ابنك. فكيف تتوقّع مني أنْ أقوم بتعليم هذين الشخصين المجنونين الرسم؟» وفي النهاية، بما أنني لطالما علَّمت نفسي بنفسي الجلوس اليائس، نجحتُ بسهولة شديدة في الاحتفاظ بمقعدي. وفتحتُ مغلَّف الطالب الثالث.

الطالب الثالث عندي كان راهبة تابعة لجماعة أخوات القديس يوسف، وتُدعى الأخت إرما، علَّمَت «الطبخ والرسم» في مدرسة الدير الابتدائيّة التي تقع مباشرة خارج تورينتو. وليست لديّ أيّة أفكار جيدة تتعلّق بكيفيّة البدء بوصف محتويات مُغلّفها. قد أذكر أولاً أنَّ الأخت إرما أرفقت مغلّفها، ومن دون تقديم تفسير، بدل صورة شخصيّة لها، بصورة للدير الذي تُقيم فيه. وبيَّنتْ لي، أيضاً، أنها تركت مكاناً فارغاً في استمارة الاستفتاء حيث ينبغي وضع عمْر الطالب. وفيما عدا ذلك مُلِئت استمارتها أكثر مما تستحق أيّة استمارة في العالم أنْ تُملأ. كانت قد وُلِدَتْ ونشأتْ في ديترويت، ميتشيغن، حيث كان والدها يعمل «فاحصاً لسيارات فورد». وثقافتها الأكاديميّة تتألّف

من قضاء عام في المدرسة الثانويّة. ولم تحصل على أي تعليم رسمي في الرسم. قالتْ إنَّ السبب الوحيد لتعليمها الرسم هو انتقال الأخت الفلانيّة وانتقاء الأب زيمرمان لها (وهذا الاسم لفتَ انتباهي دون غيره، لأنّه اسم طبيب أسنان كان قد خلع لي ثماني من أسناني) لكي تحلّ محلّها. قالت إنَّ لديها «34 قطيطة في صف الطبخ و18 قُطيطة في صف الرسم» وهواياتها هي حب الرب وكلمة الرب و«جمع أوراق الشجر ولكن فقط بعد أنْ تسقط إلى الأرض» ورسّامها المُفضَّل هو دوغلاي بنتينغ Bunting (لا أمانع في القول إنَّني بحثتُ عبثاً عن هذا الاسم عبر السنين) قالت إنَّ قطيطاتها دائماً يُحببن «أنْ يرسمن أناساً يركضون وهذا هو الشيء الوحيد الذي لا أُحسنه البتّة». وقالت إنها مستعدة للاجتهاد لتعلُّم الرسم بشكلٍ أفضل، وعبّرتْ عن أملها في ألّا نكون ضيّقي الصدور معها.

في المُجمل، كانت هناك فقط ست عينات من عملها داخل المُغلَّف. (أعمالها كلها لم تكن تحمل توقيعها – وعلى الرغم من أنَّ هذه حقيقة ثانويّة، فإنها في الوقت نفسه حقيقة منعشة بصورة غير متجانسة. وكانت لوحات بريدجفيلد وكريمر كلها إما تحمل توقيعهما أو -وهذا شيء مُستفزّ أكثر- تحمل الأحرف الأولى من اسميهما). وبعد مرور ثلاثة عشر عاماً، فإنني ما زلتُ أتذكَّر بوضوح ليس فقط عينات الأخت إرما الست، بل أحياناً أعتقد أنني أتذكّر أربعاً منها بوضوح جليّ وهذا يُريحني. وأفضل لوحاتها نفّذَتها بالألوان المائيّة، على ورق بنّيّ. (أمرٌ ممتع جداً وأليف الرسم على الورق البنّيّ، خاصة ورق اللفّ. والعديد من الرسّامين من ذوي الخبرة استخدموه عندما لم يتمكنوا من العثور على ورق فخم أو شديد الفخامة). وعلى الرغم من حجم اللوحة المحدود (كانت بحجم عشر إلى اثنتى عشرة بوصة)، فإنها كانت رسماً مُفعماً بالتفاصيل يمثّل المسيح محمولاً إلى مدفن حديقة يوسف الأريماثيArimathea [1]. وفي أقصى يمين المُقدِّمة كان رجلان يبدو أنهما من خدم يوسف يحملان الجثمان بشكل أخرق. وخلفهما مباشرة تبعهما جوزيف الأريماثي – منتصب القامة بطريقة مُغالية قليلاً، في ظل الظرف

1- يوسف الأريماثي: ذُكِرَ في الأناجيل الأربعة في العهد الجديد، وهو الشخص الذي تبرّع بالقبر المُخصّص له من أجل دفن السيد المسيح فيه.. – المترجم

السائد. وعلى مسافة غير طويلة تدل على الاحترام خلف يوسف ظهرت نساء الجليل، مع حشد متنافر، وربما متطفّل من المُعزّين، والمتفرجين والأطفال، ولا أقلّ من ثلاثة من الهجين اللعوبين، غير الأتقياء. والشخص الأبرز بالنسبة إليّ في اللوحة كان امرأة في يمين المقدّمة، تواجه الناظر. يدها اليُمنى مرفوعة فوق مستوى الرأس، تُشير بحركة هستيريّة إلى شخص ما -ربما إلى طفلها، أو زوجها، أو ربما إلى الشخص الذي ينظر إليها- لكي يترك كل شيء من يده ويهرع إليها. واثنتان من النسوة، في الصف الأول من الحشد، تحيط هالتان برأسيهما. ولما لم يكن في متناولي نسخة من الكتاب المقدس، لم أستطع أنْ أُخمِّن بوضوح هويتهما. ولكن في الحال لمحتُ مريم المجدليّة. على أيّة حال، كنتُ متيقّناً من أنني لمحتها. كانت في وسط المقدّمة، بدا أنها تمشي منفصلة عن الحشد، وذراعاها إلى جانبيها. لم تكن تضع ما يدل على حزنها، إنْ صحّ التعبير، على كُمّها – في الحقيقة لم يكن هناك في مظهرها الخارجي أي شيء يدل على صِلتها التي تُحسَد عليها بالمتوفى. وكان وجهها، كوجوه الآخرين كلهم في اللوحة، مدهوناً بصباغ رخيص، مبتذل، بلون البشرة. وكان جليّاً بصورة مؤلمة أنَّ الأخت إرما نفسها وجدتْ أنَّ اللون غير مناسب وبذلتْ أقصى محاولاتها النبيلة، التي لا يُنصَح بها لكي تُخفّفه. فيما عدا ذلك لم يكن في اللوحة أي عيب جدّيّ. أي، لا عيب يستحق الذِكر. لقد كانت، بأي معنى مُقنِع، لوحة من إنتاج فنّان، مُشبّعة بموهبة فائقة التنظيم وبساعات لا حصر لها من العمل الشاقّ.

أحد ردود أفعالي الأولى كان، طبعاً، أنْ أهرع حاملاً مُغلّف الأخت إرما إلى مسيو يوشوتو. ولكن، من جديد، لزمتُ مقعدي، لم أرغب في أنْ أُجازف بحرماني من الأخت إرما. وأخيراً، اكتفيتُ بطيّ مُغلّفها بعناية ووضعه جانباً على طاولة المكتب، مفكراً بحماس في أنْ أعمل عليه في تلك الليلة، خلال وقت فراغي. ثم أمضيتُ بقيّة النهار، بقدرة على التحمّل تفوق كثيراً ما أتّصف به، إلى درجة الإرادة الحرة، في إجراء تصحيحات نسخ الورق الشفّاف على بعض الأشكال العارية لذكور وإناث (خالية من الأعضاء التناسليّة) رسمها ر. هوارد ريدجفيلد بأناقة وفحش.

مع اقتراب موعد وجبة العشاء، حللتُ ثلاثة من أزرار قميصي وخبّأتُ

مُغلف الأخت إرما في مكانٍ لا اللصوص، ولا الزوجان يوشوتو يمكن أنْ يقتحموه، فقط من باب ضمان الأمان.

كان ثمة إجراءٌ صامت لكنه مُحاط بالكتمان التامّ يكتنف وجبات العشاء في ليزامي ديه فيو ميتر. كانت مدام يوشوتو تنهض عن طاولة مكتبها على عجل عند الساعة الخامسة والنصف وترتقي إلى الطابق العِلويّ لكي تعدّ وجبة العشاء، ثم نتبعها أنا والمسيو يوشوتو -على التوالي- عند تمام الساعة السادسة. لم تكن هناك تحركات جانبيّة، مهما كانت أساسيّة أو تتعلّق بالسلوك الصحيّ. ولكن في تلك الأمسية، شعرت بارتياح تام، بوجود مغلّف الأخت إرما دافئاً على صدري. في الحقيقة، كنتُ أتصرف على سجيتي طوال فترة تناول العشاء. حكيتُ قصّة رائعة عن بيكاسو كانت قد خطرت في بالي تواً، حكاية من النوع الذي أدخره لوقت الحاجة. وكان مسيو يوشوتو نادراً ما يترك صحيفته اليابانيّة لكي يُصغي إليها، أما مدام يوشوتو فبدتْ متجاوبة، أو، على الأقلّ، ليست غير متجاوبة. وعلى أيّة حال، بعد أنْ انتهيتُ من سردها، تكلّمت معي للمرة الأولى منذ أنْ كانت قد سألتني في صباح ذلك اليوم إنْ كنت أفضّل أكل البيض. سألتني إنْ كنتُ متأكداً من أنني لا أرغب في وضع كرسيّ في غرفتي. أجبتُ بسرعة، «Non, non–merci, madame». قلتُ إنَّ الطريقة التي رُتِّبَتْ بها وسائد الأرضيّة مستندة إلى الجدار، تمنحني فرصة جيدة لجعل ظهري في حالة استقامة. ونهضتُ واقفاً لكي أبيِّن لها مدى انحناء ظهري.

بعد العشاء، وبينما الثنائي يوشوتو يناقشان، باليابانيّة، ربما موضوعاً استفزازيّاً، استأذنت بمغادرة المائدة، فنظر مسيو يوشوتو إليّ كما لو أنّه ليس متأكّداً تماماً كيف دخلتُ إلى المطبخ أصلاً، لكنّه أومأ برأسه موافقاً ومشيتُ بسرعة على طول الرواق إلى غرفتي. وعندما أدرتُ مفتاح النور المرتفع وأغلقتُ الباب خلفي، أخرجتُ أقلام الألوان الخشبيّة من جيبي، ثم خلعتُ سترتي، وحللتُ أزرار قميصي، وجلستُ على وسادة الأرض ممسكاً بمُغلّف الأخت إرما بين يديّ. وبقيتُ حتى ما بعد الساعة الرابعة صباحاً، وكل ما أحتاج إليه موزَّع حولي على الأرض، منكباً على ما اعتقدتُ أنّها احتياجات الأخت إرما الفنيّة، والفوريّة.

أول شيء فعلته هو أنني وضعتُ حوالي عشرة أو اثني عشر اسكتشاً

بالأقلام الخشبيّة. وبدل أنْ أهبط إلى الطابق السفليّ إلى غرفة المُعلِّمين لإحضار ورق الرسم، رسمتُ الاسكتشات على ورق الرسائل الخاصّ بي، مُستخدماً وجهَيّ صفيحة الورق الواحدة. وبعد أنْ تمّ العمل، كتبتُ رسالة طويلة إلى درجة حسبتُ أنها لن تنتهي.

طوال حياتي كنتُ مُقتصداً كأي طائر عقعق عُصابي بصورة استثنائيّة، وما زالت لدي المُسوّدة شبه الأخيرة من الرسالة التي كتبتها للأخت إرما في تلك الليلة من شهر حزيران عام 1939. وفي وسعي أنْ أقدِّم هنا صورة كاملة منها حرفيّاً، ولكن لا لزوم لذلك. واستخدمتُ الكم الهائل للرسالة، وأنا جادّ في قولي الكمّ الهائل، لكي أُلمّح إلى المكان والكيفيّة، في لوحتها الكبرى، واجهت بعض المتاعب، خاصة فيما يتعلّق بألوانها. ووضعتُ لائحة ببعض مؤونة الفنان وجدتُ أنها لا تستطيع الاستغناء عنها، وضمّنتها التكاليف التقريبيّة. وسألتها عمّن يكون دوغلاس بنتينغ، وأين أستطيع أنْ أشاهد بعضاً من أعماله. سألتها (وأنا أعلم كم هي صورة كبيرة) إنْ كانت قد شاهدتْ أيّة نسخ من لوحاته أعدّها أنتونيللو دا ميسينا. وطلبتُ منها أنْ تتلطّف وتخبرني عن عمرها، وأكّدتُ لها مطولاً أنَّ المعلومات التي قد تمدّني بها لن أبوح بها البتّة. وقلت إنَّ السبب الوحيد لسؤالي هو أنَّ المعلومات سوف تساعدني في إرشادها بصورة أكثر فاعليّة. وفي الواقع، سألتها، على الخط نفسه، إنْ كان قد سُمِحَ لها أنْ تستقبل زواراً في الدير.

أعتقد أنّه كان ينبغي إيراد الأسطر القليلة الأخيرة (أو الأقدام المُربّعة) من رسالتي هنا – مع مُراعاة الإعراب وعلامات الترقيم وما إلى ذلك.

«... بالمناسبة، إذا كنتِ تتقنين الفرنسيّة، آمل أنْ تُعلِميني لأنني قادر على التعبير عن نفسي بدقّة متناهية بتلك اللغة، بما أنني أمضيتُ ردحاً كبيراً من فترة شبابي في باريس، فرنسا، في الغالب.

بما أنك تُبدين اهتماماً ظاهراً بشأن رسم الأشخاص الراكضين، لكي تنقلي تلك التقنية إلى تلاميذك في الدير، فسوف أُضمِّن رسالتي بضعة اسكتشات رسمتها بنفسي قد تكون ذات فائدة. وسوف ترين أنني رسمتها على عجل وأنها ليست بأي حال مثاليّة أو حتى جديرة بالثناء، لكنني أعتقد أنها سوف تبيِّن

لكِ المبادئ التي أبديتِ اهتمامك بها. ويؤسفني كثيراً أنْ أخبرك بأنه لسوء الحظ ليس لدى مدير المدرسة أي نظام في أسلوب التعليم هنا. ويُسعدني أنك متقدمة كثيراً منذ الآن، ولكن ليست لديّ أدنى فكرة عمّا يتوقّع مني أنْ أفعل مع طلابي الآخرين الذين في اعتقادي متخلفون كثيراً وأغبياء في الأساس.

لسوء الحظ، أنا أعتنق مذهب اللاأدريّة: لكنني مُعجَب بالقديس فرنسيس الأسيسي عن بُعد، من دون أنْ أعبِّر عن ذلك. وأتساءل هل أنتِ على معرفة تامّة بما قاله (أعني القديس فرنسيس الأسيسي) عندما أوشكوا أنْ يكووا مُقلتَي عينيه بقضيب من الحديد الحامي، الملتهب؟ قال ما يلي: «أختي النار، لقد خلقك الله جميلة وقويّة ومفيدة، أتوسل إليك أنْ ترأفي بي». إنَّ رسمك، في اعتقادي، يُشبه قليلاً طريقة كلامه، من نواح عديدة ممتعة. وبالمناسبة، هل لي أنْ أسأل إنْ كانت المرأة الشابة التي تظهر في مقدمة اللوحة وترتدي الثوب الأزرق هي مريم المجدليّة؟ أعني اللوحة التي كنا نتناقش بشأنها، طبعاً. إنْ لم تكن هي، فقد ضلّلتُ نفسي للأسف. لكنَّ هذا ليس بالأمر الجديد.

آمل أنْ تعتبري أنني تحت تصرفك بالكامل ما دمتِ طالبة في مدرسة ليزامي ديه فيو ميتر. وبصراحة، أعتقد أنكِ تتصفين بموهبة عظيمة ولن أُذهل البتّة إذا تطورتِ وأصبحتِ عبقريّة قبل مرور سنوات عديدة. ولن أشجّعك بصورة زائفة في هذا الأمر. وهذا أحد الأسباب التي دفعتني إلى أنْ أسألك إنْ كانت السيدة الشابة التي في مقدمة اللوحة وترتدي الثوب الأزرق هي مريم المجدليّة، لأنّه إنْ كانت هي، أخشى أنكِ كنتِ تستخدمين عبقريتك الفِطريّة أكثر بصورة ما من استخدامك لميولك الدينيّة. ولكن في اعتقادي ليس هناك ما يستدعي الخوف.

مع أملي الصادق في أنْ تكوني بأتمّ صحة.

المُخلص لك دائماً (توقيع)

جان دو دوميه – سميث

مدرسة ليزامي ديه فيو ميتر

ملاحظة: كدتُ أنسى أنّه من المُفترَض بالطلاب أنْ يُسلّموا المغلفات للمدرسة مرة كل أسبوعين في يوم الإثنين. وكمهمة أولى لك هلّا تلطّفت ونفّذتِ لي بعض الاسكتشات لمناظر خارجيّة؟ افعلي ذلك بكل ارتياح ولا تجهدي نفسك. طبعاً، أنا لا أعلم كم من الوقت منحوك لكي تنفذي لوحاتك الشخصيّة في الدير وآمل أنْ تُسدي لي النصح. وأناشدكِ أيضاً أنْ تشتري تلك المؤن اللازمة التي سمحتُ لنفسي بالتوصية بها، كما أود منك أنْ تبدئي باستخدام الزيت في أسرع وقت ممكن. وأرجو أنْ تسمحي لي بالقول إنَّني أعتقد أنكِ تعشقين فقط الرسم بالألوان المائيّة وليس الرسم بالزيت على الدوام. أقول هذا بموضوعيّة تامة ولا أقصد أنْ أكون بغيضاً، في الحقيقة، القصد منه هو المديح. ثم أرجو أنْ ترسلي إليّ أعمالك السابقة كلها القديمة المتوفرة لديك، لأنني توّاق إلى مشاهدتها. سوف أقضي حتماً أياماً لا تُطاق إلى أنْ يصلني مغلفك التالي.

إذا لم أتجاوز حدودي، أحبّ كثيراً أنْ تُخبريني إنْ كنتِ تجدين انخراطك في سلك الرهبنة شيئاً مُرضياً جداً، طبعاً من الناحية الروحيّة. وبصراحة، لقد درستُ ديانات متنوعة على سبيل الهواية منذ أنْ قرأتُ الأجزاء 36 و44 و45 من سلسلة هارفرد للكتب الكلاسيكيّة، التي ربما أنت على عِلمٍ بها. وقد استمتعتُ على وجه الخصوص بقراءة مارتن لوثر، البروتستانتي، طبعاً. أرجو ألّا تشعري بأنَّ هذا الكلام مُهين. إنني لا أعتنق أي عقيدة؛ هذا ليس من شيمي. وختاماً، أرجوك لا تنسي أنْ تُسدي إليّ النُصح فيما يتعلّق بساعات زياراتك، بما أنَّ عطل نهاية الأسبوع يكون المرء حراً حسب عِلمي وقد يتصادف أنْ أتواجد قريباً من منطقتك ذات يوم سبت. وأرجو أيضاً ألّا تنسي أنْ تبلغيني إنْ كنتِ تُحسنين بشكل معقول اللغة الفرنسيّة، أما فيما يتعلّق بخططي وأهدافي فأنا لا أتكلّم الإنكليزيّة بسبب نشأتي المتغيِّرة والمُضطربة بدرجة كبيرة»

بعثتُ رسالتي ورسوماتي عبر مكتب البريد إلى الأخت إرما عند حوالي الساعة الثالثة والنصف صباحاً، ولكي أفعل ذلك خرجتُ إلى الشارع. ثم غمرني فرح غامر بالمعنى الحرفيّ للكلمة، وخلعتُ ملابسي بأصابع متيبّسة وأويت إلى السرير.

قُبيل أنْ أستغرق في النوم، وصلني من جديد صوت الأنين عبر الجدار الذي يفصلني عن غرفة نوم آل يوشوتو. وتخيّلتُ الثنائي يوشوتو يأتيان إليّ في الصباح ويطلبان مني، أو يرجوانني، أنْ أُصغي إلى مشكلتهما السريّة، وحتى أدقّ تفاصيلها. تخيّلتُ بدقّة كيف سيحدث الأمر. سوف أجلس بينهما على طاولة المطبخ وأُصغي إلى كلٍ منهما. وأصغي، وأصغي، وأصغي، ورأسي بين يديّ – إلى أنْ أقوم أخيراً، حين لا يعود في استطاعتي تحمّل المزيد، بمدّ يدي إلى نحر مدام يوشوتو، وحمل قلبها بيدي وتدفئته كأنه عصفور. ثم، عندما يوضع كل شيء في نصابه، أعرض عمل الأخت إرما للثنائي يوشوتو، وسوف يُشاركانني استمتاعي.

دائماً تتّضح الحقيقة بعد فوات الأوان، لكنَّ الفرق الأشدّ فرادة بين السعادة والفرح هو أنَّ السعادة صلبة والفرح مائع. وفرحي بدأ يتسرَّب من وعائه باكراً في صباح اليوم التالي، عندما مرَّ مسيو يوشوتو بطاولة مكتبي حاملاً مغلّفي طالبين جديدين. كنتُ حينئذٍ أعمل على رسومات بامبي كريمر عالماً، بكل هدوء، أنَّ رسالتي إلى الأخت إرما ترقد بأمان في مركز البريد. لكنني لم أكنْ مستعداً البتّة لمواجهة الحقيقة الغريبة القائلة إنَّ هناك شخصين في العالم أقلّ موهبة في الرسم من بامبي أو ر. هاورد ريدجفيلد. ولما شعرت بأنَّ قوتي تتسرّب مني، أشعلتُ سيجارة في غرفة المُعلّمين للمرّة الأولى منذ أنْ انضممت إلى هيئة التدريس. بدا ذلك مُفيداً، وعدتُ إلى عمل بامبي. ولكن قبل أنْ أستنشق الدخان أكثر من ثلاث مرات أو أربع، شعرتُ، من دون أنْ أنظر، أنَّ مسيو يوشوتو ينظر إليّ. ثم، من باب التوكيد، سمعت كرسيه يُدفع إلى الخلف. وكالمعتاد، نهضتُ لاستقباله مع اقترابه. شرح لي قائلاً، بهمسٍ لعين مُستفزّ، إنَّه شخصيّاً ليس لديه اعتراض على التدخين، لكنَّ سياسة المدرسة، للأسف، تناهض التدخين في غرفة المُعلّمين. وقاطعَ اعتذاري الضافي مُلوّحاً بيده بشهامة وعاد إلى الجانب الذي يجلس فيه مع مدام يوشوتو من الغرفة. وتساءلتُ، برعب حقيقيّ، كيف سأتمكن من المُحافظة على سلامة عقلي خلال الأيام الثلاثة عشر التالية حتى يوم الإثنين موعد وصول مغلّف الأخت إرما التالي.

***

حدث ذلك في صباح يوم الثلاثاء، وأمضيتُ باقي يوم العمل وطوال حصص العمل في اليومين التاليين منشغلاً بشكل محموم. فصلت رسومات بامبي كريمر ورسومات ر. هوارد ريدجفيلد، ووضعتها مع أجزاء جديدة. وأعددتُ لكليهما عدداً كبيراً من تمارين الرسم المُهينة، لأصحاب الذكاء المتدني، لكنها بنّاءة بحقّ. كتبتُ لهما رسائل مطوّلة، وأكاد أقول إنني توسلت إلى ر. هوارد ريدجفيلد أنْ يكفّ عن سخريته بعض الوقت. وطلبتُ من بامبي، بأقصى رقّة، ورجوتها أنْ تكفّ، مؤقّتاً، عن إنتاج المزيد من اللوحات التي تحمل عناوين على غرار «اغفر لهم تعدياتهم». ثم في منتصف يوم الخميس باشرت، مع شعور بالعافية والنشاط، مع أحد طالبين جديدين، أميركيّ من بانغور، ولاية مين، ذكر في استمارة استفتائه بأمانةٍ مُخادعة، ومُطنبة، أنّه هو فنّان نفسه المُفضّل لديه. وأشار إلى نفسه على أنّه واقعيّ -تجريديّ. أما خلال ساعات ما بعد انتهاء دوامي المدرسيّ، فركبتُ الحافلة في مساء يوم الثلاثاء وذهبتُ لحضور مناسبة عامة في مونريال وتحضير برنامج أسبوع الاحتفال بأفلام الكرتون في دار سينما من الدرجة الثالثة- وتبع ذلك مشاهدة سلسلة من القطط تقذفها جماعات من الفئران بقطع فلّين زجاجات الشمبانيا. وفي مساء يوم الأربعاء، جمعتُ وسائد الأرضيّة في غرفتي، وكوّمتُ بعضها فوق بعض بعلوّ ثلاث منها، وحاولتُ أنْ أضع اسكتشاً من الذاكرة للوحة الأخت إرما التي تمثّل دفن المسيح.

ثمة ما يغويني لقول إنَّ أمسية يوم الخميس كانت غريبة الأطوار، أو ربما مُروّعة، لكنَّ الحقيقة هي أنّه ليس في مخزوني أوصاف تلائم أمسية يوم الخميس. فقد غادرتُ ليزامي بعد العشاء وذهبت إلى مكان ما لم أعد أتذكّره - ربما لحضور فيلمٍ سينمائيّ، أو ربما خرجتُ لأتمشّى مُطوّلاً؛ لا أتذكّر، للمرة الأولى تخذلني مذكراتي في عام 1939 أيضاً، لأنَّ الصفحة التي أحتاجها خالية.

لكنني أعلم سبب خلوّ الصفحة. وفي طريق عودتي من حيث كنت أقضي أمسيتي -وأنا أعلم أنَّ ذلك كان بعد هبوط الظلام- توقفت على الرصيف خارج المدرسة ونظرتُ إلى واجهة العرض المُضاءة لمحل بيع معدّات التجبير. ثم وقع أمر شنيع جداً. فُرِضَتْ عليّ فكرةٌ مفادها أنّه مهما تعلّمت

ذات يوم أنْ أعيش حياتي بهدوء أو بشكل معقول أو تناسق، فسوف أكون في أفضل الأحوال دائماً زائراً في حديقة من المبولات المكسوة بالمينا ونونيات السرير، مع دمية محبوبة من الخشب، منزوعة العينين، واقفة جانباً كجزء من دعامة سقف ساقطة. ولا شك في أنَّه ما كان يمكن أنْ أتحمّل الفكرة لأكثر من بضع لحظات. أتذكّر أنني هرعتُ إلى غرفتي في الطابق العُلويّ وخلعتُ ملابسي ولجأتُ إلى السرير من دون حتى أنْ أفتح مفكرتي، أو أنْ أُضيف مادة إليها.

تمددتُ يقظاً على مدى ساعات طوال، أرتعش. أصغيتُ إلى الأنين الصادر من الغرفة المجاورة وأجبرتُ نفسي على التفكير في تلميذتي النجمة. حاولتُ أنْ أتخيّل اليوم الذي سأقوم فيه بزيارتها في الدير. تراءت لي تقترب لتستقبلني -بالقرب من سياج مرتفع من الأسلاك- فتاة جميلة خجول في الثامنة عشرة لم تتلقَّ بعد نذورها الختامية وما زالت حرّة في أنْ تخرج إلى العالم مع رجل أشبه ببيتر أبيلار اختارته بنفسها. تراءى لي أننا نتمشّى بخطى بطيئة، وبصمت، نحو الجزء النائي، الأخضر النضر من مساحة الدير، حيث أقوم فجأة، ومن دون الشعور بارتكاب إثم، بتطويق خصرها بذراعي. كانت الصورة تفيض بالبهجة بحيث من الصعب تثبيتها، وأخيراً تركتها تتلاشى، واستغرقت في النوم.

***

أمضيتُ فترة الصباح من يوم الجمعة ومعظم فترة بعد الظهيرة في العمل الشاقّ مُحاولاً، باستخدام ورقة إضافيّة شفّافة، تحويل غابة من الرموز الجنسيّة الذكريّة التي كان الرجل من بانغور، ولاية مين، قد رسمها عن وعي على ورق كتّاني نفيس، إلى أشجار. كنتُ أشعر ذهنيّاً، وروحيّاً، وجسديّاً، بحالةٍ من الخدَر حتى قرابة الساعة الرابعة والنصف بعد الظهيرة، وحالما هممتُ بالنهوض اقترب مسيو يوشوتو من طاولة مكتبي برهة، وأعطاني شيئاً - أعطاني إياه بحركة حياديّة كأي نادل عادي يوزّع لوائح الوجبات. كانت رسالة من الأم الكبرى في دير الأخت إرما، تبلّغ مسيو يوشوتو فيها أنَّ الأب زيمرمان مُضطر، لأسبابٍ خارجة عن إرادته، إلى تغيير قراره بشأن السماح للأخت إرما بالدراسة في مدرسة ليزامي ديه فيو ميتر. وقالت الكاتبة إنَّها

تشعر بأسف شديد إنْ كان هذا التغيير في الخطط قد عرَّضَ المدرسة لظروف مزعجة وفوضى. وهي تأمل بكل صدق أنْ تحوِّل دفعة رسم الدراسة الأولى البالغة أربعة عشر دولاراً إلى الأبرشيّة.

منذ سنين وأنا متيقّن من أنَّ الفأر يعرج عائداً إلى منزله قادماً من موقع دولاب الملاهي المُحترق مع خطّة جديدة، مُحكمة، لقتل القط[1]. وبعد أنْ قرأت وأعدتُ القراءة ومن ثم، على مدى عدة دقائق طويلة، أخذتُ أُحدِّق إلى رسالة الأم الكبرى، تركتها فجأة وكتبتُ رسائل موجّهة إلى طلابي الأربعة المتبقّين، أنصحهم فيها بالتخلّي عن فكرة أنْ يُصبحوا رسّامين. أخبرتهم، كلاً على حِدة، بأنهم لا يتمتعون بأيّ قدر من الموهبة تستحق الرعاية وأنهم ببساطة يُبددون وقتهم الثمين وأيضاً وقت المدرسة. كتبتُ الرسائل الأربع بالفرنسيّة. وبعد أنْ انتهيت من ذلك، خرجتُ على الفور وأودعتها مركز البريد. ولم يدم شعوري بالرضا طويلاً، لكنّه كان ممتعاً جداً في أثناء دوامه.

عندما حان الوقت للانضمام إلى مسيرة المطبخ من أجل تناول وجبة العشاء، طلبتُ الإذن لي بالغياب، لأنني أشعر بوعكة صحيّة. (كذبتُ، في عام 1939، مع قناعة أكبر تفوق قناعتي بقول الحقيقة – لذلك أنا متأكّد من أنَّ مسيو يوشوتو رماني بنظرة ارتياب عندما قلت إنني أشعر بوعكة صحيّة) ثم توجهتُ إلى غرفتي وجلست على إحدى الوسائد، وبقيت جالساً طوال ساعة كاملة، مُحدّقاً إلى ثقب في ستارة النافذة يتسرب منه ضوء النهار، من دون أنْ أدخن أو أخلع معطفي أو أحلّ ربطة عنقي. ثم، وبسرعة، نهضتُ واقفاً وأحضرت كميّة من أوراقي الخاصة بالرسائل الشخصيّة وكتبتُ رسالة أخرى للأخت إرما، مُستخدماً الأرض كطاولة للكتابة.

ولم أعمد قط إلى إيداع الرسالة صندوق البريد. والصورة التالية نُسِخَتْ مباشرة عن الأصل.

مونريال، كندا، 28 حزيران، 1939

عزيزتي الأخت إرما،

1- إشارة إلى أحد أفلام الكرتون «توم وجيري»

هل تصادفَ أنْ قلتُ أي شيء بغيض أو مُهين لك في رسالتي الأخيرة لفتَ انتباه الأب زيمرمان وأزعجك بصورة ما؟ إليك ما حدث، أتوسل إليك أنْ تمنحيني على الأقلّ فرصة معقولة لكي أتراجع عمّا يمكن أنْ أكون قد قلت من غير قصد وسط حماستي لأعقد صداقة معك بالإضافة إلى كوننا طالباً وأستاذاً. هل أطلب منك الكثير؟ لا أعتقد.

إنَّ الحقيقة العارية هي ما يلي: إذا لم تتعلّمي المزيد من مبادئ المهنة، فلن تُصبحي إلّا فنانة مُثيرة للكثير جداً من الاهتمام وحتى آخر حياتك بدل أنْ تُصبحي فنانة عظيمة. وهذا أمر فظيع، في اعتقادي. أترين مدى خطورة الوضع؟

من المُحتمل أنْ يكون الأب زيمرمان قد دفعك إلى الامتناع عن التردّد على المدرسة لأنه رأى أنَّ هذا قد يتعارض مع كونك راهبة كفؤة. وإذا كان الأمر كذلك، لا يسعني إلّا أنْ أقول إنني أعتقد أنَّ ذلك كان تهوّراً منه بأكثر من طريقة. ولن يتعارض مع كونك راهبة. أنا نفسي أعيش كأنني راهب ذو تفكير شرير. وأسوأ ما يمكن لكونك فنانة أنْ يُسبّبه لك هو أنْ يجعلك باستمرار تعيسة قليلاً. ومع ذلك، هذا ليس وضعاً مأساويّاً في رأيي. إنَّ أسعد يوم في حياتي حلَّ قبل سنين عديدة وأنا في السابعة عشرة من عمري. كنت في طريقي لتناول وجبة الغداء مع أمي التي خرجت إلى الشارع للمرة الأولى بعد فترة مرض طويلة، وشعرتُ بسعادة منتشية عندما تصادف أنْ قابلت شخصاً، وأنا في طريقي إلى جادّة فيكتور هوغو، في باريس، ليس لديه أنف. أرجو أنْ تنتبهي إلى هذا العامل، بل إنني أناشدك. فهو مُترع بالمغزى.

من المُحتمل أيضاً أنَّ الأب زيمرمان جعلك تمتنعين عن الالتحاق بالمدرسة ربما لأنَّ ديرك يفتقر إلى المال من أجل دفع قيمة قسط الدراسة. وبصراحة آمل أنْ يكون الأمر هكذا، ليس فقط لأنه يُطمئنني، وإنما بالمعنى العمليّ. وإذا كان الأمر كذلك، يكفي أنْ تطلبي وسوف أُقدِّم خدماتي مجاناً لفترة غير مُحدَّدة من الزمن. هل نستطيع أنْ نشبع المسألة بالمزيد من النقاش؟ هل لي أنْ أسأل من جديد ما هي الأيام المُخصّصة للزيارات في الدير؟ هل أستطيع أنْ أفكِّر في زيارة الدير بعد ظهيرة يوم السبت القادم، السادس من شهر تموز، بين الساعة الثالثة والخامسة بعد الظهر، حسب

جدول مواعيد القطار المتوجه من مونريال وتورنتو؟ أنا في انتظار جوابك على أحرّ من الجمر.

مع احترامي وإعجابي،
المُخلص لك،
(توقيع)
جان دو دومييه - سميث.
عضو هيئة التدريس
في ليزامي ديه فيو ميتر.

ملاحظة: في رسالتي الأخيرة سألتُ عَرَضاً إنْ كانت السيدة الشابة التي ترتدي الثوب الأزرق وتظهر في مقدمة لوحتك ذات الموضوع الديني هي مريم المجدليّة، الآثمة. فإذا لم تكتبي بعد رداً على رسالتي، فلا تفعلي. لأنَّه من المُحتمل أنْ أكون مُخطئاً وأنا لا أتعمّد إثارة أيّة خيبة أمل في هذه المرحلة من حياتي. وأرغب في أنْ أبقى في الظل.

حتى هذا اليوم، وفي وقت متأخِّر كهذا، أُجفل كلما تذكّرتُ أنني أحضرتُ معي إلى ليزامي بذلة عشاء. ولكن هذا ما فعلت، وبعد أنْ انتهيت من كتابة رسالتي إلى الأخت إرما، ارتديتُ البذلة. بدا الأمر كلّه يستدعي الشرب حتى السُكر، وبما أنّه لم يحدث قط في حياتي أنْ سكرت (خشية أنْ يتسبَّب الإفراط في السكر ارتعاش يدي التي استخدمتها في رسم اللوحات التي فازت بالجوائز الثلاث الأولى، إلى آخره) شعرتُ بأنني مُجبَر على ارتداء ملابس تليق بالمناسبة المأساويّة.

بينما كان الثنائي يوشوتو لا يزال في المطبخ، تسلّلتُ إلى الطابق السفليّ، واتّصلتُ هاتفيّاً بفندق ويندسور - الذي كانت صديقة بوبي، مدام X، قد أوصتني بالنزول فيه قبل أنْ أغادر نيويورك. وحجزتُ طاولة لشخصٍ واحد، من أجل الساعة الثامنة.

عند حوالي الساعة السابعة والنصف، ارتديتُ ملابسي وتأنّقت، ثم أبرزتُ رأسي من باب غرفتي لأرى إنْ كان أيّ من الثنائي يوشوتو يجوس المكان. لم أرغب، لسبب ما، في أنْ يرياني مرتدياً سترة العشاء. لم أر أياً منهما، فهرعت إلى الشارع وبدأتُ أبحث عن سيارة أجرة. كانت رسالتي الموجَّهة إلى الأخت إرما في جيب سترتي الداخلي. وفي نيّتي أنْ أعيد قراءتها وأنا أتناول وجبة العشاء، وفضّلت أنْ يكون ذلك على ضوء الشموع.

رحت أمشي وأمشي ولم أتمكّن من العثور على أيّة سيارة أجرة، فما بالك بسيارة خالية من الركّاب. كان المشوار صعباً. وكان قِطاع فيردون من مونريال حيّاً أبعد ما يكون عن الأناقة، وكنتُ مُقتنعاً من أنَّ كل عابر سبيل يرميني بنظرة ثانية، انتقاديّة بقسوة في أساسها. وأخيراً وصلتُ إلى الحانة التي تقدِّم غداء وكنتُ قد تناولتُ «شطائر كوني أيلند» فيها في يوم الإثنين، وقرّرتُ أنْ ألغي حجزي في فندق ويندسور. ولجت الحانة التي تقدِّم الوجبات، وجلست في مقصورة منزوية، وأبقيتُ يدي اليُسرى على ربطة عنقي وأنا أطلب الحساء، والخبز والقهوة السادة. وتمنيتُ أنْ يعتقد باقي العاملين في المكان أنني نادل في طريقه لممارسة عمله.

بينما كنتُ أشرب كوبي الثاني من القهوة، أخرجتُ رسالتي الموجّهة إلى الأخت إرما ولم أودعها البريد بعد وأعدتُ قراءتها.

بدا محتواها قليلاً، وقرّرتُ أنْ أهرع عائداً إلى ليزامي وأعدّلها قليلاً. وفكّرتُ أيضاً في خططي لزيارة الأخت إرما، وتساءلتُ إنْ كانت فكرة جيدة أنْ أستقل القطار في وقت لاحق من تلك الليلة. غادرت حانة تقديم الوجبات -حاملاً معي هاتين الفكرتين- اللتين لم تمنحني أيٌّ منهما الحماس الذي أحتاج - وأسرعت في العودة إلى المدرسة.

بعد ذلك بخمس عشرة دقيقة وقع معي أمر مفاجئ، هو تصريح يتّسِم بكل السِمات السيئة لشيء متراكم، لكنّ العكس كان صحيحاً. إنني مُقدِمٌ على التطرّقِ إلى تجربة استثنائيّة، ما زلتُ أعتبرها مُبهمة تماماً، وأودّ، إن استطعت، أنْ أتجنّب أنْ أبدو كأنني أُقدّمها على أنّها قضيّة تصوّف حقيقيّ، أو حتى قضيّة غير واضحة. (أشعر بأنني إنْ فعلت غير ذلك فسوف يكون

مُعادلاً للقول ضمناً أو تقريراً إنَّ الفرق في النوبات الروحيّة بين القديس فرانسيس ومُقبِّل المجذومين العادي، الحسّاس، في يوم الأحد، هو مجرد فرق في المرتبة)

في غسق الساعة التاسعة، ومع اقترابي من مبنى المدرسة على الجانب المقابل من الشارع، كان هناك ضوء ينبعث من محل بيع أدوات التجبير. أجفلتُ عندما رأيتُ شخصاً حياً في واجهة المحل، فتاة ضخمة الجثة في حوالي الثلاثين من العمر، ترتدي ثوباً من الشيفون بألوان الأصفر والخزامى، والأخضر، وتبدّل دعامة الدمية الخشبيّة. مع اقترابي من واجهة العرض، بدا واضحاً أنها نزعت الدعامة القديمة، وتتأبّطها تحت ذراعها اليسرى (جانب جسمها الأيمن كان متّجهاً نحوي)، وكانت تثبّت الدعامة الجديدة على الدمية. وقفت أراقبها مبهوراً، إلى أنْ أحسّتْ فجأة، ثم رأتْ، أنَّ ثمة مَنْ يُراقبها. ابتسمتُ بسرعة -لكي أبيِّن لها أنَّ الشخص المرتدي بذلة الجوخ الواقف عند الغسق على الجانب المقابل من لوح الزجاج ليس عِدائيّاً- لكنَّ ذلك لم يفدني. فالاضطراب الذي استولى على الفتاة تعدّى كل الأبعاد الطبيعيّة. فقد احمرّتْ خجلاً، وأسقطت الدعامة التي أزالتها، وتراجعت خطوة إلى الخلف نحو ركام من أحواض الريّ - وتعثّرت بخطوتها. وفي الحال مددتُ يدي نحوها، فارتطمت أطراف أصابعي بالزجاج، واستقرَّت الفتاة بكل ثقلها على مؤخرتها، كمتزلّج. وفي الحال نهضَتْ واقفة على قدميها من دون أنْ تنظر إليّ، ووجهها لا يزال متورّداً، ودفعتْ شَعرها نحو الخلف بإحدى يديها، واستأنفت وضع الدعامة على الدمية. عندئذٍ بالضبط مررتُ بتجربتي. فجأة (أعتقد أنني أقول هذا بكل ما يتطلّبه الأمر من وعي ذاتيّ)، أشرقت الشمس وهرعت نحو جسر أنفي بسرعة ثلاثة وتسعين مليون ميل في الثانية. شعرتُ بالانبهار وانتابني خوف شديد - واضطررتُ إلى وضع يدي على الزجاج لكي أُحافظ على توازني. لم تستمر التجربة أكثر من بضع ثوان. وعندما استعدتُ بصري، كانت الفتاة قد اختفت عن الواجهة، مُخلّفة وراءها حقلاً خفّاقاً من الأزهار اللامعة، المتألّقة والرائعة.

تراجعتُ عن الواجهة ومشيتُ ودرتُ حول المبنى مرّتين، إلى أنْ توقفت رُكبتاي عن التلوّي ثم ارتقيتُ إلى الطابق العِلويّ إلى غرفتي وتمدّدتُ على

سريري ولم أجرؤ على المغامرة بالنظر من جديد إلى داخل واجهة المحل. وبعد بضع دقائق، أو ساعات أخرى، أضفتُ المادة التالية المُقتضبة إلى مفكرتي، بالفرنسيّة: «إنني أمنح الأخت إرما الحرية في السير على طريق قَدَرها. إنَّ كل شخص راهب» (Tout le monde est une nonne).

قبل أنْ آوي إلى السرير لقضاء الليل، كتبتُ رسائل إلى طلابي الأربعة الذين طُرِدوا تواً، أدعوهم إلى العودة. قلتُ إنَّ ثمة خطأ ارتكبته الإدارة. في الحقيقة، بدا كأنَّ الرسائل تكتب نفسها بنفسها. قد يكون لذلك صِلة بحقيقة أنّني، قبل أنْ أجلس لأكتب، جلبتُ كرسيّاً من الطابق السفليّ.

يبدو شيئاً مُحبِطاً أنْ أذكر أنَّ مدرسة ليزامي ديه فيو ميتر أغلقتْ أبوابها بعد ذلك بأقلّ من أسبوع، لأنَّ رخصتها غير قانونيّة (في الحقيقة، لأنها لم تكن قد حصلتْ على أيّة رخصة أصلاً). وحزمت أمتعتي وانضممتُ إلى بوبي، زوج أمي، في رود أيلند، حيث أمضيتُ الأسابيع الستة أو الثمانية التالية، إلى أنْ أُعيد افتتاح مدرسة الفنون، في ملاحقة الحيوانات المُثيرة للاهتمام التي تنشط في الصيف، الفتيات الأميركيات بالبنطلونات القصيرة.

ولم أعمد بعد ذلك قط إلى الاتّصال بالأخت إرما، سواء أكان صواباً هذا أم خطأً.

ولكن ما زالت تصلني أخبار من بامبي كريمر، بين حين وآخر. وفي آخر مرّة وصلتني أخبارها، كانت قد انتقلتْ إلى تصميم بطاقات أعياد الميلاد الخاصة بها. وسوف تكون البطاقات عملاً مميَّزاً، إذا لم تكن بامبي قد فقدتْ لمستها الإبداعيّة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

تيدي

«سوف أجعلك تقضي يوماً استثنائياً يا صاحبي، إذا لم تنزل عن تلك الحقيبة في الحال. وأنا أعني ما أقول». هذا ما قاله السيد مكاردل. كان يتكلَّم من داخل السرير المزدوج – السرير البعيد عن الكوّة. وبتذمُّرٍ خبيث أكثر منه تنهّداً، دفعتْ قَدَمه الغطاء العلويّ كاشفة عن كاحليه، وكأنَّ أيّ نوع من الأغطية أصبح فجأة يؤذي جسمه الذي بدا واهناً وأحرقته أشعة الشمس ولم يعُد يطيقه. كان يتمدَّد على ظهره، ولا يرتدي غير بنطلون بيجامته، ويحمل سيجارة مشتعلة بيده اليُمنى. وكان رأسه مُستنداً بالشكل الذي يجعله في وضعيّة غير مُريحة، بل مُعذِّبة، على قاعدة اللوحة الرأسيّة. وكانت وسادته والمنفضة على الأرض بين سريره وسرير السيدة مكاردل. ومن دون أنْ يرفع جسمه، مدّ ذراعه اليُمنى العارية، الملتهبة بلون ورديّ ونفض رماد سيجارته في الاتجاه العام للطاولة الليليّة. قال «أكاد لا أُصدِّق أننا في شهر تشرين الأول بحقّ. إنْ كان هذا هو طقس شهر تشرين الأول، فإنني أفضِّل شهر آب»، وأدار رأسه من جديد إلى الجهة اليُمنى، نحو تيدي، ساعياً إلى إثارة المشاكل. قال «قُلْ شيئاً. لِمَ في اعتقادك أنا أتكلَّم؟ من أجل صحتي؟ انزل عن مكانك، من فضلك». كان تيدي واقفاً على الجانب العريض من حقيبة غلادستون من جلد البقر تبدو جديدة، وهي الوضعيّة الأفضل للإطلال من كوّة والديه المفتوحة. كان ينتعل حذاءً رياضيّاً يُغطي الكاحلين أبيض اللون، وغاية في القذارة، وبلا جورب، ويرتدي بنطلوناً قصيراً مُخططاً أطول مما ينبغي بالنسبة إلى قدميه وعلى الأقلّ بحجم مبالغ في حجمه عند المقعدة، وقميصاً رياضيّاً مغسولاً ومكوياً بصورة مبالغ فيها وبه ثقب بحجم قطعة نقدية على الكتف اليمنى، ويضع حزاماً أسود من جلد التماسيح، وسيماً

بصورة متنافرة. كان في حاجة إلى حلاقة شعره -خاصة عند مؤخر العنق- بأسوأ طريقة يمكن لصبي صغير ذي رأس كامل النموّ وعنق يُشبه القصبة أنْ يحتاج تلك الحلاقة.

«تيدي، ألم تسمعني؟»

لم يكن تيدي يميل إلى خارج الكوّة كثيراً أو بصورة تعرّضه للخطر كما يفعل الصِبية الصغار عندما يطلّون من الكوى المفتوحة -وكانت كلتا قدميه تلامسان الحقيبة- ولكنه لم يكن أيضاً يقف على أطراف أصابع قدميه بصورة آمنة؛ وكان وجهه يقع خارج القمرة أكثر من داخلها. ومع ذلك، كان يقف على مسافة كافية ليسمع صوت والده -أي صوت والده حصراً. كان السيد مكاردل يقوم بتمثيل أدوار رئيسيّة في ما لا يقلّ عن ثلاثة مسلسلات إذاعية خلال النهار في أثناء وجوده في نيويورك، وكان صاحب ما يمكن أنْ يُسمّى صوت متكلِّم رئيسي من الطبقة الثالثة: أي عميق ورنّان بصورة نرجسيّة، وعلى استعداد عمليّ في حال استدعائه للتفوّق على أي شخص في المكان بطبيعة ذلك الصوت الذكوريّة، وعلى أي صبي صغير إذا لزم الأمر. وعندما يكون ذلك الصوت في حالة عطلة من الأداء المهنيّ، كان ينخفض، تقليديّاً، ويعشق فقط السِمة الجهورية والاستعراضيّة للهدوء والثبات. أما الآن، فكانت سِمة الجهورة منتظمة. «تيدي. اللعنة- ألم تسمعني؟»

استدار تيدي بدءاً من الخصر، من غير أنْ يُبدّل الوضعيّة الحذرة لقدمه على الحقيبة الجلديّة، ورمى والده بنظرة مُستفهمة، كاملة ونقيّة. كان في عينيه، بلونهما البنيّ الفاتح، وليستا شديدتي الاتّساع، قليل من الحول - في العين اليُسرى أكثر من العين اليُمنى. ولم يكن الحول فيهما كبيراً بحيث يتحول إلى تشوّه، أو حتى أنْ يكون ملحوظاً بالضرورة منذ النظرة الأولى. والحول فيهما كافٍ بحيث يُذكر، وفقط في سياق أنَّ المرء يمكن أنْ يُفكِّر مطوّلاً وجدّياً قبل أنْ يتمنّى أنْ تُصبحا سويتين أكثر، أو أعمق، أو لونهما بُنّياً أكثر، أو أكثر اتساعاً. ووجهه، كما هو، كان يتّسم بجمالٍ حقيقيّ، على الرغم من كونه منحرفاً وبطيئاً في تأثيره.

قال السيد ماكاردل «أريدك أنْ تنزل عن الحقيبة، الآن. كم مرّة تريد مني أن أطلب منك هذا؟»

قالت السيدة مكاردل، التي من الواضح أنها واجهتْ صعوبة في جيوبها الأنفيّة في الصباح الباكر، «ابقَ حيث أنت، يا عزيزي». كانت عيناها مفتوحتين، ولكن قليلاً فقط. «إياك أنْ تأتي بأيّة حركة». كانت مستلقية على جنبها الأيمن، ووجهها، الموضوع على الوسادة، التفتت جهة اليسار، نحو تيدي والكوّة، وأبقتْ ظهرها يواجه زوجها. كان غطاء السرير الثاني مشدوداً على جسدها الذي من المُحتمل جداً أنْ يكون عارياً، ويُدثّرها، مع ذراعيها وكل أعضائها، وحتى ذقنها. قالت «اقفز إلى أعلى وإلى أسفل»، وأغمضتْ عينيها، «واسحق حقيبة البابا»

قال السيد مكاردل بهدوء وثبات، مُخاطباً خلفيّة رأس زوجته، «كلام رائع. أنا أدفع اثنين وعشرين جنيهاً ثمناً لحقيبة، وأطلب من الصبي بكل تحضّر ألّا يقف عليها، وأنتِ تطلبين منه أنْ يقفز إلى أعلى وأسفل عليها. ماذا يُفترَض أن يكون هذا؟ شيئاً مُضحكاً؟»

قالت السيدة مكاردل، من دون أنْ تفتح عينيها، «إذا لم يكن في استطاعة حقيبة أنْ تدعم صبي في العاشرة، الذي يقلّ وزنه بمقدار ثلاثة عشر رطلاً بالنسبة إلى مَنْ في مثل عمره، فلا أريد أنْ أحتفظ بها في قمرتي»

قال السيد مكاردل «أتعرفين ماذا أحبّ أنْ أفعل؟ أحبّ أنْ أرفس رأسك اللعين حتى أشقّه»

«لِمَ لا تفعل؟»

قام السيد مكاردل بسرعة بالاستناد إلى أحد مرفقيه وسحق عقب سيجارته على السطح الزجاجي للطاولة الليليّة. باشر بالقول بتجهّم «ذات يوم–»

قالت السيدة مكاردل بأقلّ قدر من الطاقة، «ذات يوم، سوف تُصاب بنوبة قلبيّة مأساويّة، مُدمّرة». ومن دون أنْ تُخرِج ذراعيها إلى العلن، شدَّتْ أعلى الغطاء أكثر حول جسمها وتحته. «وسوف تُقام لك جنازة صغيرة، تنمّ عن ذوق رفيع، وسوف يسأل الجميع مَنْ تلك المرأة الجذّابة ذات الثوب

الأحمر، الجالسة هناك في الصف الأول، وتعزف على آلة الأرغن وتُصدر موسيقى قُدسيّة-»

قال السيد مكاردل، الذي استلقى من جديد بسكون على ظهره، «أنتِ مُضحكة جداً بدرجة غير مُضحكة»

في أثناء هذا الحديث القصير، أدار تيدي وجهه واستأنف الإطلال من الكوّة. قال ببطء «لقد مررنا بسفينة كوين ميري عند الساعة الثالثة واثنتين وثلاثين دقيقة هذا الصباح، وهي ذاهبة في الاتّجاه المعاكس، إنْ كان بينكما مَنْ يهتم بهذا، وهو ما أشكّ فيه». كان صوته خشناً بصورة غريبة وجميلة، كحال أصوات بعض الصِبية. كانت بعض صياغاته اللفظيّة تشبه قليلاً جزيرة قديمة، مغمورة ببحر مُصغَّر من الويسكي. «وهو ما يشمئز المسؤول عن سطح السفينة بوبر من وضعه على لائحته»

قال والده «سوف أجعلك مثل السفينة كوين ميري، يا صاحبي، إذا لم تنزل عن الحقيبة فوراً»، وأدار وجهه نحو تيدي. «انزل من هناك، الآن. واذهب لتقصّ شعرك أو افعل شيئاً ما» ونظر من جديد إلى خلفيّة رأس زوجته. «يبدو أنضج من سنّه وحقّ الله»

قال تيدي «ليس لديّ أية نقود». ووضع كلتا يديه بشكلٍ آمن أكثر على حافة الكوَّة، وأخفض ذقنه ليضعها على خلفيّة أصابعه. «أمي، أتعرفين الرجل الذي يجلس بجوارنا مباشرة في غرفة الطعام؟ ليس النحيل جداً. الآخر، على المائدة نفسها. مباشرة بجوار المكان الذي وضع فيه نادلنا صينيّته»

قالت السيدة ماكاردل «نعم، تيدي. عزيزي. اترك الماما تنام فقط خمس دقائق أخرى، كأي صبي مؤدب»

قال تيدي، من دون أنْ يرفع ذقنه عن موقع استقرارها ومن دون إبعاد عينيه عن المُحيط. «كان في صالة الألعاب الرياضيّة قبل قليل، بينما كان سفِنْ يوزنني. اقترب وبدأ يكلمني. لقد استمتع بالاستماع إلى ذلك الشريط الذي سجّلتُه. ليس ذاك الذي سجلته في شهر نيسان، بل في أيار. كان موجوداً في حفل في بوسطن قبيل توجّهه إلى أوروبا، وكان أحد حضور الحفلة يعرف شخصاً في جماعة ليديكر للفحص -لم يذكر اسمه- واستعارا ذلك الشريط

الأخير الذي سجّلته وأدرته في أثناء الحفلة. وبدا شديد الاهتمام به. إنّه صديق البروفسور بابكوك. ويبدو أنّه هو نفسه أستاذ. قال إنه مارس التدريس في كليّة ترينيتي في دبلن، طوال فصل الصيف»

قالت السيدة مكاردل «أحقاً؟ أداروا الشريط في الحفلة؟». استلقت تُحدق بنظرة ناعسة إلى خلفيّة ساقَي تيدي.

قال تيدي «أعتقد ذلك. لقد أخبر سِفِن الكثير عني، في حضوري. وشعرت بشيء من الحرج»

«لِمَ شعرتَ بالحرج؟»

تردَّد تيدي في الإجابة. «أنا قلت «بشيء» من الحرج. لقد حدَّدتُ كلامي»

قال السيد مكاردل «سوف أُحدّدك، يا صاحبي، إذا لم تبتعد عن تلك الحقيبة». كان قد أشعل تواً سيجارة جديدة. «سوف أعدّ حتى ثلاثة. واحد، اللعنة... اثنان...»

فجأة سألَت السيدة مكاردل مُخاطبة خلفيّة ساقَي تيدي «كم الساعة؟ أليس لديك موعد مع بوبر لتلقّي درس السباحة في الساعة العاشرة والنصف؟»

قال تيدي «ما زال أمامنا وقت... فرووووم!»، وفجأة أخرج كامل رأسه من الكوّة، وأبقاه هناك بضع لحظات، ثم أدخله مدة كافية لكي يُقدّم تقريره. «هناك مَنْ رمى حاوية كبيرة من قمامة قشور البرتقال من النافذة»

قال السيد مكاردل متهكماً، وهو ينفض الرماد عن سيجارته، «من النافذة. من النافذة. يُقال من الكوّة، يا صاحبي، من الكوّة»، ونقل بصره إلى زوجته. «اتصلي ببوسطن. أسرعي، اتّصلي بمجموعة ليديكر للفحص هاتفياً»

قالت السيدة مكاردل «أوه، يا لك من ذكي لامع. لِماذا تحاول أنْ تبرهن على ذلك؟»

أدخلَ تيدي الجزء الأكبر من رأسه، وقال من دون أنْ يلتفت، «إنها تطفو بشكل جميل. وهذا مُثير للاهتمام»

«تيدي، أقولها للمرّة الأخيرة. سوف أعدّ حتى الثلاثة، ومن ثم سوف–»

قال تيدي «أنا لا أقصد أنها مُثيرة للاهتمام لأنها تطفو، بل مُثيرة للاهتمام

لأنني أعرف أنها موجودة هناك. ولو لم أشاهدها لما علِمتُ بوجودها، ولو لم أعلم بوجودها، لما تمكّنت من القول إنها موجودة. وهذا مثال جميل جداً، ومثاليّ على الطريقة التي-»

قاطعته السيدة مكاردل، من دون أنْ يبدو أنها تحركت من تحت الغطاء العِلويّ، «تيدي، اذهب إلى بوبر إكراماً لي. أين هي؟ لا أريد لها أنْ تتسكّع تحت أشعة الشمس تلك من جديد مع ذلك المتشرِّد»

قال تيدي «إنها متدثّرة بصورة كافية. لقد جعلتها ترتدي ملابس. بعضها بدأ يغوص الآن. وفي غضون بضع دقائق، الموقع الوحيد الذي ستبقى فيه طافية سيكون في ذهني. وهذا شيء مُثير لكثير من الاهتمام، وإذا نظرتِ إليها بطريقة معيَّنة، ستجدين أنَّ هنا بدأتْ عمليّة الطفو أصلاً. ولو لم أقف هنا، أو لو أنَّ أحدهم جاء وقطع رأسي من حيث أقف بينما أنا-»

سألته السيدة مكاردل «أين هي الآن؟ انظر إلى أمك برهة، يا تيدي»

استدار تيدي ونظر إلى أمّه. قال «ماذا؟»

«أين بوبر الآن؟ لا أريد لها أنْ تتسكع بين كراسي سطح المركب من جديد، وتزعج الناس. إذا ذلك الرجل الشنيع-»

«إنها طيبة. لقد أعطيتها آلة التصوير»

رفع السيد مكاردل نفسه مُستنداً إلى إحدى ذراعيه. قال «أعطيتها آلة التصوير، لِمَ فعلتَ هذا؟ آلة التصوير خاصتي! لن أدع صبيّاً في السادسة من العمر يعيث فساداً في المكان-»

قال تيدي «لقد بيَّنتُ لها كيف ينبغي حملها بحيث لا تقع، بعد أنْ أخرجتُ الفيلم منها، طبعاً»

«أريد آلة التصوير تلك، يا تيدي. أتسمعني؟ أريد منك أنْ تنزل عن تلك الحقيبة في الحال، وأريد أنْ أستعيد آلة التصوير في هذه الغرفة في غضون خمس دقائق - وإلّا سوف يكون بين المفقودين عبقريّ صغير. هل كلامي واضح؟»

أدار تيدي قدمه حول محورها وهو على الحقيبة الجلديّة، ونزل عنها.

ومال إلى الأمام وربط شريط فردة حذائه اليُسرى بينما والده يُراقبه، ولا يزال مرتكزاً على أحد مرفقيه، كمرقاب.

قالت السيدة مكاردل «أخبر بوبر أنني أريدها، وأعط أمك قبلة»

بعد أنْ انتهى تيدي من ربط شريط حذائه، طبع بفتور قبلة على وجنة أمّه. وبدورها مدّتْ ذراعها اليُسرى من تحت الغطاء، كأنها تنوي أنْ تُحيط بها خصر تيدي، ولكن حالما أخرجتها من تحت، كان تيدي قد تابع سيره، والتفَّ من الجانب الآخر وولج الحيز بين السريرين. وانحنى، ثم استقام متأبطاً وسادة والده تحت ذراعه اليسرى وحاملاً المنفضة الزجاجيّة التي تنتمي إلى الطاولة الليليّة، بيده اليُمنى. ثم نقل المنفضة إلى يده اليُسرى، وتقدَّمَ من الطاولة الليليّة، وبحافة يده اليُمنى جرف أعقاب السجائر والرماد التي خلّفها والده إلى المنفضة. وقبل أنْ يعيدها إلى مكانها، استعان بالجانب السفلي من ساعده لكي يمسح الأثر الخفيف الذي خلّفه الرماد من سطح الطاولة الزجاجيّ. مسح ساعده على بنطلونه القصير المُخطَّط، ثم وضع المنفضة على السطح الزجاجيّ، بعناية فائقة، كأنّه يعتقد أنَّ المنفضة يجب أنْ تكون في مركز سطح الطاولة الليليّة أو لا توضَع هناك أبداً. عند تلك النقطة، تخلّى والده بسرعة، وكان يُراقبه، عن مراقبته. سأله تيدي «ألا تريد وسادتك؟»

«أريد آلة التصوير تلك، أيّها الشاب»

قال تيدي «لا يمكن أنْ تكون مرتاحاً كثيراً في تلك الوضعيّة. هذا مستحيل. سوف أتركها هنا»، ووضع الوسادة عند أسفل السرير، بالقرب من قدمَي والده. وخرج من القمرة»

قالت أمّه، من دون أنْ تتقلّب، «تيدي، أخبر بوبر أنني أريد أنْ أراها قبل أنْ تبدأ درس السباحة»

سأل السيد ماكاردل «لِم لا تتركين الصبي وشأنه؟ يبدو أنك تكرهين أنْ تحظى ببضع دقائق قليلة من الحرية. أتدركين كيف تعاملينها؟ سوف أبيِّن لك بالضبط كيف تعاملينها. إنكِ تعاملينها كأنها مُجرمة وضيعة»

«وضيعة! أوه، كلمة ظريفة! إنك تصبح ضليعاً في الإنكليزيّة، يا حبّي»

تلكّأ تيدي برهة عند الباب، وأخذ يُعالج أكرة الباب متفكّراً، يُديرها ببطء يساراً ويميناً. قال «بعد أنْ أخرجَ من هذا الباب، قد لا أبقى إلّا في ذاكرة معارفي. قد أُصبح أشبه بقشرة برتقال»

سألتِ السيدة مكاردل من الطرف المقابل من القمرة، «ماذا قلتَ، يا عزيزي؟»، كانت لا تزال مستلقية على جانبها الأيمن.

«هيا نقوم بعملنا، يا صاحبي. فلنُحضِر آلة التصوير إلى هنا»

«تعال وامنح أمك قُبلة. قبلة كبيرة، لطيفة»

قال تيدي بشرود «ليس الآن. أنا مُتعَب»، وأغلق الباب خلفه.

***

كانت صحيفة السفينة اليوميّة مُلقاة خارج عتبة الباب مباشرة، وتتألّف من صفيحة واحدة من الورق الصقيل، والطباعة على جانب واحد منها. رفعها تيدي وباشر بقراءتها في أثناء سيره ببطء على الممشى الطويل. ومن الطرف المُقابل كانت امرأة شقراء، ضخمة بزيّ أبيض مُنشّى تقترب نحوه، حاملة مزهريّة ذات عنق طويل، ووروداً حمراء. في أثناء تجاوزها تيدي، مدّتْ يدها اليُسرى ومرّرتْ أصابعها خلال قمّة رأسه، قائلة «ثمة مَنْ يحتاج إلى قصّ شعره!» رفع تيدي بصره بحركة سلبيّة عن قراءة صحيفته، لكنَّ المرأة كانت قد تجاوزته، ولم ينظر خلفه. واستأنف القراءة. وفي نهاية الممر، وأمام لوحة جداريّة تمثّل القديس جورج والتنين فوق منبسط مطلع الدّرّج، طوى صحيفة السفينة لتُصبح مربّعة الشكل ووضعها في جيب بنطلونه على الجانب الأيسر. ومن ثم أخذ يرتقي الدَرَج العريض، والضحل والمكسو بالسجاد إلى سطح السفينة الرئيسيّ، بمقدار مطلع درج واحد. كان يرتقي درجتين دفعة واحدة، ولكن ببطء، متمسّكاً بالدرابزين، دافعاً كامل جسمه نحوه، وكأنَّ عمليّة الارتقاء كانت بالنسبة إليه، كما هي بالنسبة إلى العديد من الأطفال، غاية ممتعة بقدرٍ معتدل بحد ذاتها. وعلى السطح الرئيسيّ انتقل مباشرة إلى طاولة مكتب ضابط المُحاسبة، حيث كانت فتاة جميلة بزيّ بحريّ تجلس في تلك اللحظة. كانت تعمل على تثبيت بعض صفائح الورق المنسوخة برزّات.

سألها تيدي «هلّا أخبرتني، من فضلك، متى تبدأ تلك المباراة هذا اليوم؟»

«عفواً؟»

سألها «هلّا أخبرتني متى تبدأ المباراة اليوم؟». ابتسمت له الفتاة ابتسامة مطليّة بأحمر الشِفاه. سألته «أيّة مباراة، يا حبيبي؟»

«كما تعلمين. مباراة الكلمات التي أقاموها بالأمس واليوم الذي قبله، حيث من المفترَض أنْ تضعي الكلمات المفقودة. وفي الغالب هو أنْ تضعي كل شيء في سياقه»

توقفَت الفتاة عن تثبيت ثلاث صفائح من الورق بين مسطحات المشكّ السلكي. قالت «أوه، أعتقد أنها لن تُقام حتى وقت متأخر من بعد الظهيرة. قُرابة الساعة الرابعة، أليستْ أعلى من مستواك، يا عزيزي؟»

قال تيدي، «كلا، ليست كذلك... شكراً لك»، وأوشك أنْ يبتعد.

«انتظر لحظة، يا حبيبي! ما اسمك؟»

قال تيدي «ثيودور مكاردل. وما اسمكِ أنت؟»

قالت الفتاة، مبتسمة «اسمي؟ اسمي أنساين ماثيوسن»

راقبها تيدي وهي تكبس المشكّ السلكيّ. قال «كنتُ أعلم أنك «ملازم في البحرية»[1]. لستُ متأكداً، ولكن أعتقد أنّه عندما يسألك أحد عن اسمك فمن المُفتَرَض أنْ تذكري اسمك كاملاً. جيم ماثيوسن، أو فيليس ماثيوسن، أو كائناً ما كان»

«أوه، أحقاً؟»

قال تيدي «كما قلت، أعتقد هذا. لكني لستُ متأكّداً. لعل الأمر يختلف عندما ترتدين الزيّ الرسميّ. على أيّة حال، شكراً لك على المعلومات. وداعاً!» واستدار وأخذ يرتقي الدَرَج إلى السطح الخاص بالنزهة، ومن جديد درجتين في كل مرّة، ولكن في هذه المرة كأنّه في عجلةٍ من أمره.

1- اسم الموظفة إنساين، وهو اسم إسكندنافي، وهذه الكلمة لها معنى بالإنكليزيّة، هو «ملازم في البحرية»، والفتى تيدي اعتقد أنّ الاسم هو عنوان رتبتها، أي أنّه خلط خطأ بين اسم الفتاة ورتبتها. – المترجم

عثر على بوبر، بعد بحث مُطوَّل، فوق السطح الخاص بالألعاب الرياضيّة. كانت جالسة في فُسحة مُشمسة -بقعة خالية، تقريباً- بين ملعبين لكرة التنس لا يستخدمهما أحد، في وضعيّة القرفصاء، وأشعة الشمس على ظهرها ونسيم عليل يجعل شعرها الأشقر، الحريريّ يُرفرف، منهمكة في تكديس عدد من أقراص الرمي على شكل ركامين متماسّين، واحد خاص بالأقراص السوداء، وآخر للحمراء. وثمة صبي صغير، يرتدي بذلة اتقاءً لأشعة الشمس من القطن، يقفُ بجوارها، على يمينها، في وضعيّة المُراقب المحض. قالت بوبر بنبرة آمرة لأخيها لدى اقترابه «انظر!»، بسطتْ ذراعيها نحو الأمام وأحاطتْ مجموعتيّ أقراص الرمي بذراعيها لكي تستعرض إنجازها، وتعزله عن أي شيء آخر موجود على سطح السفينة. قالت بعدائيّة، مُخاطبة رفيقها «مايرون، أنت تلقي بظلّك عليه، وأخي لا يستطيع أنْ يرى. ابتعد قليلاً»، وأغمضَتْ عينيها وانتظرتْ، مع تكشير شخص يتعذَّب، إلى أنْ انتقل مايرون من مكانه.

وقف تيدي مُشرفاً على ركامَيّ الأقراص ونظر إليهما مُخمّناً. قال «هذا جميل جداً. وشديد التناسق»

قالت بوبر، مُشيرة إلى مايرون، «هذا الشاب لم يسمع قط بلعبة اسمها نرد الطاولة. بل ليس لديهم واحدة»

ألقى تيدي نظرة سريعة، موضوعيّة، إلى مايرون. قال لبوبر «اسمعي، أين آلة التصوير؟ أبي يريدها في الحال»

أبلغت بوبر تيدي «إنّه حتى لا يُقيم في نيويورك. ووالده ميّتْ. قُتِلَ في كوريا»، والتفتتْ نحو مايرون. سألته، ولكن من دون أنْ تنتظر منه ردّاً، «أليس كذلك؟ والآن إذا ماتت أمّه، فسوف يُصبح يتيماً. وهو لم يكن يعلم هذا» ونظرتْ إلى مايرون. «أكنتَ تعلم؟»

عقد مايرون ذراعيه على صدره، بدون تعليق.

قالت بوبر له «أنت أغبى شخص قابلته. أنت أغبى شخص وسط هذا المحيط. أكنتَ تعلم هذا؟»

قال تيدي «هو ليس كذلك. لستَ كذلك، يا مايرون» ثم خاطب أخته

«أوليني انتباهك قليلاً؟ أين آلة التصوير؟ يجب أنْ أحصل عليها في الحال. أين هي؟»

قالت بوبر، من دون أنْ تشير إلى أيّة جهة، «هناك». وقرَّبتْ ركامَي أقراص الرمي أكثر منها. قالت «كل ما أحتاج إليه الآن عملاقان يلعبان نرد الطاولة إلى أنْ ينالهما الإرهاق ثم يرتقيان تلك المدخنة ويرميان هذه على كل شخص إلى أنْ يقتلوهم كلهم»، ونظرتْ إلى مايرون. قالت له بذكاء «وإذا لم يقتلهم هذا، أتعلم ماذا في وسعك أنْ تفعل. تستطيع أنْ تضيف السُمّ إلى حلوى الخطمي وتدفعهم إلى أكلها»

كانت آلة التصوير على مسافة عشرة أقدام، بجوار الدرابزين الذي يُحيط بحيِّز الألعاب الرياضيّة. كانت في أخدود مياه الصرف، جانباً. تقدَّم تيدي ورفعها من حزامها وعلّقها من عنقه. وفي الحال، أنزلها. وحملها إلى بوبر. قال «بوبر، قدّمي لي معروفاً. خُذيها أنتِ إلى أسفل، من فضلك. إنها الساعة العاشرة، ويجب أنْ أدوّن في مذكراتي»

«أنا مشغولة»

قال تيدي «على أي حال أمي تريد أنْ تراك في الحال»

«أنت كاذب»

قال تيدي «لستُ كاذباً. تريد أنْ تراك، لذلك أرجوك خذي هذه معك عندما تذهبين... هيا يا بوبر»

سألتْ بوبر «لِمَ تريد أنْ تراني؟ أنا لا أريد أنْ أراها»، وفجأة قامت بضرب يد مايرون التي كانت توشك أنْ ترفع القرص العلويّ من المجموعة الحمراء. قالت «أبعد يدك»

علَّقَ تيدي الحزام الموصول بآلة التصوير من عنقها. قال «أنا جادّ، اذهبي الآن. وخُذي هذه إلى والدي في الحال، ثم سوف أقابلك عند بركة السباحة لاحقاً. سوف أقابلك عند بركة السباحة عند الساعة العاشرة والنصف. أو خارج ذلك المكان الذي تُغيرين فيه ملابسك. لا تتأخّري. إنّه في آخر السطح، فلا تنسي، وافسحي لنفسك الكثير من الوقت»، ثم استدار، وغادر.

هتفتْ بوبر خلفه «أنا أكرهك! أكره كل مَنْ في هذا المحيط»

تحت موقع الألعاب الرياضيّة، على البقعة المكشوفة العريضة، بعد نهاية سطح التشمّس، كان ما يُقارب الخمسة وسبعين كرسيّاً أو أكثر، وُضِعت هناك ورُتّبت بعمق سبعة صفوف أو ثمانية، مع مسافة بينها كافية ليستخدمها المسؤول عن السطح من دون أنْ يتعثَّر بحقائب أدوات النسج الخاصّة بالمُسافرين المرحين، وبالروايات التي يكسوها الغبار، وزجاجات غسول اسمرار البشرة، وآلات التصوير. كانت المنطقة مكتظّة عندما وصل تيدي. بدأ من آخر صف للكراسي وانتقل بانتظام من صف إلى آخر، متوقفاً عند كل كرسي، سواء أكان مشغولاً أم لا، لكي يقرأ الاسم المُدوَّن عليه على ذراعه. لم يُكلّمه إلّا واحد أو اثنان من المُسافرين المتكئين - أي، يُلقي مُزحة مُبتذلة من النوع الذي يميل البالغون إلى إلقائه على مسمع صبي في العاشرة من العمر مُركِّزاً فقط على البحث عن الكرسي الخاصّ به. كان صِغر سنّه وتركيزه ظاهرين بقدرٍ كافٍ، ولكن ربما كان يفتقر إلى السلوك العام، أو لا يتحلّى إلّا بالقليل من ذاك النوع من الرصانة الجذَّابة التي يتكلَّم عنها العديد من البالغين جهاراً، أو سرّاً. وربما كانت لملابسه صِلة بها أيضاً، والثقب الموجود في كتف قميصه الرياضي لم يكن جذّاباً. والمادة الزائدة في مقعدة بنطلونه القصير، والطول المُفرِط للبنطلون بحد ذاتهما لم يكونا مادة فائضة جذّابة.

كانت كراسي سطح السفينة الأربعة، المُزوّدة بوسائد ومُستعدة لأنْ يشغلها أحد، والمُخصّصة لآل مكاردل، موجودة في منتصف الصف الثاني في المقدّمة. جلس تيدي على أحدها -بغضّ النظر عمّا إذا كانت تلك نيّته- بحيث لا يجلس أحد مباشرة على الجانب الآخر منه. مدَّ ساقيه العاريتين اللتين لم تتأثّرا بسُمرة الشمس، معاً، على مُستقرّ الساق، وفي الوقت نفسه تقريباً أخرج دفتراً رخيصاً، صغيراً، من جيبه الجانبيّ، وبدأ يُقلِّب صفحاته مُركّزاً في الحال على نقطة واحدة، كأنما لا وجود إلّا له ولدفتره - لا شمس ساطعة ولا رفيق سفر، ولا سفينة.

فيما عدا بضع ملاحظات كُتِبَتْ بقلم رصاص، كان جليّاً أنَّ المواد المُدوّنة في دفتر الملاحظات كلها كُتِبَتْ بقلم حبر ناشف. وخط اليد نفسه كان بنمط كتابة المخطوطات الذي كان حينئذٍ يُدرَّس في المدارس الأميركيّة، بدل

أسلوب بالمر، القديم. كان مقروءاً بدل التركيز على جماليّته. اللافِت للنظر في خط اليد كان السلاسة. لم تبد الكلمات والجُمل، بصورة ما، كأنها كُتِبَتْ بيد طفل.

أمضى تيدي وقتاً طويلاً في قراءة ما بدا أنّه المادة المُضافة الأخيرة، واحتلّتْ أكثر من ثلاث صفحات.

مُدوّنة ما جرى في 27 تشرين الأول، عام 1952

ممتلكات ثيودور مكاردل السطح A 412

جائزة لائقة وسارة في انتظار مَنْ يعثر على عدسة ثيودور مكاردل الإضافيّة ويُعيدها إليه.

انظر إنْ كان في وسعك أنْ تعثر على بطاقة بيانات كلب والدي العسكري وتضعها عليك عندما تستطيع ذلك. لن يتسبّب ذلك في قتلك وسوف يعجبه.

أجب على رسالة البروفسور مانديل حالما تُتاح لك الفرصة وتتحلّى بالصبر. اطلب منه ألّا يُرسل إليّ المزيد من دواوين الشِعر. على أيّة حال، أصبح لديّ منها ما يكفي لعام كامل. وفي كل الأحوال، لقد سئمتها تماماً. ثمة رجل يمشي على طول الشاطئ ولسوء الحظ تضرب رأسه ثمرة جوز هند. ولسوء الحظ تُشقّ جمجمته إلى نصفين. ثم تأتي زوجته إلى الشاطئ وهي تغني أغنية وترى نصفيّ الرأس وتتعرَّف عليهما وترفعهما. وتحزن حزناً شديداً طبعاً وتبكي بحُرقة. هذا بالضبط ما يجعلني أسأم الِشعر. ماذا لو أنَّ السيدة رفعت النصفين وصرخت فيهما بغضب شديد، «كفى!» ولكن لا تأتي على ذِكر هذا عندما تكتب له ردّاً على رسالته. إنَّ الأمر مُثير للجدل ثم إنَّ السيدة مانديل شاعرة.

احصل على عنوان سفِنْ في مدينة إليزابيث، في نيو جيرسي. سيكون لقاء زوجته أمراً مُثيراً للاهتمام، وكلبه ليندي، أيضاً. لكنني لا أحبّ أنْ أمتلك كلباً.

اكتب رسالة مواساة للدكتور ووكاوارا عن التهاب كليته. احصل على عنوانه الجديد من أمّي.

الجأ إلى الجزء المُخصّص للألعاب الرياضيّة من سطح السفينة لكي تمارس التأمّل في صباح الغد قبل الإفطار ولكن لا تغِب عن الوعي. وأيضاً لا تفقد الوعي في غرفة الطعام إذا أسقطَ ذلك النادل تلك الملعقة الكبيرة من جديد. لقد غضب أبي غضباً شديداً.

كلمات وتعبيرات يجب أنْ تبحث عنها في المكتبة غداً عندما تُعيد الكتب -:
التهاب الكلية.
عدد لا يُحصى.
حصان هديّة.
دهاء.
ثالوث.
تعاملْ بأدب مع أمين المكتبة. ناقش بعض الأمور العامة معه عندما يُصبح مرحاً.

***

أسرعَ تيدي بإخراج قلم حبر ناشف صغير ذي رأس كرويّ من الجيب الجانبيّ لبنطلونه القصير، وأزال الغطاء، وبدأ يكتب. استخدمَ فخذَه الأيمن كطاولة للكتابة، بدل ذراع الكرسي.

المواد المُدوّنة في يوم 28 من شهر تشرين الأول، عام 1952.

العنوان والجائزة نفساهما كما كُتِبَ في 26 و27 من شهر تشرين الأول، عام 1952.

كتبتُ رسائل للأشخاص التالين بعد درس التأمّل في صباح هذا اليوم:

الدكتور ووكاوارا.
البروفسور مانديل.
البروفسور بيت.
برجس هيك الابن.
البروفسور مانديل.
البروفسور بيت.
برجس هيك الابن.
روبرتا هيك.
سانفورد هيك.
الجدّة هيك.
السيد غراهام.
البروفسور والتون.

كان من الممكن أنْ أسأل أمي عن مكان بطاقة معلومات كلب أبي ولكن ربما كانت ستقول إنني لستُ مُضطراً إلى وضعها على صدري. أعلم أنّه يحتفظ بها لأنني شاهدته وهو يحزمها.

في اعتقادي الحياة هي حصان هديّة.

أعتقد أنّه من قلّة ذوق البروفسور والتون أنْ ينتقد والديّ. إنّه يُريد أنْ يكون الناس على نمط مُعيَّن.

سوف يحدث إما هذا اليوم أو في الرابع عشر من شباط، عام 1955، عندما أبلغ سن السادسة عشرة. إنَّ مجرّد ذكر هذا يبدو شيئاً سخيفاً.

بعد أنْ دوَّن هذه المادة الأخيرة، تابع تيدي تركيز انتباهه على الصفحة

وقلمه ذو الحبر الجاف في حالة استعداد، كأنّما لا يزال في جعبته المزيد من المواد.

من الواضح أنّه لم يكن يعي أنّ هناك مُراقباً واحداً يهتمّ به. فعلى مسافة خمسة عشر قَدَماً أمام الصف الأول من كراسي سطح السفينة، وفوقه على مسافة ثمانية عشر أو عشرين قدماً من أشعّة الشمس المُبهِرة، كان هناك شاب يُراقبه عن كثب من درابزين منطقة الألعاب الرياضية على سطح السفينة. استمرَّ هذا الوضع حوالي عشر دقائق. وكان جليّاً أنَّ الشاب قد توصّلَ إلى ما يُشبه القرار، ذلك أنّه قام على عجل بإنزال قدمه عن الدرابزين، ووقفَ برهة، وما زال ينظر في اتجاه تيدي، ثم مشى مبتعداً وغاب عن الأنظار. ولكن بعد أقلّ من دقيقة واحدة، ظهر، طويلاً بصورة تُثير الفضول، بين كراسي سطح السفينة. كان في نحو الثلاثين من العمر، أو أقلّ. وباشر على الفور يشقّ طريقه على طول الممر بين الكراسي باتجاه كرسي تيدي، ويرمي ظلالاً صغيرة تُشتت الانتباه على صفحات الروايات التي يقرأها الناس ويخطو بنشاط (إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّه كان الشخص الوحيد الواقف، والمتحرك المرئي) فوق حقائب أدوات الحبك وممتلكات شخصية أخرى.

بدا تيدي غافلاً عن وجود شخص واقف عند آخر كرسية – أو، من ناحية أخرى، يرمي ظلاً فوق دفتر ملاحظاته. لكنَّ الناس كرسي خلفه بصف أو اثنين كانوا أكثر شروداً. كانوا ينظرون عالياً إلى الشاب كما لا يفعل إلّا المتمدّدون على كراسي السطح. لكنَّ جواً من التوازن كان يكتنف الشاب كما لو أنّه سوف يبقى هكذا إلى الأبد، شريطة أنْ يُبقي على الأقلّ إحدى يديه في جيبه. وقال لتيدي «مرحباً، أيها الأخ!»

رفع تيدي بصره، وقال «مرحباً»، وأغلقَ دفتره جزئيّاً، وجزئيّاً جعله يغلق نفسه بنفسه.

سأل الشاب، بما يُشبه الود الغامر، «هل تمانع في جلوسي هنا برهة؟ هل هذا الكرسي يخصّ أحداً؟»

قال تيدي «في الواقع، هذه الكراسي الأربعة تخصّ أفراد عائلتي. لكنّ والديّ لم يستيقظا بعد»

قال الشاب «لم يستيقظا في يومٍ كهذا؟». كان قد جلسَ تواً على الكرسي إلى يمين تيدي. كانت الكراسي شديدة القُرب أحدها من الآخر بحيث إنّ الأذرع تتلامس. قال «هذا تدنيس. تدنيس محض»، ومدّ ساقيه، الثقيلتين جداً عند الفخذين، كأنهما جسدان إنسانيان قائمان بذاتيهما. وكان يرتدي في المُجمل ملابس عسكريّة بحريّة شرقيّة؛ على قمة رأسه كثّة من الشَعر، وينتعل حذاءً أيرلندياً غليظاً متهرّئاً ويرتدي زيّاً رسمياً متنوّعاً - جورباً صوفيّاً بلون أصفر برتقاليّ، وبنطلوناً فاحماً ورمادياً، وقميصاً مع ياقة مع زرّين للتثبيت في الأسفل، وبلا ربطة عنق، وسترة من الجوخ بدا كأنما مرّ عليها الزمن بشكل لائق في إحدى منتديات حلقات التخرّج الدراسيّة الشائعة في جامعة ييل، أو هارفرد، أو برينستون. قال، مُستحسناً، وناظراً إلى وجه الشمس بعينين ضيقتين. «أوه، يا الله، ما أجمله من نهار. أنا ضعيف جداً أمام أحوال الطقس»، ووضع ساقيه الثقيلتين واحدة فوق الأخرى عند الكاحلين. «في الحقيقة، معروف عني أني أعتبر أي يوم مُمطر عادي إهانة شخصيّة. لذلك فإنَّ هذا بالنسبة إليّ نعمة خالصة». وعلى الرغم من أنَّ صوت المتكلِّم كان مُهذّباً، بالمعنى الاعتياديّ، فإنه كان مشحوناً أكثر بكثير مما ينبغي، كأنه يحمل معه نوعاً من الفهم بحيث أنَّ كل ما يقوله يبدو صحيحاً - ينطوي على ذكاء، وثقافة وحتى على تسلية أو إثارة - إما من وجهة نظر تيدي الدقيقة أو من وجهة نظر الناس الجالسين في الصف الذي خلفه، إنْ كانوا يُصغون. رمى تيدي بنظرة منحرفة، وابتسم. سأله «كيف علاقتك بأحوال الطقس؟». كانت ابتسامته ذات مغزى، لكنها ابتسامة اجتماعيّة، أو تنبع من طبيعة الحديث، لكنّها ترتد، بصورة غير مباشرة، إليه ذاتيّاً. سأله مُبتسماً «هل تزعجك تقلّبات الطقس بصورة تتجاوز المعقول؟»

قال تيدي «أنا لا أتناول الأمر بشكل شخصيّ متطرّف، إنْ كان هذا ما تعنيه»

ضحك الشاب، تاركاً رأسه يرجع نحو الخلف. قال «رائع. بالمناسبة، اسمي بوب نيكلسن. لا أعلم إنْ كنا قد تطرّقنا إلى هذا في صالة الألعاب الرياضيّة. أنا أعرف اسمك، طبعاً»

نقل تيدي ثقل جسمه على أحد وركيه وأخفى دفتر ملاحظاته في جيب بنطلونه القصير الجانبيّ.

قال نيكلسون، بلهجة الراوي، مبيِّناً، «كنتُ أراقبك وأنت تكتب – وأنا فوق هناك. يا إلهي، كنتَ منهمكاً في الكتابة كقرطاجيّ[1] صغير»

نظر تيدي إليه. «كنتُ أدوِّن شيئاً في دفتر ملاحظاتي»

أومأ نيكلسون برأسه إيجاباً، مبتسماً. وسأل على سبيل التحادث «كيف حال أوروبا؟ هل استمتعتَ بالعيش فيها؟»

«نعم، كثيراً، شكراً»

«ماذا زرتَ فيها؟»

فجأة مدَّ تيدي يده إلى الأمام وحكَّ ربلة ساقه. «في الواقع، إنَّ ذكر أسماء كل الأماكن التي زرتها يستغرق وقتاً طويلاً، لأننا أخذنا سيارتنا وقطعنا مساحات شاسعة». واسترخى في جلسته. «لكننا أمي وأنا أحببنا أكثر جامعة إدنبرا، في سكوتلندا، وجامعة أكسفورد، في لندن. أعتقد أنني أخبرتك ونحن في قاعة الألعاب الرياضيّة أنني اضطررتُ إلى إجراء أحاديث صحفيّة في ذينك المكانين. وخاصة في جامعة إدنبرا»

قال نيكلسون «كلا، لا أعتقد أنكَ فعلت. كنتُ أتساءل إنْ كنتَ قد فعلتَ شيئاً كهذا؟ كيف جرى الأمر؟ هل عذّبوكَ؟»

قال تيدي «عفواً؟»

«أقصد كيف جرى الأمر؟ أكان مُمتعاً؟»

قال تيدي «أحياناً، نعم. وأحياناً أخرى، كلا. لقد أطلنا المكوث قليلاً. أرادتْ أمي أنْ تعود إلى نيويورك قبل انطلاق هذه السفينة. لكنَّ أناساً كانوا سيأتون من استوكهولم، في السويد، ومن إنّسبروك، في النمسا، لمقابلتي، واضطررنا إلى انتظارهم»

«هذا يحدث دائماً»

للمرّة الأولى نظر تيدي إليه مباشرة. سأله «أأنت شاعر؟»

قال نيكلسون «شاعر؟ يا إلهي، كلا. للأسف، كلا. لِمَ تسأل؟»

1- المعروف عن أهالي قرطاج كدّهم واجتهادهم ودأبهم في العمل.

«لا أدري. الشعراء دائماً يتعاملون مع أحوال الطقس بشكلٍ شخصيّ. دائماً يحشرون مشاعرهم في الأشياء الخالية من المشاعر»

أدخلَ نيكلسون يده في جيب سترته، مبتسماً، وأخرج منها سجائر وكبريتاً. قال «أفضّل أنْ أعتبر أنَّ هذا هو مخزونهم. أليست المشاعر هي ما يهتم به الشعراء في المقام الأول؟»

كان جليّاً أنَّ تيدي لم يسمعه، أو لم يكن يُصغي إليه. كان ينظر بشرود في اتجاه المدخنتين التوأم اللتين ترتفعان فوق سطح الألعاب الرياضيّة، أو ما بعدهما.

أشعل نيكلسون سيجارته، بشيءٍ من الصعوبة، بسبب النسيم الخفيف الشماليّ. استرخى في جلسته، وقال «لقد علِمتُ أنكَ تركتَ حفنة مُضطربة من–»

فجأة قال تيدي ««لا شيء في صرير الزيز ينمّ عن موعد موته / لا أحد يسير على هذا الدرب، في هذه الليلة الخريفيّة»»

سأله نيكلسون «ما هذا؟ أعِدْ ما قلت»

قال تيدي «هاتان قصيدتان يابانيتان. ليستا مُترعتين بالمشاعر»، ثم جلس بسرعة مع انحناء إلى الأمام، ورأسه مائل إلى اليمين، ووجّه إلى أُذنه ضربة خفيفة بيده. قال «ما زال هناك بعض الماء في أُذني جرّاء درس السباحة الذي تلقّيته بالأمس»، ووجّه لأذنه ضربتين أُخريين، ثم استرخى في جلسته، واضعاً ذراعيه على مسندي الذراعين. طبعاً كان كرسيّاً عاديّاً، خاصاً بالبالغين، ومن الواضح أنّه بدا ضئيلاً وهو داخله، ولكن في الوقت نفسه، بدا مرتاحاً كل الارتياح، بل تكتنفه السكينة.

قال نيكلسون، وهو يراقبه، «لقد علِمتُ أنكَ تركتَ خلفك في بوسطن حفنة مُضطربة من المتحذلقين، بعد تلك المشادّة الصغيرة. مع كامل جماعة ليديكر للفحص، بصورة أو بأخرى، كما فهمت. أعتقد أنني أخبرتك أنني أجريتُ حديثاً مُطوّلاً مع آل بابكوك في شهر حزيران الفائت. في الحقيقة، وفي الليلة نفسها سمعتُ شريطك يُديره أحدهم»

«نعم، هذا صحيح. لقد أخبرتني»

ألحّ نيكلسون «لقد علِمت أنهم كانوا حفنة مُضطربة. ومما سمعت من آل بابكوك، أنكم عقدتم كلكم جلسة صغيرة عنيفة في وقت متأخّر ذات ليلة - أعتقد أنها كانت الليلة نفسها التي صنعتَ فيها هذا الشريط»، وسحب كمية من الدخان من سيجارته. «ومما فهمت، أنكَ قدّمتَ بعض التوقعات أزعجت الشبان إلى أقصى مدى. أصحيح هذا؟»

قال تيدي «ليتني أعرف لِمَ يعتقد الناس أنَّه من المهم أنْ يكون المرء انفعاليّاً. إنَّ أمي وأبي لا يعتقدان أنَّ المرء يكون إنساناً إلّا إذا اعتقد أنَّ هناك الكثير من الأشياء إما حزينة جداً أو مزعجة جداً أو جائرة إلى أقصى مدى، بصورةٍ ما، إنَّ والدي يُصبح انفعاليّاً جداً حتى عندما يقرأ الصحيفة. يعتقد أنّني مجرّد من الإنسانيّة»

نفضَ نيكلسون الرماد عن سيجارته على أحد جنبيه. قال «هل أفهم من هذا أنكَ بلا مشاعر؟»

فكَّر تيدي قبل أنْ يُجيب. قال «إنْ كانت لديّ مشاعر، فلا أتذكّر أنني استخدمتها مرّة. ولا أفهم فائدتها»

سأله نيكلسون، مع قدر ضئيل من الهدوء، «ألا تحب الله؟ أليس هذا موطن قوتك، إنْ صحّ التعبير؟ وحسب ما سمعت من تسجيل على ذلك الشريط ومما قاله آل بابكوك-»

قال تيدي «نعم، حتماً، أحبّ الله. لكنني لا أحبّه بالمعنى العاطفيّ للكلمة. لو كنتُ أنا الله، لما أردتُ من الناس حتماً أنْ يُحبّوني بالمعنى العاطفي. إنّه حبّ لا يُعتدّ به»

«ألا تحبّ والديك؟»

قال تيدي «نعم، أحبّهما -حبّاً جمّاً، لكنكَ تريد مني أنْ أستخدم تلك الكلمة لكي تعني ما تريد لها أنْ تعني- هذا ما أتبيّن»

«حسن. بأي معنى تريد أنْ تستخدمها؟»

فكّر تيدي في الأمر. ثم سأل، مستديراً نحو نيكلسون، «أتعرف معنى كلمة «تقارُب»؟»

قال نيكلسون «لديّ فكرة تقريبيّة»

قال تيدي «إنني أشعر بتقارُب شديد معهما. أعني أنهما والداي، وكلٌ منا يشكّل جزءاً من تناغمنا معاً وما إلى ذلك. أريد لهما أنْ يقضيا حياة ممتعة معاً، لأنهما يحبّان أنْ يقضيا وقتاً ممتعاً معاً.. لكنهما لا يُحبانني أنا وأختي بوبر بهذه الطريقة. أعني أنّه يبدو أنهما لا يُحبّاننا كما نحن. يبدو أنهما لا يُحباننا إلّا إذا ظلّا يُغيّراننا قليلاً. إنهما يُحبّان أسبابهما لحبّهما لنا كما يُحبّاننا، ودائماً يُحباننا أكثر. وهذا ليس جيداً، بهذه الطريقة»، والتفت من جديد نحو نيكلسون، منحنياً قليلاً إلى الأمام. سأله «أتعرف ما الساعة الآن، من فضلك؟ لديّ درس في السباحة عند الساعة العاشرة والنصف»

قال نيكلسون من دون أنْ ينظر أولاً إلى ساعة يده، «لديك مُتّسع من الوقت»، ورفع طرفَي كُمّيه. قال «الساعة لم تتجاوز العاشرة وعشر دقائق»

قال تيدي «شكراً لك»، واسترخى في جلسته. «نستطيع أنْ نستمتع بحديثنا مدة عشر دقائق أخرى»، وترك نيكلسون إحدى ساقيه تسقط عن جانب كرسي التمدُّد، ومال إلى الأمام، ووطئ طرف سيجارته. قال، مرتاحاً في جلسته، «حسب ما أفهم فإنك تتمسّك بشدّة بنظريّة التناسُخ الفيدانتيّة[1]»

«إنها ليست نظريّة، بل جزء من-»

أسرع نيكلسون بالقول «لا بأس»، وابتسم، ورفع برفق راحتَي يديه، بما يُشبه التعبير عن حركة ساخرة لمنح البركة، «لن نناقش هذه النقطة، حاليّاً. دعني أُنهي كلامي»، ووضعَ ساقيه الثقيلتين، الممدودتين، واحدة فوق الأخرى من جديد. «حسب ما فهمت، فإنك اكتسبت قدراً معيَّناً من المعلومات، عبر التأمّل، وهذا منحك بعض القناعة بأنَّه في تجسّدك الأخير كنتَ رجل دين في الهند، لكنك بصورة أو بأخرى وقعتَ في الإثم-»

قال تيدي «لم أكن رجل دين؛ كنتُ مجرد شخص يُحرز تقدماً روحيّاً جيداً»

قال نيكلسون «حسن -لا بأس، لكنَّ المهم هو أنكَ تشعر بأنكَ في

1- الفيدانتيّة: نسبة إلى فلسفة الفيدا الهندوسيّة.

تجسّدكَ الأخير وقعتَ في الخطيئة بصورة أو بأخرى قبل حدوث التنوير الختاميّ. أصحيح هذا، أم أنني-»

قال تيدي «هذا صحيح. لقد قابلتُ سيدة، وبعد ذلك يمكن القول إنني توقفتُ عن ممارسة التأمّل»، وأنزل ذراعيه عن مسنديّ الكرسي، وأقحم يديه تحت فخذيه، كأنما لكي يُدفئهما. «على أيّة حال لقد اضطررتُ إلى تلبّس جسد آخر والعودة إلى الأرض - أعني أنني لم أكن قد أحرزتُ الكثير من التقدّم الروحيّ بحيث إنّه كان في وسعي أنْ أموت، لو لم أُقابل تلك السيدة، وأتوجّه مباشرة إلى البراهما[1] ولا أُضطر إلى العودة إلى الأرض. لكنني لم أكن لأُضطر إلى التجسّد على هيئة جسد شخص أميركيّ لو لم أُقابل تلك السيدة. أعني أنه أمرٌ صعب جداً أنْ أمارس التأمّل وأعيش حياةً روحيّة في أميركا. إنَّ الناس يعتقدون أنكَ غريب الأطوار إذا حاولتَ أنْ تفعل هذا. ووالدي يعتقد أنني غريب الأطوار، قليلاً. ووالدتي - في الواقع، تعتقد أنَّ تفكيري في الله طوال الوقت يضرّني. تعتقد أنّه يضرّ صحتي.»

كان نيكلسون ينظر إليّ، يتفحّصني. «أعتقد أنكَ في ذلك الشريط المُسجّل الأخير قلتَ إنكَ كنتَ في عمر السادسة عندما خضتَ تجربة صوفيّة أول مرّة، أليس صحيحاً؟»

قال تيدي «كنتُ في السادسة عندما أدركتُ أنَّ الله هو كل شيء، واقشعرّ جسمي وما إلى ذلك. أتذكّر أنّه كان يوم أحد، ولم تكن أختي حينئذٍ أكثر من طفلة صغيرة جداً، وكانت تشرب الحليب، وفجأة أدركتُ أنها الله وأنَّ الحليب أيضاً هو الله. أعني أنَّ كل ما كانت تفعل يصبّ في مفهوم الله، أتمنّى أنْ تفهم ما أعني»

لم ينطق نيكلسون بأي شيء.

قال تيدي، وكأنها فكرة متأخرة، «ولكن وأنا في سن الرابعة من العمر كان في استطاعتي أنْ أخرج من هذه الأبعاد الضيّقة، ليس باستمرار، ولكن غالباً»

أومأ نيكلسون برأسه إيجاباً، وقال «أحقاً؟ أكنتَ تستطيع ذلك؟»

1- البراهما: هي الذات العليا في الفلسفة الهندوسيّة.

قال تيدي «نعم، كان ذلك مُسجلاً على الشريط... أو ربما كان على الشريط الذي أعددته في شهر نيسان الفائت. لستُ متأكّداً»

من جديد أخرج نيكلسون سجائره، ولكن من دون أنْ يرفع عينيه عن تيدي. سأل «كيف يمكن للمرء أنْ يخرج من الأبعاد الضيّقة؟»، وضحك ضحكة قصيرة. «أعني، لنبدأ من الأساس، على سبيل المثال، إنَّ كتلة من الخشب تبقى كتلة من الخشب. لها طول وعرض و–»

قال تيدي «هذا غير صحيح. أنت مُخطئ هنا. الجميع يعتقدون أنَّ الأشياء تتوقف عند حدٍ ما. وهذا غير صحيح. هذا ما كنتُ أحاول أنْ أقول للبروفسور بيت»، وتململَ على كرسيه وأخرج منديلاً قذراً –أشبه بحشوة رماديّة اللون– وتمخّط. قال «إنَّ السبب الذي يجعل الأشياء تبدو كأنها تتوقف عند حدٍ ما هو أنها الطريقة الوحيدة التي يعرفها الناس للنظر إلى الأشياء». وضعَ المنديل جانباً، ونظر إلى نيكلسون. وسأله «هلّا رفعتَ ذراعك برهة، من فضلك؟»

«ذراعي؟ لِمَ؟»

مكتبة
t.me/soramnqraa

«فقط افعل. فقط برهة»

رفعَ نيكلسون ساعده مقدار بوصة أو اثنتين فوق مستوى مسند الذراع. وسأل «هذه؟»

أومأ تيدي برأسه إيجاباً. وسأله «ماذا تُسمّي هذه؟»

«ماذا تقصد؟ إنها ذراعي. إنها ذراع»

سأله تيدي «وما أدراك؟ أنت تعرف أنَّ اسمها ذراع، ولكن كيف تعرف أنها كذلك؟ هل لديك أي برهان على أنها ذراع؟»

أخرج نيكلسون سيجارة من العلبة، وأشعلها. قال، وهو يستنشق الدخان، «بصراحة، أعتقد أنَّ هذا أسوأ أنواع السفسطة. هذه ذراع، بحقّ الله، لأنها ذراع. أولاً، يجب أنْ يكون لها اسم ليميِّزها عن أشياء أخرى. أعني لا يمكنك ببساطة–»

قال تيدي له بهدوء شديد «أنت تتحدث بمنطق فقط»

سأله نيكلسون، بقدر ضافٍ من التهذيب «بمَ؟».

قال تيدي «بمنطق. أنت تعطيني جواباً عادياً، عقلانيّاً فقط. كنتُ أحاول أنْ أساعدك. أنت سألتني كيف أخرج من الأبعاد الضيّقة عندما أرغب. أنا حتماً لا أستعين بالمنطق عندما أفعل ذلك. إنَّ المنطق هو أول شيء يجب أنْ تتخلَّص منه»

أزال نيكلسون رُقاقة من التبغ عن لسانه بأصابعه.

سأله تيدي «أتعرف آدم؟»

«أعرفُ مَنْ؟»

«آدم، الوارد اسمه في الكتاب المُقدَّس»

ابتسم نيكلسون. قال بجفاف «ليس معرفة شخصيّة»

تردَّد تيدي. قال «لا تغضب مني. أنت سألتني سؤالاً، وأنا-»

«أنا لستُ غاضباً منك، بحقّ الله»

قال تيدي «حسن». كان جالساً بارتياح على كرسيه، لكنَّ رأسه كان ملتفتاً ناحية نيكلسون. سأل «أتعلم ماذا أكل آدم في جنّة عدن، كما ورد في الكتاب المُقدَّس؟ أتعلم ماذا كان في تلك التفاحة؟ منطق. منطق وأشياء عقلانيّة، هذا كل ما كان موجوداً فيها. إذن -وهذه هي النقطة التي أسعى إليها- كل ما عليك أنْ تفعل هو أنْ تلفظه إذا أردتَ أنْ ترى الأشياء على حقيقتها. أعني إذا لفظت المنطق، فلن تواجه أيّة مشكلة مع كتل الخشب وما شابه. لن ترى طوال الوقت الأشياء تتوقف. وسوف تعرف ما هي ذراعك حقاً، إنْ كنتَ مهتماً بذلك. أتعرف ما أعني؟ أتفهمني؟»

قال نيكلسون، باقتضاب، «أفهمك»

قال تيدي «إنَّ المشكلة هي أنَّ معظم الناس لا يريدون أنْ يروا الأشياء على حقيقتها، بل لا يريدون أنْ يكفّوا عن أنْ يُولدوا ويموتوا طوال الوقت. هم يريدون فقط أطفالاً جُدداً طوال الوقت، بدل أنْ يكفّوا عن فعل ذلك ويبقوا مع الله، حيث المكان جميل حقاً»، وأخذ يفكّر. قال «لم أر قط مثل كل ذلك الكمّ من آكلي التفاح»، وهزّ رأسه استنكاراً.

في تلك اللحظة، توقف مسؤول عن سطح السفينة بمعطف أبيض كان

يقوم بجولاته ضمن تلك المنطقة أمام تيدي ونيكلسون وسألهما إنْ كانا يرغبان في تناول حساء الصباح. لم يُجِب نيكلسون على السؤال في الحال. وقال تيدي، «كلا، شكراً لك»، فتجاوزهما القيِّم عن السطح.

قال نيكلسون على عجل، وفظاظة، «إذا كنتَ ترغب في إقفال هذا الموضوع، فليكُن». ونفضَ رماد سيجارته. «ولكن أصحيح أنكَ أبلغت كامل أعضاء ليديكر للفحص –والتون، وبيت، ولارسن، وصمويلز، وتلك العصبة– عن موعد ومكان موتهم وكيفيّة حدوث ذلك في نهاية المطاف؟ أصحيح هذا، أم لا؟ لستَ مُضطراً إلى الإجابة عن هذا إذا لم تشأ، لكنَّ الطريقة التي انتشرتْ بها الإشاعة في أرجاء بوسطن–»

قال تيدي مع تشديد «كلا، هذا ليس صحيحاً. أنا أخبرتهم عن أماكن، وأوقات ينبغي عليهم أنْ يكونوا غاية في الحذر منها. وأخبرتهم عن أشياء معيَّنة من مصلحتهم أنْ يقوموا بها... لكنني لم أقُل أيّ شيءٍ من هذا. لم أقُل عن أي شيء أنّه لا مفرّ منه، بهذه الطريقة»، وأخرجَ من جديد منديله واستخدمه. انتظر نيكلسون، وهو يراقبه. «ولم أخبر البروفسور بيت شيئاً كهذا البتّة. أولاً، لأنه لم يكن أحد المُخادعين الذين يطرحون الكثير من الأسئلة. أعني أنَّ كل ما أخبرت به البروفسور بيت هو أنّه لا ينبغي أنْ يبقى مُعلِّماً بعد شهر كانون الثاني – هذا كل ما قلته له». بقيَ تيدي المُسترخي في جلسته صامتاً برهة. «وكل البروفسورات الآخرين أجبروني حرفيّاً على قول هذا الكلام لهم. حدث ذلك بعد أنْ انتهينا جميعاً من إجراء اللقاء الصحفي وتسجيل ذلك الشريط، وكان الوقت متأخّراً، واستمروا كلهم في الجلوس وتدخين السجائر والمرح»

ألحّ نيكلسون «لكنك لم تُخبر والتون، أو لارسن، على سبيل المثال، عن متى وأين وكيف سيحلّ الموت في نهاية المطاف؟»

قال تيدي بحزم «كلا. لم أفعل. وما كان يمكن أنْ أقول شيئاً كهذا، لكنهم ظلوا يتحدثون عنه. والبروفسور والتون هو الذي بدأ الحديث. قال إنّه يتمنّى حقاً أنْ يعرف متى سيموت، لأنه حينئذٍ سوف يعرف ما ينبغي وما لا ينبغي أنْ يفعل، وكيف يستغل وقته أفضل استغلال، وما إلى ذلك. ثم كلهم قالوا هذا... فزوّدتهم بالقليل من المعلومات»

لم يفه نيكلسون بأيّة كلمة.

قال تيدي «لكنّني لم أخبرهم متى سيموتون حقاً. إنَّ هذه إشاعة زائفة بأكملها. كان يمكن أنْ أقول هذا، لكنني كنتُ أعلم أنهم في قرارة قلوبهم لا يريدون حقاً أنْ يعرفوا. أعني كنتُ أعلم أنّه على الرغم من أنهم يُدرّسون الدين والفلسفة وكل ذلك، فإنهم لا يزالون شديدي الخوف من الموت». جلس تيدي، أو اتّكأ، صامتاً بعض الوقت. قال «شيء شديد السُخف. إنَّ ما تفعله هو أنْ تستنفد كل ما في جسمك عندما تموت. يا إلهي، إنَّ الجميع يفعلون هذا مرات عديدة، ومجرّد أنهم لا يتذكرون لا يعني أنهم لم يفعلوا. إنه شيء شديد السُخف»

قال نيكلسون «ربما، ربما. لكنَّ الحقيقة الاجتماعيّة تبقى أنّه مهما بلغ مقدار العقلانيّة-»

قال تيدي من جديد «شيء سخيف جداً. على سبيل المثال، لديّ درس في السباحة سيبدأ بعد حوالي خمس دقائق. ويمكن أنْ أهبط إلى الطابق السفليّ إلى بركة السباحة ولا أجد فيها أي ماء. ربما في هذا اليوم يقومون بتغيير المياه أو ما شابه. وقد يحدث أنْ أقترب من حافة البركة على سبيل المثال لكي ألقي نظرة إلى القاع، وتأتي أختي وتدفعني وأقع وتنكسر جمجمتي وأموت على الفور». نظر تيدي إلى نيكلسون. قال «قد يحدث هذا. إنَّ أختي لا تتجاوز السادسة وهي لم تكن كائناً بشريّاً منذ وقت طويل، ولا تحبني كثيراً. يمكن أنْ يحدث هذا حقاً. ولكن ما هو الجانب المأساويّ في الأمر؟ أعني، ما الذي يستوجب الخوف منه؟ سوف أفعل ما يُفترَض بي أنْ أفعل، هذا كل شيء، أليس كذلك؟»

أصدر نيكلسون صوتاً يدل على الازدراء المعتدل. قال «قد لا يكون الأمر مأساويّاً من وجهة نظرك، ولكنه سيكون حادثاً مُحزناً بالنسبة إلى أمك وأبيك، ألم يخطر هذا في بالك؟»

قال تيدي «نعم، طبعاً، خطر. ولكن هذا فقط لأنَّ لديهما أسماء وانفعالات لكل ما يحدث». كان قد أقحم يديه تحت فخذيه من جديد. والآن أخرجهما، ورفع ذراعيه ووضعهما على مسنديّ الكرسي، ونظر إلى

نيكلسون. سأل «أتعرف سِفِنْ؟ الرجل المسؤول عن الصالة الرياضيّة؟»، وانتظر إلى أنْ حصل على إيماءة موافقة من نيكلسون. «حسن، لو أنَّ سِفِنْ حلمَ هذه الليلة بأنَّ كلبه قد مات، فسوف يقضي ليلة من النوم المُضطرب، لأنّه شديد الكَلَف بذلك الكلب. ولكن عندما يستيقظ في الصباح، فسوف يتغيَّر كل شيء. سوف يعلم أنّه مجرد حلم»

أومأ نيكلسون برأسه موافقاً. «ماذا تقصد، بالضبط؟»

«أقصد أنَّه لو مات كلبه حقاً، فالنتيجة واحدة. الفرق الوحيد هو أنّه لن يعلم بالأمر. أعني أنه لن يستيقظ إلى أنْ يموت هو نفسه». كان نيكلسون، الذي بدا شارداً، يستخدم يده لكي يدعك بها، بحركة بطيئة، وحسّيّة، خلفيّة عنقه. وبدت يده اليُسرى، الساكنة على مسند الكرسي، وبين إصبعيه سيجارة جديدة، غير مشتعلة، بيضاء بصورة غريبة وغير طبيعبّة تحت أشعة الشمس المُبهرة.

فجأة نهضَ تيدي واقفاً. قال «أخشى أنَّ عليّ أنْ أذهب الآن». وجلس، مؤقّتاً، على وصلة الساق الممدودة لكرسيه، مواجهاً نيكلسون، وأقحم قميصه الرياضيّ داخل البنطلون. قال «أعتقد أنّه بقيت أمامي دقيقة ونصف للبدء بتلقّي درس السباحة، على السطح E»

سأل نيكلسون بفظاظة «هل لي أنْ أسأل لِمَ أخبرتَ البروفسور بيت بأنَّ عليه أنْ يتوقف عن التدريس بعد حلول العام الجديد؟ أنا أعرف بوب بيت، ولهذا أسأل»

أحكمَ تيدي شدّ حزامه المصنوع من جلد التماسيح. «فقط لأنّه صاحب شخصيّة روحانيّة، وهو يُدرِّس الآن الكثير من المواد التي لا تفيده إذا أراد أنْ يُحرز أيّ تقدّم روحيّ حقيقيّ. إنها تُثير حماسه بشكلٍ مُفرِط. وحان الوقت بالنسبة إليه ليطرح كل هذه الأشياء من تفكيره، بدل أنْ يُغذيها. في استطاعته أنْ يتخلَّص من الكثير من الأشياء خلال فترة حياة واحدة إذا شاء ذلك. إنّه بارع في التأمّل». نهضَ تيدي واقفاً. «يستحسن أنْ أذهب. لا أريد أنْ أتأخّر»

رفع نيكلسون نظره إليه، وثبّت تلك النظرة – لكي يحتجزه. سأل بإبهام «ماذا يمكن أنْ تفعل إنْ كان في مقدورك أنْ تغيِّر النظام التعليميّ؟ ألم يخطر لك هذا السؤال قط؟»

قال تيدي «يجب أنْ أذهب فوراً»

قال نيكلسون «أجِب عن هذا السؤال الوحيد فقط. في الحقيقة، إنَّ التعليم هو اهتمامي الخاص – وهو ما أُدرّسه. لهذا أسألك»

«حسن... لستُ متيقّنا مما سأفعل. أعلم أنني واثق تماماً من أنني لن أبدأ بالأشياء التي تبدأ بها المدارس عادة»، وعقد ساعديه على صدره، وتأمّل قليلاً. «أعتقد أنني سأقوم أولاً بجمع الأطفال كلهم معاً وأبيّن لهم كيف يتأملون. سوف أحاول أنْ أريهم كيف يكتشفون أنفسهم، ليس أسماءهم وما شابه فقط... أعتقد أنني، حتى قبل هذا، سوف أدفعهم إلى التخلّص من كل ما علَّمهم إياه آباؤهم وأخبر به كل شخص. أعني حتى إنْ كان آباؤهم أخبروهم فقط بأنَّ الفيل مخلوق ضخم. سوف أُفرغهم من هذا كله. إنَّ الفيل يكون ضخماً فقط بالمقارنة مع شيءٍ آخر – مع كلب أو سيدة، على سبيل المثال»، وفكّر تيدي لحظة أخرى. «بل إنني لن أخبرهم حتى بأنَّ للفيل خصراً. قد أريهم فيلاً، إن استطعت، لكنني سأدعهم يقتربون منه قبل أنْ يعرفوا عنه أي شيء بقدر عدم معرفة الفيل بهم. وأفعل الشيء نفسه مع العشب، وأشياء أخرى. بل إنني لا أخبرهم بأنَّ العشب أخضر اللون. لأنَّ الألوان هي مجرد أسماء. أعني إذا أخبرتهم بأنَّ العشب أخضر، فسوف يبدؤون بتوقّع أنْ يبدو العشب بطريقة معيَّنة –طريقتك أنت– بدل طريقة أخرى قد تكون جيدة مثلها، أو أفضل منها بكثير... لا أعلم. أنا فقط أجعلهم يتخلون عن كل شيء لقّنهم إياه آباؤهم وكل شخص آخر»

«ألا تجازف بذلك بتنشئة جيل من الجهلة الصِغار؟»

قال تيدي «لِمَ؟ لن يعودوا جهلة بعد ذلك كأي فيل. أو طائر. أو شجرة. إنَّ كون شيء ما طريقة معيَّنة، بدل أنْ يتصرَّف بطريقة معيَّنة، لا يعني أنّه جاهل»

«أحقاً؟»

قال تيدي «كلا! ثم، إذا أرادوا أنْ يتعلّموا كل تلك الأشياء الأخرى – الأسماء والألوان والأشياء– يمكنهم أنْ يفعلوا ذلك، إذا شاؤوا، لاحقاً أو عندما يُصبحون أكبر سناً. لكنني سأريد منهم أنْ يبدأوا بكل الطرق الحقيقيّة للنظر إلى الأشياء، وليس فقط الطريقة التي ينظر بها مُتقبّلو الأوهام الآخرون

كلهم إلى الأشياء -هذا ما أعني»، واقتربَ من نيكلسون، ومدَّ يده له. «يجب أنْ أذهب الآن. حقاً. لقد استمتعت-»

قال نيكلسون «دقيقة أخرى من فضلك. هل حدث مرّة أنْ فكّرتَ في أنّك يمكن أنْ تحبّ أنْ تقوم ببحث ما عندما تكبر؟ بحث طبيّ، أو ما شابه؟ يبدو لي أنَّ في استطاعتك في نهاية المطاف، بطريقتك الحاليّة في التفكير أنْ-»

أجاب تيدي، ولكن من دون أنْ يجلس، قال «لقد فكّرتُ في هذا ذات مرة، قبل نحو عامين. تحدثتُ مع عدد وافر من الأطباء»، وهزَّ رأسه استنكاراً، «لم يُثِر ذلك اهتمامي كثيراً. إنَّ الأطباء سطحيون جداً، ودائماً يتحدثون عن الخلايا وما شابه»

«أحقاً؟ ألا تولي بُنية الخليّة أيّة أهميّة؟»

«نعم، طبعاً، أهتمّ. لكنَّ الأطباء يتكلمون عن الخلايا كأنَّ لها بحدّ ذاتها أهمية مُطلقة. وكأنها في الحقيقة لا تنتمي إلى الشخص الذي يحملها». دفع تيدي شَعره نحو الخلف بعيداً عن جبينه بإحدى يديه. قال «أنا نمّيتُ جسمي، ولا أحد غيري فعل ذلك بالنيابة عني. فإذا كنتُ قد نمّيته، فهذا يعني أنني أعرف كيف أفعل ذلك. في اللاوعي، على الأقلّ. لعلّي أضعتُ المعرفة الواعية لكيفيّة تنميته خلال بضع مئات الآلاف من السنين الأخيرة، لكنَّ المعرفة ما زالت موجودة، لأنني -طبعاً- استخدمتها... وسوف يستغرق استعادتها كلها-أعني المعرفة الواعية- الكثير من التأمّل والإفراغ، ولكن تستطيع أنْ تفعل هذا إذا أردت. إذا انفتحتَ بالقدر الكافي». فجأة انحنى وأمسك بيد نيكلسون اليُمنى ورفعها عن ذراع الكرسي. هزّها مرةً واحدة، بمودة، وقال «وداعاً. يجب أنْ أذهب»، وهذه المرّة لم يتمكّن نيكلسون من احتجازه، وانطلقَ مُسرعاً ليشقّ طريقه بين الكراسي.

جلس نيكلسون بعد رحيله بضع دقائق لا يُبدي أيّة حركة، ويداه على مسندي الكرسي، وسيجارته غير المشتعلة لا تزال بين إصبعين في يده اليُسرى. وأخيراً، رفع يده اليُمنى واستخدمها كأنما لكي يتبيَّن إنْ كانت ياقة قميصه ما زالت مفتوحة. ثم أشعل سيجارته، وعاد للجلوس بسكون تامّ.

دخَّنَ السيجارة حتى آخرها، ثم قام بسرعة بإنزال إحدى قدميه عن جانب

الكرسي، ودهس السيجارة، ونهضَ واقفاً على قدميه، وشقَّ طريقه، بسرعة، على طول الممر بين الكراسي.

هبط برشاقة، مستخدماً الدَرَج المستقيم، إلى سطح التنزه. واستمر في الهبوط، من دون أنْ يتوقف هناك، ولا يزال مُسرعاً، إلى السطح الرئيسيَ. ثم إلى السطح الأول، فالثاني، فالثالث، ثم الرابع.

عند السطح الرابع انتهى الدَرَج المستقيم، فتوقف نيكلسون برهة، كأنّه أضاع اتجاهه. لكنه لمح شخصاً بدا قادراً على إرشاده. وفي منتصف المسافة على طول الممر، كانت إحدى القيّمات جالسة على كرسي في الممر الخارجي، تقرأ في مجلّة وتدخّن سيجارة. اقترب نيكلسون منها، واستشارها بإيجاز، وشكرها، ثم خطا بضع خطوات أُخر نحو الأمام وفتحَ باباً معدنيّاً ثقيلاً مكتوباً عليه. **إلى بركة السباحة**. كان يؤدي إلى مطلع دَرَج ضيّق، غير مكسو بالسجاد.

كان قد قطع أكثر قليلاً من منتصف المسافة على مطلع الدرج عندما سمع صراخاً ثاقباً، وثابتاً - من الواضح أنّه صادر عن طفلة صغيرة. كان ضخماً جداً، وكأنّ أصداءه تتردَّد بين جنبات أربعة جدران مكسوّة بالآجر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

9 789933 676087